

محركات قاتلة

ترجمة: هبة الله الجمَّاع

MORTAL ENGINES

الكنزي
ALKANZY

تأليف: فيليب ريف


أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

1 أرض الصيد

كانت فترة بعد ظهيرة قاتمة في أحد أيام فصل الربيع، حيث تحركت مدينة لندن لمطاردة تلك البلدة التعدينية الصغيرة عبر بحر الشمال القديم الجاف.

في أوقات أفضل من تلك، ما كانت لندن لتكلف نفسها عناء مطاردة فريسة هزيلة كتلك البلدة، ففي أيام مجدها كانت المدينة العظيمة تمضي أيامها في اصطياد مدن أكبر وأثمن بكثير من تلك البلدة، فكانت تنهب الأرض نهبًا خلف فرائسها، إلى أقصى الشمال حيث الصحراء الجليدية المقفرة، وإلى أقصى الجنوب حتى شواطئ البحر الأبيض المتوسط.

ولكن ولت تلك الأيام المجيدة، وأمست الفرائس، على اختلاف أنواعها، شحيحة. وبعدما كانت لندن صيادًا ماهرًا يطارد فرائسه، أضحت هي ذاتها مطمعًا تنظر إليها المدن الكبرى في جوع ونهم؛ ولمدة عشر سنوات حتى الآن، ظلت لندن تختبئ منهم، وتحاول التواري عن أعينهم في تلك المنطقة الجبلية الغربية التي أسماها المؤرخون يوما» الجزيرة البريطانية».

وعلى مدى عشر سنوات، ماكانت المدينة تتغذى على شئ تقريبا سوى البلدات الزراعية الصغيرة والمستوطنات الساكنة الراكدة، الواقعة عند التلال الرطبة.

والآن، قرر عمدة لندن أخيرًا أن الوقت قد حان ليعيد مدينته إلى ساحة الصيد الكبرى، فقد رصدت أبراج المراقبة بلدة التعدين على بعد ٢٠ ميلا.

بالنسبة لأهل لندن كانت تلك بمثابة إشارة من الآلهة إليهم، وحتى العمدة - الذي لم يكن يؤمن بالآلهة ولا بالإشارات - اعتبر ذلك بمثابة بداية جيدة لارتحالهم شرقًا، فأصدر الأوامر ببدء المطاردة.

أما بلدة التعدين فقد أدركت الخطر المحيط بها فحاولت الفرار، إلا أن محركات لندن قد دارت وبدأت بالفعل في التحرك أسرع فأسرع. كانت المدينة تتحرك رازحة تحت ثقلها، عبارة عن جبل متحرك من المعدن، يرتفع في سبع طبقات، بعضها فوق بعض، ككعكة عرس.

وكانت المستويات السفلى من الجبل محاطة بدخان المحركات، في حين تحتل الطبقات العليا منه المنازل الفاخرة لأثرياء المدينة، وفوقهم جميعا يتألق الصليب الذهبي على رأس كاتدرائية سانت بول، بعيدًا عن الأرض الخراب بألفي قدم.

***

كان توم يعكف على تنظيف المعروضات في قسم التاريخ الطبيعي بمتحف لندن، حينما شعر باهتزاز الأرض المعدنية تحت قدميه، فنظر من فوره لأعلى ليجد نماذج هياكل الحيتان والدلافين المعلقة في سقف صالة العرض تتأرجح مصدرة صوت صرير خفيف.

إلا أن توم لم يشعر بالذعر، فقد عاش في لندن على مدار سنواته الخمسة عشرة وقد اعتاد على تحركاتها.

أدرك الفتى من الاهتزازات أن المدينة تغير وجهتها وتزيد من سرعة تحركها، فبدأت تدب فيه الحماسة، وانبعثت فيه تلك الإثارة القديمة لمغامرات مطاردة الفرائس والصيد، وهي الإثارة التي يتشاركها أهل لندن جميعا.

«لابد أن هناك فريسة تلوح في الأفق!» قالها الفتى لنفسه وهو يلقي أدوات التنظيف من يديه، ثم أسند راحتيه إلى الحائط، فشعر بالاهتزازات المتصاعدة الصادرة عن المحركات الضخمة القابعة في باطن الجبل المعدني، في أحشاء لندن، وتيقن تمامًا من أن المدينة تتحرك بالفعل ! بل وأن المحركات المساعدة تعمل هي الأخرى، حيث يشعر بنبضاتها الضاربة في عمق الجدار وهي ترتد إلى عظامه.

فجأة انفتح الباب في نهاية صالة العرض، واندفع شالديغ بوميروي إلى الداخل وقد تطاير شعره المستعار واستحال وجهه المستدير إلى اللون الأحمر في سخط واضح، وانفجر قائلا : « ماهذا بحق كويرك؟»، قالها وهو يحدق في المعروضات المتأرجحة من حوله:

- ماالذي يجري أيها المتدرب ناتسورثي؟

«إنها مطاردة صيد سيدي» أجاب توم وهو يتعجب في سره، كيف لنائب مدير عصبة المؤرخين والذي عاش في لندن كل تلك السنوات، ألا يستطيع تمييز الأمر ببساطة؟!

«لابد وأنه أمر جيد» أكمل توم كلامه : «فقد قاموا بتشغيل كافة المحركات المساعدة، وهو أمر لم يحدث منذ عقود. ربما استعادت

لندن حظها السعيد ثانية».

«أه» أجاب بوميروي مبديًا تذمره، ثم أجفل فجأة حينما بدأت الواجهات الزجاجية للمعروضات في إصدار صرير والاهتزاز مع حركة المحركات.

وفوق رأسه كانت أكبر المجسمات - وهي عبارة عن مجسم لكائن ما كان يدعى الحوت الأزرق والذي انقرض منذ آلاف الأعوام - تهتز بشدة، جيئة وذهابًا كلوح متأرجح.

«قد يكون الأمر كذلك ناتسورثي، فقط أتمنى أن يقوم المهندسون بإضافة ممصات للصدمات لهذا المبنى، فبعض معروضاته شديدة الحساسية ولن تتحمل تلك الاهتزازات. لكنهم لن يفعلوا ذلك، لن يفعلوه مطلقًا» ثم أخرج منديلاً من ردائه الأسود الطويل ليمسح وجهه.

« إذا سمحت لي سيدي، هل لي أن أهبط إلى حيث منصات المشاهدة لمتابعة المطاردة فقط لنصف ساعة؟ فقد مضت سنوات منذ آخر مطاردة صيد جيدة « .

نظر له بوميروي مصدومًا : « بالطبع لا أيها الفتى ! انظر لكل تلك الفوضى التي سببتها تلك المطاردة البائسة، كل تلك المعروضات سوف تحتاج لفحصها وتحديد ما أصابها من تلفيات نتيجة الاهتزاز، ثم تنظيفها وإعادة ترتيبها من جديد» .

« لكن هذا ليس عدلاً «قالها توم محتجا» فقد انتهيت لتوي من تنظيف المعرض بأكمله»، وبمجر أن أنهى كلامه أدرك توم أنه قد اقترف خطأ كبيرًا بحديثه بهذا الشكل، فالعجوز شادليغ بوميروي

لم يكن رجلاً سيئا في العموم، لكنه لايحب أن يراجعه أحد في أوامره، خاصة إذا صدر ذلك من مجرد متدرب من الدرجة الثالثة؛ شد بوميروي قامته إلى أقصى مدى لها وعبس بوجهه بشدة - حتى أن علامة عصبة المؤرخين على جبهته قد اختفت تقريبا بين حاجبيه - ودوى صوته قائلاً : « الحياة ليست عادلة أيها الفتى، ولو صدرت منك أية وقاحة مرة أخرى فسوف ألقي بك للعمل في أحشاء الجبل بمجرد انتهاء المطاردة».

ابتلع توم لسانه من فوره وخفض عينيه، فمن ضمن كل الأعمال الرهيبة التي يمكن أن يكلف بها متدرب من الدرجة الثالثة، كان العمل في باطن الجبل أكثر الأعمال بغضًا بالنسبة له.

«لقد تم تكليفك بالعمل في ذلك القسم حتى الساعة السابعة، وسوف تؤدي عملك هنا حتى تمام السابعة «ثم أكمل بوميروي» في تلك الأثناء عليّ أن أستشير باقي الزملاء حيال تلك الاهتزازات المروعة» ثم انطلق خارجًا من الصالة.

وقف توم يتابع رئيسه بعينيه حتى اختفى عنه، ثم التقط أدواته وعاد بائسا إلى العمل.

لم يكن توم يمانع من أداء أعمال التنظيف، خاصة في ذلك المعرض المحبب إليه، بمجسماته القديمة، والحوت الأزرق الفاغر فاه في ابتسامة زرقاء كبيرة، وحينما كان يتملكه الملل من مهامه، كان ببساطة يتخذ من أحلام اليقظة ملجأ له، فكان يتخيل نفسه وقد صار بطلا يحرر الفتيات الجميلات من قراصنة الجو وينقذ لندن من الجماعة المناهضة للتحرك، ويعيش سعيدا إلى الأبد. ولكن الآن، كيف له أن يستغرق في أحلام اليقظة في

حين تستمتع المدينة برمتها بأول مطاردة صيد مميزة منذ زمن؟!

انتظر توم لعشرين دقيقة، لكن بوميروي لم يعد ثانية، ولم يكن هناك أحد في الجوار، فقد كان ذلك يوم الأربعاء حيث المتحف مغلق أمام الجماهير، ومعظم كبار عصبة المؤرخين، وكذلك العاملين من الدرجة الأولى والثانية، في إجازة.

كانت الأجواء هادئة تماما، وتساءل توم في سره : ماالذي سوف يضيره لو أنه تسلل خارجا لعشر دقائق فقط لمتابعة مايجري!. اتخذ توم قراره، فقام بإخفاء حقيبة أدوات التنظيف خلف مجسم لثور التيبت، ثم هرع خارجا عبر ظلال مجسمات الدولفين المتأرجحة، إلى حيث الباب.

وعلى طول الرواق، كانت مصابيح الأرجون تهتز هي الأخرى، ملقية بضوئها على الحوائط المعدنية.

أثناء خروجه، كان اثنان من عصبة المؤرخين يسرعان الخطى، وسمع توم صوت دكتور أركينجارث وين يقول : « الاهتزازات. .. إنها تتلاعب بالأواني الخزفية خاصتي، والتي تعود للقرن الخامس والعشرين. إنها تحيل الأمر جحيما».

انتظر توم حتى توارى الرجلان ثم انسل سريعا خارجا إلى أقرب درج، ثم سلك طريقا مختصرا عبر معرض القرن الخامس والعشرين، مارا بالمجسمات البلاستيكية لميكي ماوس وبلوتو وتماثيل الآلهة ذات رؤوس الحيوانات، والتي سادت أمريكا المفقودة، ثم أسرع الخطى عبر الردهة الرئيسية وأسفل صالات العرض المليئة ببعض المقتنيات التي نجت بشكل أو بآخر عبر

آلاف السنين، منذ دمر الأقدمون أنفسهم بالقنابل النووية والفيروسية في تلك الحرب المسماة حرب الستين دقيقة.

مرت دقيقتان، ثم تسلل توم خارجا عبر بوابة جانبية إلى حيث الضوضاء والصخب اللذان يسودان ساحة توتنهام.

يقع متحف لندن في وسط الطبقة الثانية من الجبل، في منطقة مزدحمة تسمى بلومزبيري. مضى توم في طريقه عبر الشارع المظلم والمزدحم، غير عابئ بما إذا تم اكتشاف وجوده خارج المتحف، وانطلق نحو شاشة الرصد العامة خارج محطة المصعد في طريق ساحة توتنهام. وبين الزحام، شاهد للمرة الأولى الفريسة البعيدة، تلك البقعة الرمادية المائلة للزرقة والتي التقطتها الكاميرات المثبتة في الطبقة السادسة.

«إنها بلدة تدعى سات هووك « دوى صوت المعلق عبر مكبرات الصوت معلنا اسم الفريسة المستهدفة، ثم : « هي بلدة تعدينية يبلغ تعدادها تسعمائة نسمة، وهي تتحرك حاليا بسرعة ثمانين ميلا في الساعة نحو الشرق، إلا أن طاقم الملاحة يتوقع أن تتمكن لندن من الإمساك بها قبل مغيب الشمس. ومن المؤكد أن هناك المزيد من البلدات التي تنتظرنا هناك خلف الجسر الأرضي، وهو ما يشير بوضوح إلى أي مدى كان عمدتنا المحبوب حكيما حينما قرر التحرك بلندن نحو الشرق مجددا» .

لم يشعر توم طوال حياته بمدينته تتحرك بتلك السرعة من قبل، ولكم تاق أن يشهد ذلك التحرك على منصات الرصد. وكان يعلم جيدا أنه قد وقع بالفعل في مشكلة كبيرة مع السيد بوميروي جراء فراره من العمل. لكنه كان يردد لنفسه: أن اختلاس بضعة

دقائق من وقت العمل لمشاهدة الحدث الجلل لن تتسبب في كارثة.

انطلق توم يعدو سريعا، حتى وصل لساحة بلومز بيري حيث الهواء الطلق، عند حافة الطبقة.

لقد كانت تلك الساحة في يوم ما متنزها حقيقيا تزينه الأشجار، ويمتلئ ببحيرات البط، ولكن بعدما صارت الفرائس شحيحة، تم تحويل كل ذلك إلى مصانع للغذاء، وأزيلت المروج الخضراء لصالح زراعة نبات الكرنب وأحواض الطحالب.

كانت منصات المشاهدة موجودة، كما برزت الشرفات عند حافة الطبقة لمشاهدة أفضل وأكثر واقعية. انطلق توم نحو أقرب الشرفات، والتي عجت بحشود من المتابعين، وقد ميز توم من بينهم مجموعة من عصبة المؤرخين، بردائهم الأسود المميز.

حاول توم شق طريقه بين الزحام، مع حرصه على ألا يلحظه أحد من المؤرخين، حتى وصل إلى إفريز الشرفة.

كانت سالت هووك على بعد خمسة أميال فقط، حيث كانت تشق طريقها هي الأخرى هربا من صيادها، وكانت محاطة بالدخان الأسود المنبعث من مداخنها.

«ناتسورثي» انتفض قلب توم بمجرد سماعه اسمه، واستدار بسرعة ليجد نفسه واقفا بجوار ميليفانت، ذلك المتدرب من الدرجة الأولى، والذي كان ينظر إليه وعلى وجهه ابتسامة عريضة، قائلا : « أليس ذلك رائعا؟ صيد سمين صغير مع محركات أرضية من فئة ٢٠c هذا بالضبط ما تحتاج إليه لندن !»

كان هربرت ميليفانت أسوأ شخصية يمكن أن يقابلها المرء في حياته؛ فهو لا يكتفي بإيذاء من هم أضعف منه جسديا فقط، بل يبذل كل جهده للكشف عن أسرارهم الدفينة وأكثر الأمور إيلاما لهم، ثم يبدأ في استخدامها ضدهم وإهانتهم بها.

كان ميليفانت مستمتعا بالاجتراء على توم والاستئساد عليه، وما كان لتوم - ذلك الصغير الخجول - أن يفعل شيئا حيال ذلك، فليس له من أصدقاء يحتمي بهم، وبالطبع لايمكنه الوقوف في وجه ميليفانت ابن العائلة الموسرة التي بذلت الأموال لتجعل منه متدربا من الدرجة الأولى، في حين أن توم، الذي فقد عائلته مبكرا، مجرد متدرب من الدرجة الثالثة.

أدرك توم من أول وهلة أن ميليفانت ما كان ليتحدث إليه إلا لرغبته في لفت انتباه كليتي بوتس، تلك المؤرخة الشابة التي كانت تقف خلفهما مباشرة. أومأ توم برأسه ثم استدار موجها كل تركيزه نحو المطاردة.

« انظروا!» صاحت كليتي بوتس. كانت المسافة بين لندن وفريستها تضيق شيئا فشيئا، وبدأت معالم سالت هووك تتضح.

ثم ظهرت المناطيد وبدأت تلوح في السماء خارجة عن المدينة الفريسة، ومع ظهورها انتشى أهل لندن فرحين في جذل، وقال ميليفانت شارحا « إنهم التجار الجويون، لقد أدركوا أن مدينتهم هالكة لامحالة، فقرروا الفرار قبل أن تسقط فريسة لنا. لو لم يفعلوا ذلك لاستحوذنا على كل ما يملكون « .

لاحظ توم - في سعادة - أن كليتي كانت تنظر لميليفانت وقد بدا

عليها الملل والتذمر، فقد كانت تكبره بعام، ولابد أنها تعرف تلك المعلومات عن ظهر قلب، فقد مرت باختبارات الانضمام لعصبة المؤرخين وعلى جبهتها يتجلى وشم العصبة واضحا.

« انظروا « قالتها كليتي ثانية فانتبه توم « انظروا، أليس مشهدا جميلا «؟!

أزاح توم شعره المبعثر عن عينيه ونظر إلى حيث أشارت، فرأى المناطيد الهوائية ترتفع في السماء أكثر فأكثر، قبل أن تختفي بين السحب الرمادية. للحظة تمنى توم لو استطاع الذهاب معهم والتحليق بعيدا إلى حيث ضوء الشمس.

لكم تمنى في تلك اللحظة لو أن أهله الفقراء ما كانوا تركوه في رعاية عصبة المؤرخين للتدريب بينهم حتى يصبح مؤرخا هو الآخر، فمن يدري، ربما كان بإمكانه حينها أن يعمل على متن إحدى المركبات الجوية، وأن يرى مدن العالم أجمع : برتو انجلوس الهائمة على وجهها في المحيط الهادئ.. .. أركانجيل، على زلاجاتها الحديدية عبر البحار الشمالية المتجمدة. .. مدن زيجورات العظمى. .. والمعاقل الثابتة لجماعة مكافحة التحرك.

إلا أن تلك لم تكن سوى أحلام يقظة عليه ادخارها لساعات مابعد الظهيرة المملة في المتحف.

استفاق الفتى من أحلامه على أصوات الجماهير المبتهجة في حماسة زائدة أنبأته بأن المطاردة قد أوشكت على نهايتها، فنسي المناطيد تماما وركز انتباهه على سالت هووك ذاتها.

لقد صارت البلدة على مسافة قريبة جدا حتى أن مشهد سكانها

وهم يركضون على طبقاتها العليا قد بدا واضحا. لابد وأن الأمر يبدو مروعا بالنسبة لهم، وهم يرون لندن تنقض عليهم، فيهرعون في كل حدب وصوب فلا يجدون ملجأ ولا مهرب، ولا مكان للاختباء. لكنه لا ينبغي له أن يشعر بالأسى من أجلهم، فهكذا هي طبيعة الأمور، أن تأكل المدن البلدات، كما تأكل البلدات الكبيرة البلدات الأصغر منها، والبلدات الأصغر تقتنص المستعمرات، هكذا هي طبيعة الحياة، وهكذا صار العالم منذ آلاف السنين، منذ قام المهندس العظيم نيكولاس كويرك بتحويل لندن لأول مدينة متحركة.

« لندن.. لندن» صاح توم مشاركا الجماهير صيحاتهم الحماسية، وبعد لحظة بدأ أهل لندن في اقتناص جائزتهم مع مشهد إحدى عجلات سالت هووك وهي تتكسر، وتوقفت البلدة عن المسير، وانهارت المداخن فوق الشوارع وأهلها المذعورين، ثم توارت البلدة عن الأعين مع انقضاض الطبقات الدنيا من لندن عليها لتبتلعها تماما، وشعر توم باهتزازات الفك الآلي للمدينة وهو يهشم البلدة ويقضي عليها تماما، مسدلا الستار على الأحداث الصاخبة.

ساد الابتهاج المحموم منصات المتابعة في كافة أرجاء المدينة، وبدأت مكبرات الصوت المثبتة على أعمدة الطبقة تذيع الأغنية الحماسية « فخر لندن»، وفوجي توم بأحد الأشخاص والذي لا يعرفه ولم يره في حياته من قبل، يحتضنه بشدة صائحا في أذنه: « أمسكنا بهم.. أمسكنا بهم «، إلا أن توم لم يبالِ كثيرا لكونه لا يعرف محدثه، ففي تلك اللحظات كان يشعر بأنه يحب جميع الناس من حوله على المنصة، حتى ميليفانت.

« نعم، أمسكنا بهم « قالها مجيبا الغريب، محررا نفسه منه، ثم شعر باهتزازات الفك ثانية مدركا أنه في تلك اللحظة تقوم الأسنان المعدنية العملاقة للمدينة بمضغ سالت هوك وابتلاعها إلى حيث أحشائها.

«... وربما يريد المتدرب ناتسورثي المجئ أيضا « قالتها كليتي بوتس، فانتبه توم الذي لم يكن لديه فكرة عما كانت تتحدث عنه حينها، لكنه بمجرد أن التفت إليها ابتسمت ممسكة بذراعه قائلة : « سوف تقام احتفالات في حدائق كينسينجتون الليلة... وسوف يكون هناك رقص وألعاب نارية، هل تريد مشاركتنا؟»

عادة لايقوم الناس بدعوة المتدربين من الدرجة الثالثة إلى الحفلات، خاصة حينما يكونون مثل كليتي بوتس تي تتمتع بشعبية كبيرة ومحبة الجميع. ظن توم في البداية أنها تمزح، إلا أن ميليفانت كان يرى غير ذلك، فسحبها من ذراعها قائلا « لانريد أشخاصًا من درجة ناتسورثي معنا « .

« ولمَ لا؟ « تساءلت كليتي، فأجابها غاضبا وقد استحال وجهه المستدير إلى اللون الأحمر، : « إنه مجرد متدرب من الدرجة الثالثة، ولن يحصل على درجة مؤرخ أبدا، بالكاد سينتهي به الحال كمساعد للقيم على صالات المتحف. أليس كذلك ناتسورثي؟.. ياله من أمر مثير للشفقة أن والدك لم يترك لك مالًا يكفي للحصول على درجة تدرب أفضل.. « .

« هذا ليس من شأنك» صاح توم في غضب، وكان ابتهاجه بالحدث الجلل الذي دار منذ قليل حيث عاد يفكر في العقاب الذي

ينتظره حينما يدرك السيد بوميروي أنه قد تسلل من عمله، ولم يكن لديه بال رائق لتحمل سخريات ميليفانت ولسانه اللاذع.

« لكن تبقى تلك هي الحقيقة لمن قضوا حياتهم في إحدى أحياء الفقراء في الطبقات الدنيا « قالها ميليفانت هازئا، ثم وجه كلامه لكليتي بوتس :» كان والدا ناتسورثي يعيشان في الأسفل بالطبقة الرابعة، وحينما وقعت (الطاحنة الكبرى) انسحق كلاهما حتى سويا بالأرض». وعندها، تصرف توم تلقائيا دون أي تفكير، ولم يدربنفسه إلا وهو يكور قبضته ويوجهها في قوة نحو ميليفانت الذي أجفل وانقلب على ظهره. صاح احد من الحاضرين في حماسة وأصدرت كليتي ضحكة مكتومة، في حين وقف توم مذهولا يرمق قبضته ويتساءل في سره : كيف استطاع فعلها! لكن ميليفانت، الذي كان أضخم من توم وأكثر قسوة وخشونة منه، فسرعان ما وقف على قدميه من جديد. حاولت كليتي منعه، في حين احتشد الفتيان من المتدربين من حولهم في حماسة، صائحين: « قاتلوا.. قاتلوا» .

أدرك توم أن فرصته في هزيمة ميليفانت لاتزيد عن فرصة سالت هووك في هزيمة لندن!. تراجع خطوة للخلف، إلا أن الحشد المحيط بهما دفعه للأمام من جديد، ولم يدر إلا وميليفانت يشبعه ضربا ولكما، حتى انثنى على نفسه وعيناه مغرورقتان بالدموع. وفي انحناءته المؤلمة تلك سمع صوتا قويا، وحينما رفع رأسه فوجئ بالوجه المستدير الأحمر والذي ازداد احمرارا حينما فوجئ بوجه توم يطالعه- ذي الحاجبين الكثين، يرمقه في غضب : إنه شادليغ بوميروي. « ناتسورثي» صاح السيد بوميروي « بحق كويرك، ماذا تظن نفسك فاعلًا؟!».


أهم جروبات على تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

2 فالانتاين

وجد توم نفسه وقد ألقي به إلى حيث العمل في أحشاء لندن، في الوقت الذي يحتفل فيه الجميع باقتناص سالت هووك. فبعد محاضرة طويلة ومحرجة من التوبيخ في مكتب بوميروي، لم يكن أمام الفتى سوى الانصياع للأوامر والتوجه نحو محطة ساحة توتنهام وانتظار المصعد، والذي جاء أخيرا، لكنه كان مزدحما تماما، حيث كانت المقاعد في الدرجة الأعلى ممتلئة عن آخرها بمجموعة من الرجال والنساء الذين يبدو عليهم الغرور والتعالي، إنهم من عصبة المهندسين، وهي أقوى الجماعات الأربعة الكبرى التي تدير لندن.

ارتجف توم لرؤيتهم، برؤوسهم الحليقة ومعاطفهم البيضاء المطاطية، لذا فضل الوقوف في القسم الأدنى، حيث الوجه المتجهم لعمدة لندن يطل عليه محدقا من تلك الصور المعلقة والمدون عليها :» الحركة هي الحياة - ساعدوا عصبة المهندسين ليبقوا على لندن متحركة» .

تحرك المصعد إلى الأسفل، حيث كان يتوقف عند كافة المحطات المألوفة : بيكر لوو- هولبورن العليا- هولبورن السفلى - بيزنال جرين. وفي كل محطة يدلف إلى المصعد حشد جديد.

وصل المصعد إلى حيث أحشاء المدينة، حيث تقوم لندن بهضم البلدات التي تقتنصها. كان المكان عبارة عن عنابر قذرة ومصانع تعج بالآلات، تمتد بين الفك الآلي العملاق وغرف المحرك المركزي، وكان توم يشعر بالاشمئزاز الشديد من ذلك المكان.

كانت الأحشاء صاخبة على الدوام، تعج بالعمال البؤساء من الطبقات الدنيا والذين هم دوما في وضع مزرٍ، لايفوقه ترديا وبؤسا سوى حال السجناء الذين كانوا يقبعون هم أيضا في الأحشاء، أو بالأحرى في سجون الأحشاء العميقة.

وكانت الحرارة الشديدة المنبعثة في الأرجاء تصيب توم بالصداع دائما، كما أن رائحة الكبريت المنتشرة في الهواء تسبب له السعال، علاوة على مصابيح الأرجون التي كانت تؤذي عينيه بشدة. إلا أن عصبة المؤرخين كانوا يحرصون دائما على إرسال بعض من مرؤوسيهم من المتدربين إلى الأحشاء في وقت اصطياد وهضم البلدات وذلك لتذكير عمال الأحشاء بأن للتاريخ أهمية لاتقل عن أهمية الحجارة والمعادن والفحم، ومن ثم فإن أي كتب أو تحف أو مقتنيات فنية يتم العثور عليها في البلدة الفريسة، يجب أن يتم الحفاظ عليها وأن تؤول ملكيتها إلى عصبة المؤرخين.

شق توم طريقه خارجا من المصعد المكتظ، وسارع باتجاه مستودع عصبة المؤرخين، عبر الممرات الأسطوانية ذات البلاط الخزفي الأخضر والممشى المعدني، والتي تعلو عنابر الهضم. ومن مكانه استطاع توم أن يرى سالت هووك وهي تستحيل حطاما، وقد بدت ضئيلة متقزمة مقارنة بضخامة لندن.

كانت ماكينات السحق والهضم الضخمة الصفراء تدور حول الفريسة وتتسلقها عبر أرجل ميكانيكية أشبه بسيقان العناكب. وكان قد سبق وتم نزع تروس وعجلات البلدة والمحاور التي تدور عليها، والآن يبدأ الإجهاز على هيكلها ذاته، حيث شرعت

المناشير الآلية في قطع ألواح الهيكل، وقد تناثرت الشظايا في كل مكان، في حين تنبعث حرارة شديدة من الأفران ومصهرات المعادن التي تستعد لاستكمال العملية.

استأنف توم طريقه وهو يتصبب عرقا من شدة الحرارة، حتى بلغ المستودع أخيرا، وفي الداخل كانت الأجواء أقل حدة. لم تكن سالت هووك تملك متحفا أو مكتبة، أما القطع الصغيرة التي تم استخراجها من متاجر العاديات بالبلدة فقد تم جمعها وتعبئتها في صناديق تمهيدا لإرسالها إلى الطبقة الثانية. طالما أن العمل ليس بكثير هذه المرة، فلربما استطاع أن ينتهى منه مبكرا ثم يلحق بالاحتفال في الخارج، هكذا أسر توم إلى نفسه، وتساءل في سره عمن سوف يتولى الدوام هذه الليلة من رجال العصبة؟! لو أنه أركيناغ العجوز أو دكتور واي ماوث فلا أمل له إذن في مشاهدة الاحتفالات، فهما يصران دوما على أن يقضي المتدرب ساعات دوامه بالكامل حتى نهايتها، سواء كان لديه عمل يؤديه أم لا؛ أما لو كان المكلف بالعمل الليلة هو بوتي بوترتايد أو الآنسة بلايم، فسوف تكون أموره على مايرام، ولربما تمكن من الاستمتاع بالاحتفالات كما يتمنى.

بمجرد أن وصل توم إلى مكتب المشرف على المستودع، أدرك من فوره أن هناك شخصًا فائق الأهمية موجود الليلة في الأحشاء!، فهناك، خارج المكتب، كانت تقف مركبة سوداء مصقولة تحمل شعار عصبة المؤرخين على غطائها، وكان أكثر لمعانا وتألقا بحيث لايمكن أن تكون المركبة لأي من أفراد العصبة العاديين؛ وبجانبها وقف اثنان من الرجال التابعين للعصبة من ذوي الرتب العالية - كما يتبدى من الزي الذي يرتديه كل منهما -

ينتظران في سكون، وكان يبدو عليهما الخشونة بالرغم من أزيائهما الفاخرة.

تعرف توم على هوية الرجلين من أول نظرة، إنهما بيوسي وجينيش، اللذان يعملان في خدمة كبير المؤرخين منذ عشرين عاما. .. إذن... فالانتاين هنا!.

مضى توم في طريقه وهو يفكر في الأمر، محاولا ألا يطيل النظر إلى الرجلين، وخف الخطى نحو الدرج. كان ثاديوس فالانتاين يمثل رمزا للبطولة في وجدان توم، فهو الرجل الذي تحول من مجرد جامع لمخلفات الصيد إلى أشهر عالم آثار في لندن، بل وصار أيضا كبير مؤرخيها، وكان توم يحتفظ بصورة له في مهجعه حيث قام بتثبيتها فوق سريره، كما قرأ كتبه« مغامرات مؤرخ عملي» و»الصحراء الأمريكية: رحلة عبر القارة الميتة بصحبة بندقية وكاميرا ومنطاد» حتى حفظها عن ظهر قلب.

وكانت أكثر لحظات حياته فخرا هي حينما جاء فالانتاين لتقديم جوائز نهاية العام للمتدربين، وكان توم - الذي لم يكن قد تجاوز الثانية عشر من عمره حينها - ضمن الفائزين بالجوائز وذلك عن بحث قدمه حول كيفية التعرف على الآثار المزيفة. ظل توم يتذكر كل كلمة قالها الرجل العظيم في ذلك اليوم : « لاتنسوا أبدا أيها المتدربون أننا نحن معشر المؤرخين نمثل أهم عصبة في مدينتنا. نحن لانجني أموالا طائلة كالتجار، لكننا نصنع المعرفة والتي تمثل قيمة أعلى وأعظم من المال. ربما نحن لسنا مسئولين عن قيادة لندن كالملاحين الجويين، ولكن ماذا كان ليفعل هؤلاء الملاحون إن لم نكن نحن قد قمنا بحفظ الخرائط القديمة؟!. أما

بالنسبة لعصبة المهندسين فعليكم أن تتذكروا أن كل آلة قد قاموا بتطويرها إنما هي قد قامت بالأساس على قطع وبقايا من آلات قديمة استطاع رجال متحفنا الحفاظ عليها أو تمكن علماء الآثار لدينا من اكتشافها «.

لم يتمكن توم يومها من التفوه بأي شئ حينما تسلم جائزته، سوى بتمتمة واهنة :» شكرا لك ياسيدي». قبل أن يعاود إلى مقعده، ولهذا كان على يقين تام وهو يتخذ طريقه لمكتب المشرف أن فالانتاين لن يتذكره بأي حال.

لكنه وبمجرد أن فتح باب المكتب، نظر إليه الرجل العظيم وابتسم قائلا: « إنه ناتسورثي، أليس كذلك؟ إنه ذلك المتدرب البارع في اكتشاف الآثار الزائفة. يجب عليَّ أن أرقب تحركاتي جيدا وإلا فإنك سوف تكشفني لامحالة «. لم تكن تلك مجرد مزحة منه، وإنما كانت أيضا محاولة لكسر الارتباك المعتاد الذي يسود العلاقة بين المتدرب وكبار أعضاء العصبة دائما. وبالفعل استرخى توم بما يكفي ليكف عن التردد ويدخل إلى المكتب، حاملا في يده ملاحظة مدونة من بوميروي.

وقف فالانتاين وتقدم لتسلُّم الملاحظة من الفتى. كان رجلا طويلا ووسيما، في الأربعينات من عمره، ذا شعر أسود تتخلله شعيرات فضية، ولحية سوداء مشذبة، وعينان رماديتان مائلتان للزرقة.

غمز الرجل بعينيه لتوم في مرح، ورفع حاجبيه - حتى بدا وكأن العين الزرقاء الثالثة على جبهته، والتي تمثل رمز عصبة المؤرخين، تغمز هي الأخرى- وقال : « مشاجرة ! هه؟ ومالذي

فعله المتدرب ميليفانت ليستحق ذلك ياترى؟»

« تفوه ببعض الأمور عن أبوي ياسيدي» قالها توم متمتما.

« نعم، أتفهم ذلك» أومأ الرجل متأملا وجه الفتى، وبدلا من أن يصرفه، سأله : « هل أنت ابن ديفيد وريبيكا ناتسورثي؟ «

« نعم سيدي « أجاب توم» لكنني كنت لم أزل في السادسة من عمري حينما حدثت الطاحنة الكبرى. ما أقصد قوله هو أنني لا أتذكرهما» .

أومأ فالانتاين من جديد، ولمح توم في عينيه نظرة حزن وحنان. « لقد كانا مؤرخين جيدين ياتوماس. أتمنى أن تتبع خطاهما وتكون مثلهما» .

« أه. نعم سيدي. أعني أنني أتمنى ذلك أيضا» أجابه توم، وفي مخيلته لاحت ذكرى والديه اللذين فقدا حياتهما حينما سقط جزء من الطبقة التي تعلو طبقتهما فوقهما. ومنذ ذلك الحين وعلى مدار عمره لم يصادف أحدا يتحدث عن والديه بتلك الطريقة؛ وفي تلك اللحظات، شعر توم، والدموع تملأ عينيه، أنه يريد أن يخبر فالانتاين بكل ما يعتمل في صدره، يخبره إلى أي مدى هو حزين لفقد والديه، وإلى أي مدى هو أمر ممل وموحش أن يكون متدربا من الدرجة الثالثة. إلا أن فيض مشاعره قد توقف على الفور بمجرد أن رأى ما رآه على باب المكتب! فقد فوجئ توم بذئب ضخم يقف عند المدخل، ذئب أبيض كبير، ما إن لمح توم حتى ركض تجاهه فاغرا فاهه، كاشفا عن أنيابه الصفراء.

تجمدت الدماء في عروق توم، وصدرت عنه صرخة رعب، وهو يقفز فوق أحد المقاعد وقد تملكه الهلع : « ذئب. .. ذئب «.

« تمالك أعصابك « قالها صوت أنثوي، وفي لحظة واحدة كانت فتاة تقف عند الباب وقد انحنت على الوحش تداعبه أسفل ذقنه، فأغمض عينيه ملوحا بذيله في سعادة.

« لاتخش شيئا... إنه حمل. أقصد إنه ذئب بالفعل لكنه وديع كحمل « قالتها الفتاة ضاحكة.

« توم. أقدم لك ابنتي كاثرين و(كلب)».

« كلب؟!!» قالها توم وهو يهبط عن المقعد وينظر لفالانتاين في تساؤل وتعجب، وكان لايزال خائفا، ويفكر في أن هذا الذئب لابد وأنه هارب من حديقة الحيوان في متنزه سيركل.

« إنها قصة طويلة يافتى. فقد كانت ابنتي كاثرين تكيا في بورتو انجلوس حتى سن الخامسة، ولكن حينما توفيت أمها اشتاقت للعيش معي، وقد قمت بإحضار(كلب) معي من إحدى أسفاري كهدية لها، وكانت كاثرين حينها لاتجيد اللغة الإنجليزية بشكل كبير بعد، ولم تكن قد سمعت عن الذئاب من قبل، لذلك وبمجرد أن رأت ما أحضرته لها قالت ((كلب) فصار اسمه كلب من حينها . »

« إنه أليف جدا « قالت كاثرين وهي لاتزال مبتسمة لتوم « لقد وجده أبي حينما كان يعمل في الكشافة، لقد كان عليه أن يقتل أمه، لكن قلبه لم يطاوعه على إنهاء حياة ذلك المسكين «.

كانت كاثرين ذات شعر أسود طويل، وقد ورثت عن أبيها العينين الرماديتين، والابتسامة السريعة الجذلة. كانت ترتدي بنطالا حريريا ضيقا وبلوزة انسيابية كما هي الموضة السائدة لهذا الصيف بين أبناء الطبقة العليا في لندن؛ وقد رأى توم العديد من الصور لها بصحبة والدها لكنه لم يكن يتخيل أنها جميلة إلى هذا الحد.

« انظر ! إنه يحبك !» قالتها وهي تشير إلى(كلب) الذي كان يتشمم رداء توم، وذيله يتأرجح في حين كان يلحس أصابعه بلسانه.

« حينما يحب (كلب (أحد الأشخاص فإني أحبه أيضا، لذا فقد حان الوقت ليقدمنا أبي إلى بعضنا البعض» قالت ذلك وهي تضحك.

ضحك فالانتاين هو الآخر : « حسنا كاترين، أقدم لك توم ناتسورثي، الذي تم إرساله إلى هنا للمساعدة، وفي حال كان ذئبك قد انتهى من التعرف عليه فمن الأفضل إذن أن ندعه يعود إلى عمله « قالها واضعا يده بلطف على كتف توم وأكمل: « لايوجد أمامنا عمل كثير، فقط سنأخذ جولة أخيرة حول المكان ثم بعد ذلك... « ونظر إلى الملاحظة التي أرسلها له السيد بوميروي ثم مزقها قطعًا صغيرة وألقى بها في سلة إعادة التدوير بجانب مكتبه» وبعد ذلك يمكنك الذهاب».

لم يكن توم يدري أيهما أكثر إثارة للدهشة : سماح فالانتاين له بالذهاب، أم تواجد الرجل بذاته في هذا المكان ! فكبار رجال العصبة يفضلون دوما الجلوس في مكاتبهم المريحة وإرسال

المتدربين بدلا منهم لأداء العمل الشاق في الأسفل حيث الحرارة والأدخنة.

ولكن هاهو ذا فالانتاين يخلع ردائه الأسود ويضع قلما في جرابه، ثم ينظر لتوم قائلا: « لنذهب ياتوم، فكلما بدأنا مبكرا تمكنت من الانتهاء مبكرا واللحاق بالاحتفال « .

هبط فالانتاين وتوم وكاثرين وذئبها الأليف إلى الأسفل، إلى حيث عنبر الهضم، حيث لم يعد يتبقى من سالت هووك سوى هيكل معدني سوف تتكفل به الآلات لتقطيعه ثم إلقاء أجزائه في الأفران لصهرها. في نفس الوقت كانت ركام الحجارة والملح والفحم والخشب والصخور يتم نقلها وتفريغها في قلب الأحشاء، أما ما تبقى من أثاث وحاجيات، فكان تتكفل بها عصابات الممتلكات.

كان هؤلاء الرجال هم الحكام الحقيقيون لذلك الجزء من لندن، وكانوا يعلمون ذلك جيدا، ولهذا فقد كانوا يسيرون في جرأة وزهو عبر الممرات الضيقة في خفة، بصدورهم العارية التي تلتمع بالعرق والعصابات الواقية على أعينهم.

وكان توم يخشى هؤلاء الرجال كثيرا، إلا أن فالانتاين قام بإلقاء التحية عليهم وسألهم عما إذا كانوا قد رأوا أي شئ بين الحطام قد يكون ذو قيمة للمتحف. كان فالانتاين متبسطا في الحديث معهم، وكثيرا ما كان يمازحهم أو يسألهم عن أسرهم، وكان حريصا على تقديم توم لهم ب» زميلي السيد ناتسورثي» وهو الأمر الذي جعل توم ينتشي زهوا، فالعظيم فالانتاين يعامله كشخص ناضج ومهم، وهو مانعكس على هؤلاء الرجال أيضا

الذين عاملوه على نفس النحو، فكانوا يمسون أطراف قبعاتهم المتسخة تحية له ويبتسمون.

قام واحد من هؤلاء الرجال بقيادتهم عبر أحد الممرات إلى حيث بعض القطع التي وجدها هؤلاء، وفي طريقهم إلى ضالتهم أكد فالانتاين لتوم أن هؤلاء الرجال ليسوا سذجًا أو حمقى على الإطلاق، وأنهم في كثير من الأحيان قد يتمكنون من العثور على قطع أثرية يتعذر على المؤرخين اكتشافها، لهذا فهو يحب دوما أن يأتي بنفسه إلى ذلك المكان.

« نعم سيدي « أجاب توم موافقا، وهو يختلس النظر إلى كاثرين. وفي قرارة نفسه، تمنى لو تمكن من العثور على أي قطعة بديعة من بقايا تقنيات العصور القديمة بين ركام البقايا، لإهدائها لهما حتى يتذكراه حينما يعودان إلى الطبقات العليا في لندن، فربما لايتمكن من رؤيتهما مرة ثانية.

وفي محاولة منه لإثارة إعجابهما، هرع الفتى عبر الممر حيث قادهم ذلك الرجل، وشرع يفتش بين ركام القطع والبقايا، عن أي شئ قديم ذي قيمة من تلك الأشياء التي تظهر من حين لآخر في متاجر القطع القديمة بالبلدات؛ كان يقلب الأشياء بين يديه متخيلا نفسه وقد عثر على قطعة قيمة مثيرة، فإن لم تكن تصلح لعصبة المهندسين لاستخدامها، فلربما انتهى بها الحال في المتحف حيث يتم حفظها مع وضع إشارة عليها تفيد بأنها : « تم اكتشافها بواسطة السيد توماس ناتسورثي».

نظر في أمل إلى الركام، قطع من البلاستيك... مصباح قائم. .. لعبة على شكل سيارة. ...، ثم لفت نظره صندوق معدني صغير

ملقى هناك، فحمله بين يديه وقام بفتحه، فوجد وجهه وقد انعكس أمامه على سطح بلاستيكي فضي مصقول لأسطوانة إلكترونية، قرص مضغوط.

« سيد فالانتاين. رجاءً تعال وألقِ نظرة على ذلك السي دي!»

جاء فالانتاين والتقط القرص المضغوط من داخل الصندوق متفحصا إياه، فلمع سطحه وقد انعكست عليه الأضواء كقوس قزح، وقال : « نعم، كان القدماء يستخدمون تلك الأشياء على أجهزة الحاسب الآلي الخاصة بهم، كوسيلة لتخزين المعلومات».

« أيمكن أن يكون ذلك القرص مهما سيدي؟»

هز فالانتاين رأسه قائلا: « للأسف ياتوم، لن نعرف ذلك. صحيح أن هؤلاء القوم قد عاشوا في مستوطنات ثابتة، إلا أنهم كانت لديهم آليات تقنية أبعد بكثير مما استطاع مهندسو لندن بنائه أو تطويره. فحتى لو كان هناك شئ مخزن على ذلك القرص، فليس لدينا إمكانية لقراءته. على أية حال هو اكتشاف جيد، احتفظ به إلى حين «.

أنهى فالانتاين كلامه ثم ابتعد، في حين قام توم بإعادة القرص إلى الصندوق المعدني ثم وضعه في جيبه.

لابد أن كاثرين قد شعرت بالإحباط الذي اعترى توم، حيث اقتربت منه وربتت على يده مشجعة : « هو كشف جميل ياتوم، فأي أثر يظل باقيا عبر تلك الآلاف من السنين هو شئ جميل وذو قيمة، سواء كان مفيدا لعصبة المهندسين الرهيبة أم لا «. لقد كانت كاثرين جميلة حقا كإحدى فتيات أحلامه، لكنها كانت أكثر

لطفا ومرحا منهن، وقد أدرك توم منذ ذلك الحين أن كل فتيات أحلامه اللائي أنقذهن في خياله لم يكن سوى كاثرين فالانتاين.

لم يكن هناك شئ ذو بال في المكان، فقد كانت سالت هووك بلدة عملية تماما ومشغولة على الدوام في أعمالها، لذا فلم يكن لديها المجال ولا الوقت للبحث بين طيات الماضي السحيق.

خرج الجميع من المكان، ولكن بدلا من العودة إلى مستودع المؤرخين، قام فالانتاين باصطحاب توم وابنته إلى حيث درج آخر، ومنه إلى ممر آخر إلى حيث» محطة الوافدين «حيث يصطف قاطنو البلدة أمام موظف التصاريح الذي أخذ يدون أسماءهم كي يتم نقلم إلى مساكنهم الجديدة وأماكن العمل في لندن.

« حتى حينما أكون في غير وقت الدوام، فإنني آتي إلى هنا بعد كل صيد لأقابل جامعي المخلفات وغيرهم من الوافدين قبل أن يدخلوا إلى المدينة ويتوجهوا إلى محلات القطع الأثرية في الطبقة الخامسة لبيع ما تمكنوا من الحصول عليه هناك. «

هناك دائما مجموعات من جامعي المخلفات مع كل صيد، تجدهم يجولون في البلدات التي يتم افتراسها، فيقومون بجمع كل ما يتيسر لهم من الأشياء القديمة وبقايا الآلات المتداعية، ولم تكن سالت هووك استثناءً في هذا الشأن، ففي آخر صف الوافدين، وقفت مجموعة من تلك الفئة، ممزقي الثياب أكثر من غيرهم، يرتدون معاطف طويلة بالية تتدلى حتى الكاحل.

وكان توم، كأغلب أهل لندن، يرتعد خوفا من فكرة وجود بشر

لايزالون يحيون على الأرض بذاتها، لذا فقد ظل واقفا في مكانه مع كاثرين و(كلب) في حين تقدم فالانتاين نحو ذلك الجمع وأخذ يتحدث إليهم، فالتفوا حوله جميعا، فيما عدا شخص واحد، طويل ونحيل، يرتدي معطفا أسود؛ لم يكن توم متأكدا مما إذا كان هذا الشخص رجلا، فربما كان فتاة، فقد كان يلف شالا حول رأسه كعمامة بدو الصحارى.

وقف توم بالقرب من ذلك الشخص الغامض مراقبا، في حين كان فالانتاين يقدم نفسه إلى الجمع ويقول : « هل وجد أي منكم أي شئ يمكن للمؤرخين شراؤه؟» فأومأ بعضهم في حين هز البعض الآخر رؤوسهم نفيا.

أما الفتاة الغامضة، فقد مدت يدها إلى داخل معطفها وقالت « لدي شئ لك فالانتاين». كانت تتكلم في هدوء وبصوت خفيض، حتى أن توم وكاثرين فقط هما من تمكنا من سماعها، وبمجرد أن التفتا تجاهها فوجئا بها وقد أشهرت سكينا طويلا ذا نصل حاد، وتتقدم للأمام.

3 مكب النفايات

لم يكن ثمة وقت للتفكير، صرخت كاثرين في هلع، وعوى(كلب)، فترددت الفتاة للحظة، وكانت تلك هي فرصة توم لمنع المأساة، فألقى بنفسه تجاه الفتاة في لمح البصر وشدها من ذراعها في الوقت الذي كادت تنجح في غرس سكينها في قلب فالانتاين. تلوت الفتاة محاولة تحرير نفسها من قبضة توم، وسقط السكين من يدها، إلا أنها سرعان ما تمكنت من الإفلات من توم فهرعت تركض هاربة عبر الممر.

« أوقفوها» صرخ فالانتاين وكان على وشك الركض في إثرها، إلا أن الهرج والمرج قد ساد جموع الوافدين حين رأوا السكين، فبدأوا يموجون ويتخبطون في خوف، معترضين طريق فالانتاين، في حين أشهر مجموعة من جامعي المخلفات أسلحتهم النارية، فهرع أحد رجال الشرطة صائحا أن : «الأسلحة النارية غير مسموح بها في لندن».

وفي وسط كل تلك الفوضى كان توم يمسح المكان بناظريه باحثا عن الفتاة، حتى لمح ذلك الظل القاتم، وقد انعكس عليه الضوء الصادر عن أفران الصهر. لقد وصلت الفتاة إلى نهاية الممر، وفي خفة تسلقت السلم حتى الطابق الأعلى. ركض توم نحوها في سرعة حتى بلغها، وفي لحظة كاد أن يمسك بكاحلها الذي كان على بعد بضعة إنشات فقط من يده، إلا أنها كانت قد وصلت إلى قمة الدرج. في نفس اللحظة سمع توم صوت هسيس من خلفه، فالتفت ليجد اثنين من رجال الشرطة حاملين أسلحتهما يخترقان الجمع، ومن خلفهما كان فالانتاين وكاثرين يراقبان ما

يحدث.

«لاتضربوا « صرخ توم « أستطيع الإمساك بها»، ثم اندفع نحو السلم متسلقا إياه في لهفة وتصميم. لقد كان مصرا على أن يمسك بتلك القاتلة بنفسه؛ كان يشعر بوجيب قلبه وخفقاته المتلاحقة من الإثارة، فأخيرا، وبعد كل تلك السنوات المملة التي قضاها في مغامرات وهمية من وحي الخيال، صار الحلم حقيقة، وهاهو يحيا مغامرة واقعية، بل ويتمكن من إنقاذ حياة السيد فالانتاين.. .. لقد صار بطلا!.

كانت الفتاة تندفع نحو الممرات المتشابكة بالطابق الأعلى، والتي تقود نحو عنابر الأفران، ومن خلفها توم يسعى بلا هوادة للحاق بها، آملا أن تكون كاثرين لازالت تراه عبر تلك المسافة.

كان الممر متفرقا وضيقا، وفي الأسفل كانت عنابر الهضم تؤدي عملها، ولم يشعر أي ممن يعملون في تلك العنابر بما يدور فوق رؤوسهم من أحداث درامية!. اندفع توم خلف الفتاة عبر سحب الدخان الكثيف والدافئ المنبعث من الأفران، وفجأة علق الشال الذي تلفه حول رأسها بأحد الأنابيب المنخفضة، فانحسر عنها محررا شعرها الطويل الذي بدا نحاسيا في ضوء الأفران المتوهج، إلا أن وجهها ظل خافيا عن ناظريه. ترى، هل هي جميلة؟، لاح السؤال في فكر توم في حين كان لايزال يطاردها : ربما هي قاتلة من جماعة مقاومة التحرك؟.. استمر توم يلاحق الفتاة وهو يجاهد لالتقاط أنفاسه ويحاول فتح ياقة ردائه طلبا للهواء. طالت الملاحقة حتى هبطت الفتاة وتوم من ورائها عبر السلم المعدني الحلزوني فوق عنابر الهضم، حيث فوجئ العمال

بالمشهد العجيب أمامهم. صرخ توم « أوقفوها» ثم سرعان ما ندم على فعلته تلك حينما التفت وراءه أثناء ملاحقته للفتاة، ليجد أحد المتدربين من عصبة المهندسين وقد هم باللحاق بهم ليشارك في المطاردة، إلا أن توم لم يكن على استعداد للتنازل عن النصر لصالح مهندس غبي !، فأطلق ساقيه للرياح خلف الفتاة مصرا على القبض عليها وحده دون أن يشاركه في انتصاره أحد.

استمرت المطاردة دون توقف، حتى وصلت الفتاة إلى نهاية الطريق حيث فوجئت أمامها بفجوة دائرية كبيرة محاطة بإفريز صدئ. إنه مكب النفايات، حيث يتم صرف بقايا ما يتم تلقيمه إلى الأفران به. توقفت الفتاة للحظة محاولة اتخاذ قرار حول الطريق الذي يجب أن تسلكه، وكان ذلك كافيا كي يتمكن توم من الوصول إليها أخيرا، حيث هرع نحوها وقد مد أصابعه على آخر امتداد لها ليقبض على تلك الصرة التي تحملها على كتفها، فانقطع الحزام الجلدي للصرة والتفتت الفتاة فجأة لتصبح وجها لوجه أمام توم، وقد انعكست أضواء الأفران المتوهجة على وجهها ليراها توم كأوضح ما يكون.

ألجمت الصدمة الفتى تماما، كانت الفتاة تماثله في العمر، إلا أنها كانت عكس توقعاته تماما! فقد كانت بشعة الخلقة، يمتد جرح قطعي على طول وجهها من الجبهة وحتى الذقن، حتى بدا وجهها وكأنه صورة تم شقها نصفين، وكان فمها ملتويا إلى جانب وجهها في ابتسامة سخرية أبدية ! أما أنفها فكان مهشما مجدوعا. كانت ترمقه بعينها الوحيدة، وفي صوت كالفحيح قالت: « لماذا لم تدعني أقتله؟»

كان مصدوما تماما، حتى لم يعد قادرًا على الإتيان بأي حركة، كما عقدت الصدمة لسانه فلم يرد، فوقف مشدوها في حين انحنت الفتاة لتلتقط صرتها في خفة وتحاول الفرار من جديد، إلا أن الشرطة كانت قد لحقت بهم، مطلقة صافراتها التي تصم الآذان، ووابل من سهامها تنتشر في كل مكان وترتطم بالأسطح المعدنية للممر. أسقطت الفتاة صرتها من جديد وانحنت جانبا وهي تمطر الجميع بوابل من الشتائم واللعنات التي لم يكن توم يتخيل أنه يمكن لفتاة أن تعرف مثلها.

« لاتطلقوا السهام « قالها توم صارخا، إلا أن الشرطة لم تعبأ بصراخه ولا بكونه في مرمى سهامها. فجأة انتصبت الفتاة مرة ثانية، وقد رأى توم السهم الذي اخترق ساقها فوق الركبة مباشرة. حاولت الفتاة إخراج السهم فاندفعت شلالات الدماء من بين أصابعها، كانت تنشج متقطعة الأنفاس، ثم تحاملت على نفسها حتى وقفت ممسكة بالإفريز الصدئ ورفعت نفسها فوقه، ومن خلفها تبدى الفم الفاغر القاتم لمكب النفايات.

« لا» استصرخها توم في لوعة وقد فهم ماتنتويه. لم يعد يشعر بأي بطولة، فقط كان يشعر بالشفقة والأسف حيال تلك المسكينة، وبالذنب أيضا، فقد كان هو السبب في الإيقاع بها في ذلك الفخ الذي لافكاك منه. مد يده إلى الفتاة محاولا منعها من القفز إلى الهوة : « لم يكن من الممكن أن أتركك تؤذين السيد فالانتاين « قالها بصوت أشبه بالصراخ حتى تسمعه بين ضجيج الأحشاء : « إنه رجل جيد وعطوف وشجاع. إنه رائع». قربت الفتاة وجهها من توم حتى كاد أنفها المجدوع يلامسه : « انظر إليّ جيدا « قالتها بصوت ملتو كالتواء فمها : « انظر ماذا فعل بطلك فالانتاين

الشجاع العطوف بي!»

« ماذا تقصدين؟»

«اسأله» قالتها صارخة بغضب: « اسأله ماذا فعل بهيستير شاو»

اقترب رجال الشرطة أكثر، وقد شعر توم بخطواتهم على أرضية الممر. نظرت الفتاة تجاههم خلف كتف توم، وقبل أن يتمكن من منعها، رفعت ساقها الجريحة فوق الإفريز وألقت بنفسها في الفجوة السوداء.

« لاااا» صرخ بها توم، ولكن بعد فوات الأوان، فقد رأى معطفها المتطاير خلفها وهي تسقط حتى اختفت عن ناظريه. انحنى فوق الإفريز محاولا رؤيتها عبر المكب القاتم، فلم يجد سوى هواء لافح ضرب وجهه، محملا برائحة الأرض الجرداء تحت المدينة.

« لا !» لقد قفزت إلى حتفها. ذهبت إلى الموت.

هيستير شاو، عليه أن يتذكر اسمها جيدا، وأن يتلو الصلوات على روحها لواحد من آلهة لندن الكثر.

كان رجال الشرطة لايزالون يتقدمون بحذر، ومعهم فالانتاين، وبين الظلال أسفل أحد صهاريج الغاز رأى توم المهندس الشاب ينظر مصدوما، حاول توم أن يبتسم له لكن وجهه بدا وكأنه قد تجمد.

« توم. هل أنت بخير ؟» كان هذا فالانتاين الذي هرع نحوه وهو بالكاد يلتقط أنفاسه بعد المطاردة العنيفة.

« أين هي؟ أين الفتاة؟»

« ماتت» أجابه توم في وهن.

وقف فالانتاين بجانبه أمام الإفريز ونظر للأسفل، وقد أحاطت الأبخرة المتصاعدة بوجهه، إلا أن ثمة أمر ما غير مألوف قد بدا على وجهه، كانت عيناه تلتمعان بوميض غريب، وكان وجهه متشنجا وشاحبا، بل وخائفا أيضا.

« توم. هل رأيت وجهها؟ هل كان ثمة ندبة عليه ؟ «

« نعم !» أجابه توم متعجبا : كيف علم بالأمر؟!

« لقد كان مشهدا بشعا سيدي. لقد كانت فاقدة لإحدى عينيها، وكان أنفها...»

قطع توم كلامه فجأة حينما تذكر ماقالته له الفتاة.

« لقد قالت لي ... « قالها مترددا، حيث لم يكن على يقين عما إذا كان عليه أن يخبر السيد فالانتاين بما قالته الفتاة. .. لابد أنها كاذبة. إن ذلك لجنون!

« لقد أخبرتني أن اسمها هيستير شاو»

« ياكويرك العظيم» أجفل فالانتاين بمجرد سماعه الاسم، فتراجع توم إلى الوراء نادما على ذكره للاسم، وفي عينيه لاح الأسى والندم.

« لاتخف توم. أنا آسف «، وشعر توم بيد فالانتاين على كتفه، ثم،

وبـدون أن يفـهم كـيف حـدث ذلـك، فوجـئ بنفسـه منثنيـا علـى الإفريز منقلبا إلى داخل الهوى، وشعر بالفراغ يحيطه به من كل جانب وهو يهوى بلا توقف والظلام يبتلعه، تماما كهيستير شاو!، وفي أثناء سقوطه كانت فكرة واحدة فقط تسيطر عليه وقد تملكه الذهول فطغى على أي شعور آخر حتى الشعور بالهلع:

« لقد قام فالانتاين بإلقائي!»

***



4 خارج المدينة / العراء

صمت... صمت. .. لم يستوعب الأمر في البداية، فحتى حينما لاتتحرك لندن، تبقى الضوضاء مستمرة بلاتوقف، حتى في مخدعه، يظل طنينها ينبعث من مراوح التهوية وحركة المصعد البعيد، وأنفاس زملائه في المهاجع المجاورة. أما الآن، فلا يجد حوله إلا الصمت المطبق!

كان الصداع يفتك برأسه، بالأحرى كان كل شئ فيه يؤلمه، بل سريره قد بدا غريبا له، وحينما حرك يديه شعر بشئ بارد ولزج بين أصابعه... وحل!

هب توم جالسا. إنه ليس في مخدعه المخصص للدرجة الثالثة على الإطلاق، ولا هو يرقد في سريره، وإنما هو راقد في... بركة من الوحل!؛ وعلى ضوء الفجر الواهن استطاع أن يرى الفتاة ذات الوجه الشائه جالسة بالجوار. لقد تحقق أسوأ كوابيسه. لقد سقط عبر فتحة المكب إلى خارج لندن، والآن هاهو ذا يقبع وحيدا مع هيستير شاو على الأرض الجرداء. كان يئن في رعب، فنظرت الفتاة حولها سريعا حتى رأته يتحرك : « أنت حي إذن. لقد حسبتك ميتا « قالتها بلهجة بدا منها أنها لاتكترث كثيرا في الحالتين.

زحف توم على يديه وركبتيه في الوحل. كان ذراعاه عاريين، وحينما نظر لأسفل فوجئ بجذعه عاريا حتى الخصر، كان رداؤه في الوحل بالقرب منه، في حين لم يستطع أن يجد قميصه، إلى أن وصل بالقرب من الفتاة فوجدها تمزق القميص خرقًا وتصنع

منها ضمادات لساقها المصابة.

« لقد كان واحدا من أفضل قمصاني» قالها حانقا محتجا .

« إذن؟» ردت الفتاة دون أن تنظر إليه « وهذه واحدة من أفضل سيقاني!»

لم يجب وسحب رداءه من بين الأوحال. كان الرداء قد اتسخ وتمزق تماما إثر السقوط عبر مكب النفايات، وصار مليئا بالشقوق والتمزقات التي تتسرب عبرها لفحات الهواء البارد. تكور توم حول نفسه مرتعشا، وأخذ يفكر مستعيدا الأحداث الأخيرة : فالانتاين ألقى بي إلى حيث العراء خارج المدينة. ... لا، لايمكن أن يكون قد فعل ذلك، لابد أن هناك خطأ ما. ربما زلت قدمي فسقطت وحاول هو إنقاذي، نعم، لابد أن هذا هو ماحدث.

أنهت هيستير تضميد ساقها وقامت من مكانها وهي تئن من الألم متحاملة على ساقها الجريحة، ثم ألقت ما تبقى من القميص، الذي تحول لخرقة بالية، إلى توم.

« كان عليك أن تتركني أقتله «، قالتها وسارت في غضب مبتعدة وهي تجر ساقها بصعوبة وتعرج عبر الأوحال.

رمقها توم وهي تبتعد، وقد تملك منه الذهول والصدمة لدرجة ألجمته عن التحرك من مكانه، إلى أن اختفت عن ناظريه عند قمة المنحدر، حينها أدرك أنه لايود أن يبقى في ذلك المكان وحيدا، مفضلا مرافقة أي من كان، حتى لو كان هيستير، على أن يبقى وحده بين الصمت.

قام من مكانه ملقيا ببقايا قميصه المهلهل، وركض لاحقا بها، متخذا طريقه بصعوبة عبر الأوحال وشظايا الحجارة والجذور الممزقة. سار متبعا هيستير، وعلى يساره خندق عميق، وبمجرد أن بلغ قمة المنحدر أدرك أن ذلك الخندق هو واحد من مائة من الخنادق المماثلة. إنها العلامات المميزة للندن والتي تمتد عبر مسافة واسعة عبر مسار متتابع.

ومن بعيد رأى توم مدينته تسبح في الظلام، تنعكس معالمها على ضوء السماء الآتي من ناحية الشرق، تلتحف بالأدخنة المنبعثة من محركاتها. ومع ابتعاده، كانت رعشة الحنين للوطن تسري عبر أوصاله، فكل من عرفهم على مدار حياته يحيون في هذا الجبل المتحرك، كل شخص فيما عدا هيستير، التي كانت تسير والغضب لايزال يعتريها، تجر ساقها المجروحة خلفها.

« انتظري. .. هيستير.. آنسة شاو» ظل توم يناديها وهو يكاد يعدو خلفها.

« دعني وشأني» .

« ولكن، إلى أين تذهبين؟»

« يجب أن أعود إلى لندن. لقد استغرق الأمر عامين كي أعثر عليها، عامان وأنا أجوب خارج المدينة على قدمي، أتنقل من بلدة إلى بلدة على أمل أن أجدها. وحين استطعت أخيرا الوصول إليها، ووجدت فالانتاين يمشي مختالا في الأسفل كما سبق وأخبرني جامعو المخلفات، وحينما كدت أحقق مأربي، ماذا حدث؟ ! جاء أحد الحمقى ليحول بيني وبين اقتلاع قلبه كما

يستحق « ثم توقفت عن المسير واستدارت لتواجه توم : « لو لم تقم بدس أنفك وإقحام نفسك في الأمر لكان فالانتاين ميتا الآن، ولكنت مت أنا أيضا ورقدت في سلام «.

حدق توم فيها، ولم يستطع أن يتمالك نفسه، ففاضت الدموع حارة من عينيه. كان يكره أن يبدو في مظهر الأحمق أمام هيستير، لكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من البكاء؛ فكل ما وقع له من أحداث كان أكبر من طاقته على الاحتمال، فزلزلته الصدمة واستولى عليه إحساسه بالوحدة بعدما صار منفيا عن وطنه. سالت الدموع ساخنة على وجنتيه، صانعة أخاديد رفيعة بين الأوساخ التي لطخت وجهه.

وقفت هيستير - التي كانت على وشك الرحيل - مشدوهة، تحدق في توم : « إنها تبكي» قالتها برفق، وقد اعترتها المفاجأة.

« آسف» .

«أنا لاأبكي أبدا. لا أستطيع. حتى حينما قتل فالانتاين أمي وأبي لم أبك».

« ماذا؟!!» قالها توم وصوته يرتعش من البكاء : « السيد فالانتاين لايمكن أن يفعل ذلك. كاثرين أخبرتني أنه لم يتمكن حتى من قتل ذئب صغير. أنت تكذبين» .

« كيف جئت إلى هنا إذن؟» سألته هيستير هازئة : « لقد ألقى بك خلفي، أليس كذلك؟ فقط لأنك رأيتني» .

« أنت تكذبين « صاح توم في وجهها، لكنه تذكر اليدين الكبيرتين

اللتين دفعتاه نحو الهاوية، تذكر سقوطه، واللمعة الغريبة التي التمعت في عيني عالم الآثار الكبير حينها.

« حسنا ؟»، أخرجه سؤال هيستير من أفكاره، فتمتم في ذهول: « لقد دفعني» .

فهزت هيستير كتفيها وكأنها تقول له : أرأيت؟ أرأيت كيف يبدو على حقيقته؟، ثم استدارت واستأنفت سيرها من جديد.

هرع توم ليسير بجانبها : « سوف آتي معك، يجب علي أن أعود إلى لندن أنا أيضا سوف أساعدك» .

« أنت؟!» قالتها ضاحكة في سخرية : « أظن أنك كنت رجل فالانتاين، والآن تريد أن تساعدني على قتله؟!»

هز توم رأسه، إنه لايعلم مالذي يريده بالضبط، فجزء منه مازال يتعلق بأهداب الأمل في أن كل ماحدث هو سوء فهم وأن فالانتاين رجل صالح وعطوف. إنه لايريد أن يراه مقتولا ولايريد أن تفقد كاثرين والدها. ... لكن، عليه أن يعود إلى لندن بطريقة أو بأخرى، ولا يمكنه أن يفعل ذلك وحده، علاوة على ذلك، فقد بدأ يشعر بالمسؤولية تجاه هيستير شاو.

« سوف أساعدك على السير. أنت مصابة. إنك تحتاجين إلي» .

« أنا لاأحتاج لأي شخص» .

« سوف نقصد لندن معا. إنني عضو في عصبة المؤرخين، وسوف ينصتون إلي، سوف أخبر السيد بوميروي بكل شئ. ولو أن فالانتاين قد فعل كل ماتقولين حقا فإن القانون كفيل بالتعامل

معه» .

« القانون؟!» قالتها باستهزاء، « فالانتاين هو القانون في لندن. أليس هو المفضل لدى العمدة؟ أليس رئيس المؤرخين ؟. لا، سوف يقتلني إن لم أقتله، وسوف يقتلك أنت أيضا» .

بدأت الشمس ترتفع في السماء، وكانت لندن لاتزال تتحرك، حتى بدت أصغر مما كانت عليه منذ آخر مرة رآها.

عادة ماكانت المدينة تتوقف لبضعة أيام حينما تقوم بالتهام إحدى البلدات، وتساءل توم في سره : ترى إلى أين هي ذاهبة؟

بعد لحظات، زلت الفتاة وسقطت وانثنت ساقها العليلة تحتها، فخف توم لمساعدتها على النهوض. لم تشكره، لكنها أيضا لم ترفض مساعدته ولم تدفعه بعيدا، فقام بسحب ذراعها حول كتفيه وبدأ كلاهما في السير على الأرض الموحلة، متتبعين آثار لندن نحو الشرق.

***



5 العمدة

على بعد مائة ميل، حيث الشمس ترتفع في السماء ليغمر ضوئها ميدان سيركل، والمروج الخضراء، وأحواض الزهور الأنيقة التي تطوق الطبقة الأولى، وتنعكس أشعتها على البحيرات المزينة والطرقات التي لم تزل مبتلة بقطرات الندى، فتتلألأ بالنور المنعكس عليها. وعند حافة الميدان، بين أشجار الأرز، تقف « فيللا كليو» - حيث يحيا فالانتاين وابنته- كصدفة محار عملاقة نائية بين الأمواج المتلاطمة.

وفي غرفتها بالطابق العلوي كانت كاثرين راقدة تتأمل أشعة الشمس المتسللة إليها من خصاص النافذة، وتتساءل في سرها عن سبب ذلك الإحساس العميق بالحزن الذي يعتريها، فقد كانت في تلك اللحظة تشعر بحزن مبهم لاتدري سببه، ثم تذكرت الليلة السابقة، ذلك الاعتداء على أبيها في أحشاء المدينة، والمتدرب الشاب اللطيف الذي اندفع وراء القاتلة يطاردها ودفع حياته ثمنا لذلك.

لقد انطلقت خلف والدها وحينما وصلت إلى حيث مكب النفايات كان كل شئ قد انتهى، حيث وجدت متدربًا من عصبة المهندسين يقف مصدوما ممتقع الوجه؛ حتى صار لونه كلون معطفه الأبيض المطاطي، يسرع الخطى متعثرًا في اضطراب شديد، ومن خلفه كان والدها واقفًا شاحب الوجه هو الآخر، وغاضبًا، ومن حوله رجال الشرطة.

لم تر كاثرين والدها في هذا الحال من قبل، ولم تسمعه طوال

حياتها يتحدث بتلك اللهجة الخشنة حين أمرها بالتوجه إلى المنزل فورا.

والآن، بدأت تشعر بالرغبة في العودة إلى النوم، إلا أنها كان عليها أن تذهب لتطمئن على والدها أولاً، فقامت من رقدتها من على الأرض والتقطت ملابسها الملقاة في إهمال، والتي كانت ترتديها في الليلة الماضية ولاتزال رائحة أفران الصهر تفوح منها.

خرجت من غرفتها إلى حيث الرواق الذي ينحدر تدريجيا نحو الأسفل ويلتف حول نفسه كقلب صدفة متحجرة.

هرعت كاثرين إلى الأسفل، وتأنت قليلا أمام تمثال كليو - آلهة التاريخ- لإبداء الاحترام والتوقير، حيث كان التمثال ينتصب في كوة خارج غرفة الطعام، وفي كوات أخرى كانت مجموعة من الكنوز والنفائس التي جلبها والدها من أسفاره تتخذ موضعها : قطع من آنية خزفية.. أجزاء من لوحة مفاتيح حاسب آلي. .. جمجمة معدنية صدئة لواحد من هؤلاء الجنود النصف آليين من أيام الحرب المنسية.

كان فالانتاين يحتسي قهوته في تلك الغرفة الكبيرة المفتوحة في وسط المنزل والتي تسمى (الأذين)، حين دخلت عليه كاثرين. كان لايزال يرتدي رداءه، وعلى وجهه الطويل بدت الجدية والاستغراق في التفكير، وهو يذرع الغرفة جيئة وذهابا بين أحواض نبات السرخس، وكانت نظرة واحدة لعينيه كافية لتدرك كاثرين أن والدها لم ينل أي قسط من النوم.

« أبي.. ماذا بك؟»

« أه. كيت « دنا منها والدها ثم ضمها بين ذراعيه بقوة : « ياالها من ليلة» !

« ياللفتى المسكين « همست كاثرين « مسكين توم، أظنهم لم يجدوا أي شئ، أليس كذلك؟»

هز فالانتاين رأسه : « لقد جرته القاتلة معها وهي تقفز. لقد غرق الاثنان في الأوحال خارج المدينة، أو تحطما أسفلها « .

«أه! « ثم جلست كاثرين على حافة المائدة شاردة في أفكارها، حتى أنها لم تلحظ (كلب) الذي جاء ليتوسد ركبتها برأسه الكبير : مسكين توم، لقد كان فتى شديد اللطف، وكان حريصا على إرضائهما بكل ما تيسر له. لقد أعجبها كثيرا، حتى أنها كانت تفكر في أن تطلب من أبيها إحضاره للعمل معه في منزلهما، حتى يتسنى لها معرفته عن كثب. لكنه قد مات، انسلت روحه إلى حيث لاتشرق الشمس، أما جسده فيرقد بين الأوحال الباردة في مكان ما على مسار المدينة.

« العمدة ليس راضيا على الإطلاق « قالها فالانتاين وهو ينظر إلى الساعة، « ففي اليوم الأول لعودة لندن إلى ساحة الصيد، تأتي قاتلة مجهولة لتنسرب بين ممرات الأحشاء. عموما سوف يأتي اليوم بنفسه إلى هنا لنتباحث في الأمر. هل تجلسين معي لحين وصوله؟ يمكنك أن تتناولي إفطاري إن أردت، هناك قهوة وشطائر زبد على المائدة، فأنا لا أملك شهية لتناول الطعام حاليا»

لم تكن لكاثرين أي شهية للطعام هي الأخرى، إلا انها حين حانت منها التفاتة ناحية الطعام، لمحت تلك الصرة الجلدية الممزقة

الموضوعة عند طرف المائدة. إنها الصرة التي كانت تحملها تلك الفتاة القاتلة والتي سقطت منها في الأحشاء أثناء المطاردة. كانت محتوياتها مبعثرة على المائدة: آنية معدنية للمياه، أدوات إسعافات أولية، حبل، قطع من اللحم المجفف والذي بدا مقددا وقاسيا أكثر من جلد الأحذية القديمة !، وورقة مجعدة متسخة مثبت إليها صورة فوتوغرافية.

التقطت كاثرين الورقة بين أصابعها، فوجدتها عبارة عن وثيقة هوية تم إصدارها في بلدة تدعى سترول، وبمجرد أن وقعت عيناها على الصورة الفوتوغرافية، حتى شهقت في وجل : «أبي.. .. وجهها.. ».

التفت فالانتاين عن صوت ابنته فوجدها تمسك بالورقة المجعدة، فما كان منه إلا أن اختطف الوثيقة منها بغضب، صائحا : « لا.. كيت. لايجدر بك أن تري هذا. لايجدر بأي أحد أن يراه ».

ثم سحب قداحته وقام بإشعال اللهب في طرف الوثيقة، وألقى بها في المطفأة على طاولته كي تكمل النيران التهامها.

جلست كاثرين ترقب والدها وهو يجوب المكان، وتفكر؛ على مدار عشرة أعوام منذ أن جاءت لتحيا معه في لندن، كان فالانتاين يمثل لها الأب والصديق في آن، ولطالما أحبا نفس الأشياء، وضحكا لنفس النكات، ولم يحدث أبدا أن كتم أحدهما سرا عن الآخر.

أما الآن فيبدو أن والدها إنما يخبئ شيئا ما عنها، شئ يتعلق بتلك الفتاة، فهي لم تره قلقا متوترا بهذا الشكل من قبل.

« أبي، من تكون تلك الفتاة ؟.. .. هل تعرفها ؟ هل تعرفت عليها في أحد أسفارك ؟. إنها لازالت شابة صغيرة. ... ما الذي حدث لوجهها ؟ «

عندها سمعا صوت خطوات تقترب ثم صوت دقات على الباب، ثم دخل بيوسي ليعلن أن العمدة في طريقه إلى هنا.

« الآن؟»

« نعم سيدي. لقد شاهده جينيش قادما عبر الميدان في مركبته، ويبدو أنه غير سعيد بالمرة «.

لم يبد فالانتاين في حال جيدة هو الآخر وهو يسحب رداءه من على مسند مقعده ويرتديه؛ ثم بدأ يعدل من هيئته، فخفت كاثرين لمساعدته إلا أنه لوح لها أن لا داعي لذلك، فطبعت قبلة سريعة على وجنته ثم خرجت مسرعة ومن وراءها ذئبها (كلب).

وعبر النافذة البيضاوية الكبيرة في قاعة الاستقبال، رأت كاثرين المركبة البيضاء الرسمية وهي تمر عبر بوابات منزل كليو، وأمامها مجموعة من الجنود في زيهم الأحمر التقليدي الكلاسيكي، إنهم الحرس الشخصي للعمدة.

اتخذ حرس عمدة المدينة مواقعهم في حديقة الفيللا، في حين هرع أحدهم ليفتح غطاء المركبة ليترجل منها العمدة ويسير نحو بوابة المنزل.

ماجنوس كروم، إنه الرجل الذي يحكم لندن منذ ما يقرب من ٢٠ عاما، إلا أنه لا يشبه العمد الذين طالعتهم كاثرين في كتب

التاريخ، من ذوي الوجه البدين البشوش المشرب بالحمرة. فقد كان كروم نحيلا كغراب عجوز، إلا أنه كان يفوق الغربان كآبة. ولم يكن يرتدي الرداء القرمزي الذي كان يفضله أسلافه من العمد، وإنما كان يصر على ارتداء المعطف الطويل الأبيض المطاطي، وعلى جبهته رمز العجلة الأحمر المميز لعصبة المهندسين.

فيما مضى كان عمد المدينة يزيلون العلامة المميزة للعصبة التي ينتمون إليها بالأساس، ليظهروا أنهم إنما يخدمون أهل لندن جميعا، إلا أن الأمور قد تغيرت كثيرا مع وصول كروم إلى السلطة، ولكن، حتى هؤلاء الذين يرون أنه ليس من العدل أن يكون رجل واحد رئيسا لعصبة المهندسين وفي نفس الوقت عمدة للندن يقرون بأنه يبلي بلاءً حسنا كحاكم للمدينة.

لم تكن كاثرين تحب الرجل، بل لم تكن تستسيغه على الإطلاق -بالرغم من كونه على علاقة طيبة مع أبيها - ولم تكن تملك بالا رائقا هذا الصباح لتقابله، لذا فبمجرد أن سمعت باب الأمامي وهو ينفتح حتى هرعت عائدة إلى الممر، ونادت (كلب) في رفق كي يتبعها.

إلا أنها لم تمض إلى غرفتها، وإنما توقفت عند أول منعطف، مختبئة في الظل، وقد وضعت يدها على رأس ذئبها لتبقيه هادئا.

كانت كاثرين على يقين من أن أباها في مشكلة حقيقية، وقد قررت معرفة كنه تلك المشكلة بأي شكل، ولن تدعه يخفي عنها الأمر وكأنها لازالت طفلة صغيرة.

مرت بضع ثوان، ثم رأت جينيس يتقدم نحو باب الأذين، ممسكا

بقبعته، ثم يقول وهو ينحني في احترام : « من هنا سيدي»، ومن خلفه ظهر كروم الذي تأنى قليلا، ومسح المكان من حوله بناظريه، فانكمشت كاثرين على نفسها أكثر متوسلة بكويرك وكليو ألا يراها، وللحظة كان يمكنها سماع صوت تنفسه وحفيف معطفه المطاطي.

مرت اللحظة ثقيلة، ثم قاده جينيس إلى حيث الأذين، وانتهى الخطر أخيرا !

عادت كاثرين أدراجها إلى حيث الباب لتسترق السمع لما سوف يقال في تلك الجلسة. كانت تسمع أباها، وقد افترضت من اتجاه الصوت أنه يقف بجانب النافورة المزخرفة، في حين يقود رجاله السيد كروم إلى مقعده. شرع والدها في اختلاق حديث عن الطقس وخلافه، في محاولة لاستهلال الكلام، إلا أن الصوت البارد الرفيع للعمدة قاطعه قائلا : « قرأت تقريرك عن مغامرة أمس. لقد أكدت لي فيما مضى أن العائلة بأكملها قد تم التعامل معها ! »

انتفضت كاثرين مبتعدة عن الباب بمجرد سماعها ماقيل، كيف لهذا الرجل أن يحدث أباها بتلك الطريقة ؟!. لقد اكتفت ولم تعد تريد سماع المزيد؛ إلا أن الفضول قد غلبها، فألصقت أذنها بالباب من جديد، فسمعت أباها يقول : « لقد عاد شبح من ماضٍ. ... لا أستطيع تخيل كيف تمكنت تلك الفتاة من الهرب. وكويرك وحده يعلم من أين اكتسبت المكر والخفة، لكنها ميتة الآن، وكذلك الفتى الذي أمسك بها، ذلك المسكين ناتسورثي... »

« هل أنت واثق من ذلك ؟»

« لقد سقطا خارج المدينة ياكروم»

« هذا لايعني شيئًا، فنحن نتحرك فوق أرض رخوة، لذا فربما يكونان قد نجيا رغم كل شئ؛ كان عليك أن ترسل رجالك إلى أسفل للتحقق من الأمر، ولتتذكر أننا لا نعرف ما الذي عرفته تلك الفتاة بالضبط عن عمل أمها، وما إذا كانت قد أخبرت أي مدينة أخرى بأن لدينا (ميدوسا) قبل أن نكون جاهزين لاستخدامها. ...
»

« أعلم.. أعلم « قالها فالانتاين في غضب، وقد سمعت كاثرين صوت صرير أحد المقاعد حيث جلس أبوها : « سوف أستقل منطاد الطابق الثالث عشر عائدا إلى هناك لأتحقق من وجود جثتيهما.. «

« لا « قالها كروم بلهجة آمرة : « لدي مهمة أخرى لك، فأنا أريدك أن تستقل منطادك وتطير لتستكشف ما الذي يقع بين لندن وهدفها» .

« كروم. هذا عمل كشافة لجنة التخطيط وليس. .. ..»

« لا « قاطعه كروم مرة ثانية في حسم : « لاأريد أن يعرف كثير من الناس إلى أين نتجه بالمدينة. سوف يعرفون بالأمر حينما يحين الوقت المناسب، بالإضافة لذلك فلدي مهمة معينة لا أستطيع الوثوق في غيرك لتنفيذها « .

« وماذا عن الفتاة ؟» تساءل فالانتاين

« لاتقلق بشأنها، لدي من أستطيع الاعتماد عليه لاقتفاء أثرها في

الأسفل وإنهاء ما فشلت أنت فيه. ركز فقط على إعداد منطادك والاستعداد للمهمة « .

شارفت المقابلة على نهايتها، وسمعت كاثرين العمدة وهو يستعد للرحيل، فأسرعت عائدة إلى الممر الصاعد قبل أن ينفتح الباب. كان عقلها يدور بسرعة هائلة، ربما أسرع من مراوح التجفيف المعروضة في قاعة متحف التقنيات العتيقة.

دخلت كاثرين إلى غرفتها، وجلست تفكر في كنه ذلك الذي سمعته. لقد كانت تأمل في حل اللغز وراء تبدل حال أبيها ومعرفة مايخفيه عنها، ولكن بدلا من ذلك ازداد الأمر تعقيدا وعمقا. الأمر الوحيد المؤكد بالنسبة لها هو أن أباها يخفي سرا كبيرا، وهو الذي لم يخفِ عنها سرا من قبل، وكان دائما مايبوح لها بكل ما في مكنون قلبه، ويطلب مشورتها، أما الآن فها هو يتهامس مع العمدة حول فتاة قد عادت كشبح من الماضي وعن شخص سوف يتم إرساله بحثا عنها و.. ماذا؟! هل يمكن أن يكون توم والفتاة القاتلة لايزالان على قيد الحياة؟!

ولماذا يريد العمدة إرسال والدها في رحلة استطلاعية محاطة بكل هذا القدر من السرية ؟ ولماذا لا يريد الإفصاح عن وجهة لندن ؟

ثم ما هي.. ماهي تلك (الميدوسا) التي يتحدث عنها ؟

***

6 سبيد ويل

ظل توم وهيستير يجاهدان في إثر لندن، متتبعين آثارها التي تتركها على طول مسارها فوق الأرض الرخوة لساحة الصيد. لم تغب المدينة عن أعينهما، إلا أن حجمها كان يتضاءل، أصغر فأصغر، كلما ابتعدت أكثر فأكثر متجهة نحو الشرق، وقد أدرك توم أنهما ربما يفقدانها قريبا وإلى الأبد.

استولى عليه الشعور بالوحدة، هو لم يكن مستمتعا بحياته ووضعه كمتدرب من الدرجة الثالثة في قسم التاريخ، إلا أنه بالمقارنة لما هو عليه الآن، تبدو سنواته في المتحف كحلم ذهبي جميل، ووجد نفسه يفتقد دكتور أركينجارز العجوز صعب الإرضاء، وشادليغ بوميروي المتفاخر. إنه يفتقد سريره في مهجع الدرجة الثالثة، وساعات العمل الطويلة، و. ... كاثرين فالانتاين.

بالرغم من أنه لم يعرف كاثرين إلا لدقائق معدودات، إلا أنه، حينما يغلق عينيه أحيانا، يستطيع أن يرى وجهها بوضوح، حيث العينان الرماديتان اللطيفتان، والابتسامة المحببة، وكان متأكدا أنها لاتعرف حقيقة أبيها.

« انتبه لخطواتك » قالتها هيستير شاو، ففتح توم عينيه وأدرك أنه إنما يقودها على شفير واحدة من الحفر الكبيرة على مسار المدينة.

ظلا يتقدمان في طريقهما، وقد بدأ توم يفكر في أن أكثر ما يفتقده في مدينته هو الطعام !. لم يكن الطعام المقدم في منفذ العصبة كثيرًا، إلا أنه يظل أفضل من اللاشئ الذي يعانيه الآن.

وحينما سأل هيستير: ما الذي يمكن أن يحصلا عليه من طعام في ذلك القفر ليقيما به أودهما؟ قالت : « أراهن على أنك تتمنى الآن لو لم تكن قد تسببت في فقداني لحقيبتي أيها الفتى، فقد كان بها بعض اللحم المجفف».

ومع بداية فترة ما بعد الظهيرة وصل الاثنان إلى مكان به بعض الشجيرات التي لم تسحقها لندن في طريقها، فقامت هيستير بقطع بعض من أوراق تلك الشجيرات ثم قامت بهرسها بين حجرين إلى أن استحالت إلى ما يشبه العجين.

« كان من الأفضل أن يتم طهيها « قالتها هيستير وهما يتناولان الوجبة البشعة.

لاحقا تمكنت هيستير من اصطياد إحدى الضفادع الموجودة في واحدة من الحفر العميقة التي استحالت إلى بركة من الوحل، ولم تقم بدعوة توم لمشاركتها الطعام، أما هو فلم يحاول حتى مجرد النظر ناحيتها أثناء تناولها وجبتها.

لم يكن توم يدري ما الذي يمكن أن يصنعه مع تلك الفتاة، فهي صامتة تماما معظم الوقت، وحينما حاول جذب أطراف الحديث معها رمقته بشراسة وغضب جعلاه يقرر الصمت تماما. إلا أنها في بعض الأحيان كانت تشرع في الحديث من تلقاء ذاتها، حيث وجدها تقول له وهما يسيران في إثر المدينة : « الأرض آخذة في الارتفاع. .. هذا يعني أن لندن سوف تبطئ من حركتها قليلا، فالتحرك السريع على منحدر صاعد كهذا يهدر الكثير من الوقود

. »

ثم، بعد ساعة أخرى أو اثنتين، قالت: « اعتادت أمي أن تقول إن المدن المتحركة غبية دوما، فمنذ آلاف السنين كان هناك أسباب وجيهة للترحال، حيث الزلازل والبراكين كانت تدفعهم دفعا إلى ذلك، أما الآن فهم لايكفون عن السير والتهام بعضهم البعض؛ لأن الناس أغبى بكثير من أن يوقفوهم.. «

كان توم سعيدا بحديثها، بالرغم من اعتقاده أن والدتها لابد وأنها كانت واحدة من مقاومي التحرك الخطرين؛ ولكن حينما حاول مد أمد المحادثة بينهما لفترة أطول، عادت هي إلى صمتها من جديد، وكثيرا ما رآها تخبئ وجهها بيديها. لقد بدا لتوم وكأن الفتاة تحمل في داخلها شخصيتين مختلفتين، الأولى صارمة تسعى للانتقام ولاتفكر إلا في قتل فالانتاين، أما الثانية فهي سريعة وماهرة ولطيفة، تطل بوجهها من حين لآخر من خلف ذلك القناع المشوه ؛وكان يتساءل في سره أحيانا عما إذا كانت على شئ من الجنون!

.. إن رؤية المرء لأبويه مقتولين أمامه لكفيل بإصابته بالجنون التام.

« كيف حدث ذلك؟. أعني والديك، هل أنت متأكدة أنه كان فالانتاين، الذي. .. ؟» سألها توم في رفق.

« أغلق فمك وواصل السير» .

ولكن، أثناء الليل، وحينما كانا يقبعان في حفرة موحلة هربا من هواء الليل شديد البرودة، بدأت هيستير فجأة في سرد قصتها : « ولدت على الأرض، لكنها لم تكن كتلك التي نقبع بها الآن، فقد

عشت في جزيرة السنديان في أقصى الغرب. كانت تلك الجزيرة جزءًا من ساحة الصيد، إلا أن الزلازل قد أغرقت الأرض من حولها جاعلة منها جزيرة، مما جعلها أيضا بعيدة المنال عن أي مدينة جائعة. كانت جزيرة جميلة، ذات مروج خضراء وشلالات من المياه تسري عبر أشجار السنديان « .

تململ توم في جلسته، فقد كان كل لندني يعرف جيدا أن الهمجيين فقط هم من يحيون على الأرض المجردة.

« عن نفسي أفضل أن أبقى فوق ألواح معدنية جيدة الصنع !»

استأنفت هيستير حديثها وقد بدا أنها لم تسمع تعليق توم من الأساس، وأخذت الكلمات تتدفق من بين شفتيها الملتويتين: « وكانت هناك بلدة تدعى دونروامين، كانت بعيدة عنا في البداية، إلا أن أهلها قد كلوا من التحرك المستمر هربا من البلدات الأكبر التي تبغي التهام بلدتهم، لذا فقد سبحوا بلدتهم حتى وصلوا لجزيرتنا، وقاموا بخلع عجلات بلدتهم ومحركاتها، ودفنوها بجانب التل، وظلت هناك لمائة عام أو أكثر».

« لكن هذا أمر شنيع» قالها توم « إنها مقاومة صريحة للتحرك!»

لم تعقب هيستير واستمرت تروي حكايتها : « عاش أبي وأمي عن أطراف المرسى حيث البحر. كان أبي مزارعا، أما أمي فكانت مؤرخة مثلك، إلا أنها كانت أكثر براعة بالطبع. وفي كل صيف كانت تطير بمنطادها في رحلة استكشافية بحثا عن بقايا التقنيات القديمة، ثم تعود في الخريف وفي ليالي الشتاء، اعتدت دوما أن أصاحبها إلى العلية في منزلنا حيث تجري

أبحاثها، فكنت أجلس لأتناول شطائر الجبن بينما تحكي لي هي عن مغامراتها.

وفي إحدى الليالي، كان ذلك منذ سبع سنوات، استيقظت في ساعة متأخرة من الليل، وكانت أصوات مناقشات حادة تنبعث من العلية. قمت من فراشي وصعدت الدرج المؤدي إلى هناك، واختلست النظر عبر الباب، فرأيت فالانتاين. كنت أعرفه جيدا فقد كان صديقا لأمي، وقد اعتاد أن يمر علينا للزيارة في طريق رحلاتـه. لكنـه فـي تلـك الليلـة لـم يكـن ودودا علـى الإطـلاق... (أعطنـي الآلـة ياباندورا).. سمعته يـردد تلك الجملة.. (أعطنـي ميدوسا). لم يكن يدري حينها أنني كنت أراه، وكنت أرتعد خوفا لـدرجة أننـي لم أستطع أن أخطو خطوة واحدة نحو الأمام أو الخلف. كان موليا ظهره لي في حين وقفت أمي في مواجهته حاملة تلك الآلة التي يتحدثان عنها، وتقول له في تحد:(اللعنة عليك ثاديوس. أنا من وجدتها. إنها ملكي).

وهنا، استل فالانتاين سيفه وقام ب... لقد... « .

وتوقفت لبرهة لالتقاط أنفاسها المتلاحقة. كانت تريد أن تكف عن الحكي، إلا أن طوفان الذكريات قد عاد بها إلى تلك الليلة، في العلية، والدماء المسفوكة التي أغرقت خرائط النجوم الخاصة بأمها.

« ثـم اسـتدار ليراني ويدرك أنني قد شاهدت كل شئ. فاندفع نـاحيتي ملوحـا بسيفه تجـاهي إلا أننـي كنت قد تـراجعت إلى الـوراء، فقطع السيف وجهي لكنه لم يقتلني، ثم سقطت على ظهري عبر درجات السلم. لابد أنه قد ظن أنه تمكن من قتلي،

حيث سمعت خطواته وهو يعود للعلية، ثم سمعت صوت حفيف الأوراق وهو يبحث بينها عن ضالته. قمت من سقطتي وعدوت. كان أبي راقدا على أرضية المطبخ. كان ميتا هو الآخر. حتى الكلاب كانت ميتة. أسرعت هاربة خارج المنزل، وهناك لمحت سفينة فالانتاين السوداء العملاقة ترسو في نهاية الحديقة ورجاله ينتظرونه بجانبها، فما إن رأوني حتى هرعوا ورائي لكني استطعت الفرار.

هرعت إلى مرسى السفن واختبأت في قارب أبي. أظن أنني كنت أريد حينها الذهاب إلى دونروامين وطلب المساعدة. لقد كنت صغيرة حينها وظننت أن الطبيب قد يمكنه مساعدة أبوي، لكنني كنت واهنة أيضا من الألم والدماء. ... قمت بفك حبال القارب بطريقة أو بأخرى للإبحار به، فسحبته الأمواج، ثم أفقت بعد ذلك على شاطئ ساحة الصيد.

عشت في العراء خارج المدن. في البداية، لم أتذكر الكثير من الأمور، وكأن ذكرياتي تسللت هاربة منراسي عبر الجرح القطعي في وجهي. ثم بدأت أستعيد ذكرياتي رويدا، حتى تذمرت فالانتاين ومافعله، وحينها عقدت العزم على أن أجده وأقتله كما قتل أمي وأبي» .

« ولكن، ماهي تلك الآلة؟.. ميدوسا؟»

هزت هيستير كتفيها، لقد كان الظلام يعم كل شئ بحيث لايمكنه رؤيتها، لكنه سمع احتكاك كتفيها بمعطفها البالي.

« هي شئ ما وجدته أمي. شئ يتعلق بالتقنيات القديمة. لم تكن

تبدو على شئ من الأهمية، فقد كانت تشبه كرة معدنية مجعدة ومنبعجة بالكامل، إلا أنه قد قتلها لأجل تلك الآلة» .

«سبع سنوات»، همس توم، « كان هذا حينما صار السيد فالانتاين رئيسا للعصبة. لقد قالوا وقتها أنه قد عثر على شئ ما في العراء، وكان كروم سعيدا جدا بترقيته لفالانتاين على رأس جميع كبار العصبة، إلا أنني لم أعرف أبدا كنه الشئ الذي وجده، ولم أسمع بتلك الميدوسا من قبل» .

لم تنبس هيستير بكلمة. وبعد برهة كان قد غلبها النعاس وبدأت تغط في نومها.

ظل توم متيقظا لفترة طويلة، يقلب قصتها في رأسه مرارا، وكان يفكر في أحلام اليقظة التي ساعدته على الاستمرار لسنوات، متحملا تلك الأيام المملة في المتحف. لطالما حلم بأن يعلق خارج المدينة في العراء، بصحبة فتاة جميلة، في مطاردة شيقة مع أحد القتلة الخطرين، لكنه لم يكن يتخيل أن العراء بارد ورطب إلى هذا الحد، أو أن القاتل الخطير سوف يكون أعظم أبطال لندن. وكذلك أن يكون في صحبة هيستير. .. ونظر إلى وجهها المحطم الذي كان الضوء الباهت للقمر منعكسا عليه. كانت عابسة متجهمة حتى وهي نائمة.

لقد فهمها بشكل أفضل الآن، هي تكره فالانتاين، لكنها تكره نفسها أكثر بسبب قبحها الشديد، ولكونها بقيت على قيد الحياة في حين مات أبواها؛ وتذكر شعوره يوم مات أبواه، يوم عاد من المدرسة فوجد منزله وقد سوي بالأرض وليجد والديه وقد توفيا، يومها استولت عليه فكرة أن الخطأ خطؤه هو، واستحوذ

عليه شعور قاتل بالذنب لأنه لم يكن بصحبتهما ليموت معهما.

.. يجب أن أساعدها - هكذا حدث نفسه- لن أدعها تقتل فالانتاين، لكني سأجد طريقة لكشف الحقيقة، هذا لو كان ماحكته هو الحقيقة. ربما في الغد تبطئ لندن من سرعتها قليلا، وتكون ساق هيستير أفضل حالا، فنتمكن من العودة إلى المدينة بحلول المغيب، وحينها قد ينصت إلينا أحد هناك...

إلا أنهما وبحلول الصباح وجدا المدينة وقد أصبحت أبعد مسافة، وساق هيستير قد صارت في حال أسوأ، كانت تئن من الألم مع كل خطوة تخطوها، وصار وجهها شاحبا كالثلج وتلوثت ضمادتها تماما بالدماء المتدفقة من جرحها.

وبخ توم نفسه على إلقائه بقايا قميصه الممزق بعيدا، وعلى تسببه في فقدان هيستير لصرتها ومابها من أدوات الإسعافات الأولية.

وعند منتصف الصباح رأى الاثنان شيئًا ما أمامهما. كان الشئ عبارة عن ركام من بقايا المعادن ملقاة عبر مسار المدينة، إنها البقايا التي صرفتها المدينة في اليوم السابق؛ وبجانب الركام وقفت بلدة غريبة شديدة الصغر.

ومع اقترابهما من الركام تمكن توم وهيستير من رؤية تلك الجماعة من البشر يتدافعون فوق البقايا المعدنية، يتفقدون المعدن المنصهر ويقلبون بين الشظايا المتناثرة.

شعر الاثنان ببصيص من الأمل، فتحاملا على أنفسهما وأسرعا الخطى نحو البلدة، وعند بداية فترة مابعد الظهيرة كانا يسيران

في ظلال عجلات البلدة.

اعترى توم العجب الشديد من تلك البلدة ذات الطبقة الواحدة ! لقد كانت أصغر من العديد من المنازل في لندن، كما بدا له أيضا أنـها قـد بنيت بـالكامل مـن الخشـب، مـن جـانب مجموعـة مـن الحرفيين الذين لايعرفون عن أعمال النجارة سوى أنها عبارة عن حشد من المسامير يتم دقها فوق الألواح الخشبية!

وخلف مابدا وكأنه دار البلدية، اصطفت مجموعة من المداخن الملتوية الخاصة بمحرك البلدة.

« مرحبا». ... التفت الاثنان ناحية الصوت، فوجدا رجلا طويلا أبيض ملتحيًا يتخذ طريقه نحوهما عبر الركام : « مرحبا بكما في سـبيدويل. أنــا أورم ريلانــد، عمــدة البلــدة. هــل تتحـدثان الإنجليزية ؟ «

تراجعت هيستير في ارتياب أما توم فقد رأي أن الرجل يبدو ودودا، فتقدم نحـوه : « فضـلا ياسيدي. نحـن في حاجة ماسة لبعض من الطعام، وطبيب لفحص ساق صديقتي».

«لست صديقتك»، تمتمت هيستير، « كما أن ساقي على مايرام»، إلا أن منظرها كان يشي بالعكس، حيث كانت ترتجف وقد ازداد وجهها شحوبا وكان يتصبب عرقا.

« لايوجد أطباء في سبيدويل على أية حال «، أجابهما ريلاند ضاحكا، « أما بالنسبة للطعام.. .. في الحقيقة... الأحوال صعبة هنا، فهل معك شئ يمكنك المقايضة عليه؟ «

تحسس توم جيوب ردائه، كان معه قليل من المال، ولكن ما نفع العملة اللندنية في تلك البلدة!. ثم شعر بشئ صلب في إحدى جيوبه، إنه ذلك القرص الممغنط الذي وجده في أحشاء لندن، فأخرجه من جيبه وتأمله بحسرة لهنيهة، ثم ناوله للرجل العجوز. لقد كان يخطط لتقديمه كهدية لكاثرين فالانتاين في يوم ما، أما الآن فهما يتضوران من الجوع وفي أمس الحاجة للطعام.

« جميل. جميل جدا « قالها أورم ريلاند وهو يحرك القرص متأملا انعكاسات الضوء على سطحه اللامع.. « ليس ذا نفع كبير، لكنه يصلح لمنحكما المأوى والطعام لبضعة ليال. هو ليس طعاما شهيا، لكنه أفضل من لا شئ «.

وقد كان محقا، فلم يكن الطعام جيدا على الإطلاق، إلا أن توم وهيستير قد تناولاه في شره، وحينما فرغ صحنيهما طلبا المزيد.

« إنه مصنوع من الطحالب « قالها ريلاند، في حين كانت زوجته تسكب مزيدا من الطعام أمامهما، «حيث نقوم بزراعته في أوعية كبيرة أسفل غرفة المحرك الأساسي.. .. طعام كريه هو، لكنه يقيم أود المرء ويشبع جوعه في أوقات الشح وضيق الحال. ولا أخفيكما سرا، لم يكن الحال يوما أسوأ مما هو عليه الآن، لهذا كنا مسرورين جدا حينما أتينا إلى هنا بحثا عن أي شئ يصلح في تلك الكومة من المخلفات».

أومأ توم مسندا ظهره إلى مسند مقعده وهو يجوب ببصره حوله في مقر ريلاند. كان المكان صغيرا، يشبه قالب الجبن إلى حد كبير، وأبعد ما يكون عما توقع توم أن يكون عليه مقر إقامة العمدة، ولكن حتى أورم ريلاند نفسه لم يكن يشبه هيئة العمدة

كما يتخيلها توم.

وكان الرجل العجوز يحكم بلدة تتكون بشكل أساسي من عائلته هو : أبنائه وبناته، أحفاده، أبناء وبنات العموم، أزواج وزوجات لأفراد عائلته من بلدات أخرى، تعارفوا واقترنوا بهم أثناء مرور بلداتهم بجانب سبيدويل.

إلا أن ريلاند لم يكن سعيدا على الإطلاق : « إنه ليس أمرا ممتعا أن تقود بلدة لاتكف عن التحرك... ليس أمرا ممتعا، مطلقا. في وقت مضى كان يمكن لبلدة صغيرة كسبيدويل أن تدير شؤونها بأمان، فهي أصغر بكثير من أن تثير شهية أية بلدة أو مدينة بحيث تكلف نفسها عناء السعي وراءها، أما الآن، ومع ندرة الفرائس، صار كل من يرانا يريد إلتهامنا، حتى أننا وجدنا أنفسنا يوم أمس نفر هرعين من إحدى تلك المدن الكبيرة التي تتحدث لغة أجنبية. وإني لأتساءل، أي إغراء هذا الذي يمكن أن تمثله بلدة ضئيلة كسبيدويل لوحش كبير كتلك المدينة؟! فبلدتنا لن تشبع جوعها ولن ترضي شهيتها « .

« لابد أن بلدتك سريعة جدا ؟ « سأله توم.

« نعم «، أجابه ريلاند مبتهجا، وتدخلت زوجته في الحديث قائلة : « إنها تسير على أقصى سرعة، مئات الأميال في الساعة، وذلك بفضل أورم. لقد برع في إقامة تلك المحركات الكبيرة للبلدة « .

فمال توم إلى الأمام ناحية الرجل قائلا : « هل يمكنك مساعدتنا؟.. .. علينا الذهاب إلى لندن في أسرع وقت. أنا واثق

من أنك تستطيع اللحاق بها، وأظن أنك سوف تجد على الطريق إليها المزيد من بقايا المدن والبلدات».

« بحقك يافتى»، هز ريلاند رأسه قائلا : « إن ما تلقيه لندن لايستحق عناء السعي وراءها، خاصة في تلك الأيام، حيث صار كل شئ قابلًا لإعادة التدوير، فلم يعد من شئ يبقى سوى خبث المعادن. إنني أتذكر تلك الأيام حينما كانت بقايا المدن تملأ ساحة الصيد كالجبال.. ياتلك الأيام! كانت البقايا تعج بالخيرات مما يمكن اقتناصه، أما الآن، فلم يعد من شئ يتبقى». ... « ثم أنني لن أغامر بسحب بلدتي بالقرب من لندن أو أي مدينة أخرى، فلا يمكنني الوثوق بهم في هذه الأيام، فلربما استداروا وقاموا بالتهامنا. لا، لا ». أومأ توم برأسه محاولا ألا تظهر عليه علامات الإحباط. ثم نظر نحو هيستير، فوجد رأسها وقد سقط على صدرها، وقد بدا وكأنها قد راحت في نوم عميق، أو ربما هي فاقدة الوعي. هم توم بتفحصها آملا أن تكون نائمة فقط من أثر الرحلة الطويلة والتعب، إلا أن ريلاند قد بادره قائلا : « أيها الفتى، سوف نأخذك إلى حيث التجمع».

«إلى ماذا؟»

« إلى التجمع التجاري. إنه تجمع مكون من عدة بلدات صغيرة. هو على بعد يومين نحو الجنوب الشرقي من هنا، نحن ذاهبون لهناك على أية حال» .

وأكملت السيدة ريلاند كلام زوجها : « سوف يكون هناك الكثير من البلدات في التجمع، وربما استطعتما عن طريق إحداها العودة إلى لندن، وحتى وإن لم تكن أي من البلدات على استعداد

لأخذكما إليها، فبالتأكيد سوف تجد هناك أحد الملاحين الجويين أو التجار يمكنه أن يأخذكما إلى تلك الوجهة «.

« أنا... « ولم يكمل توم جملته، إذ شعر فجأة بأنه ليس على مايرام. كانت الغرفة تموج به وتتمايل، ونظر إلى هيستير فوجدها قد سقطت أرضا، ثم بدأ يرى آلهة منزل ريلاند وقد بدأت تحملق فيه من محرابها، وبدا وكأن أحدها يتوجه إليه بالحديث، بصوت ريلاند، ويقول: « تأكد أنك ستجد مركبة جوية هناك، يوجد دوما مناطيد في التجمع التجاري».

« هل تريد مزيدا من الطعام ياعزيزي؟» قالتها السيدة ريلاند، في حين سقط توم على ركبتيه أرضا، ومن هوة سحيقة جاءه صوتها وهي تقول لزوجها : « لقد استغرق وقتا طويلا حتى بدأ المفعول، أليس كذلك أورمي؟!»

« نعم ياحبيبتي، علينا في المرة القادمة أن نضع المزيد» .

ساءت حالة توم أكثر فأكثر، وشعر بأن الأشكال الدائرية الشبيهة بالدوامات المطبوعة على سجادة الغرفة وكأنها ترتفع لتلتف حوله وتحيط به ساحبة إياه معها إلى الأعماق، وكأنه يسبح فوق كومة لينة من القطن، وأخيرا سقط في بئر النعاس المفعم بالأحلام عن كاثرين.

***

7 لندن العليا

الطبقة الأولى، العليا .. حيث المحلات الراقية المزدحمة، مثل ماي فير وبيكاديللي، وميدان كويرك حيث تمثال منقذ لندن العظيم يقف منتصبا في جلال وهيبة فوق عموده المعدني الأنيق المزخرف. وفوق كل ذلك ترتفع قمة الطبقة وكأنها تاج معدني يتوج المدينة برمتها، مرتكزا على أعمدة هائلة الحجم.

إنها الطبقة الأصغر والأعلى بين طبقات المدينة السبع، تضم بين جنباتها ثلاثة مبان فقط هم الأهم في لندن : ففي الخلف تنتصب أبراج مجمع العصبات، حيث تقع مكاتب كل عصبة هناك. وفي مقابل ذلك المبنى يقع مقر عصبة الهندسة - ذي الألواح الزجاجية السوداء - حيث تصنع القرارات وتدار شؤون المدينة؛ وبين المبنيين تقع كنيسة القديس بول، ذلك المعبد المسيحي القديم الذي أعاد كويرك بناءه هنا حين حول لندن إلى مدينة متحركة، وقد صار منظره محزنا مؤخرا، حيث تسنده الدعامات وتثبت عليه السقالات من كل جانب لإصلاح ما حل به من تلف بالغ بسبب حركة المدينة واهتزازاتها، والتي أدت لتدهوره حتى صار متداعيا، إلا أنه من المقرر أن يعاد افتتاحه للعامة مرة ثانية بعدما وعدت عصبة المهندسين بإصلاحه وإعادته إلى حال جيدة. وبالفعل فإن من يقترب منه قليلا سوف يسمع أصوات المطارق والمثاقيب وغيرها، تأتي من داخله، حتى أن ماجنوس كروم قد سمعهم أثناء مرور مركبته بالقرب من الكاتدرائية في طريقه إلى مقر الهندسة، فابتسم ابتسامة باهتة و.. غامضة.

وفي داخل مقر الهندسة كان ضوء الشمس باديا من خلف النوافذ

السوداء، في حين تستحم الحوائط المعدنية الداخلية في ضوء النيون البارد، والهواء المحمل برائحة المطهرات.

دخل العمدة إلى الردهة، فوقفت إحدى المتدربات انتباهًا، وقد أحنت رأسها الحليق في احترام، فقال كروم : « خذيني إلى دكتور تويكس».

وكانت سيارة أحادية بانتظاره، فقامت المتدربة الشابة من فورها بمساعدة العمدة على ركوب السيارة التي أخذته سريعا، عبر طريق حلزوني في قلب مقر الهندسة، إلى حيث وجهته.

وخلال طريقه عبر الطوابق المكتظة بالمكاتب وغرف الاجتماعات والمعامل، كان كروم ينظر بعين الرضا متأملا ذلك الصرح الشامخ بكل ما فيه من آلات غريبة الأشكال، تتبدى الملامح الخارجية لهياكلها عبر الزجاج المتجمد، والمهندسين المنهمكين في العمل على بقايا التقنيات العتيقة، والمعامل وماتحويه من تجارب علمية على الفئران والكلاب، وتلك المجموعة من أطفال العصبة حليقي الرأس، الذين جاءوا في رحلة إلى مقر الهندسة في القمة، قادمين من دار الرعاية الخاصة بالعصبة والكائنة في الأحشاء.

كان كروم يتابع كل ذلك، وقد غمره شعور بالأمان والرضا، فهنا كل شئ نظيف ولامع؛ لقد جعله ذلك يسترجع في ذاكرته أسباب عشقه للندن وإصراره على تكريس حياته العملية على هدف أوحد، هو إيجاد السبل ضمان استمرار حركة المدينة. ..

منذ سنوات بعيدة، حينما كان كروم لايزال متدربا شابا، قرأ يوما تلك النبوءة الكئيبة التي تقول إن الفرائس سوف تهرب بعيدا،

والمدن المتحركة سوف تهلك؛ ومنذ ذلك الحين كرس كروم أيام عمره من أجل إثبات خطأ تلك النبوءة، فاجتهد وشق طريقه مترقيا من منصب إلى منصب أعلى، حتى وصل إلى رأس السلطة في عصبة المهندسين وصار رئيسها، واستمر في الكفاح إلى أن صار عمدة المدينة ورأسها الحاكم. إلا أن ذلك كله ما كان سوى البداية، وكل قوانين إعادة التدوير واستنفاذ المخلفات ليست سوى هدف مؤقت.. أما الآن فقد حان الوقت للكشف عن خطته الحقيقية وهدفه الأعظم.

ولكن، وقبل كل شئ، عليه أولا أن يتأكد أن الفتاة شاو لن تسبب المشاكل بعد الآن.

وصلت السيارة إلى وجهتها، وتوقفت أمام بوابة رقم واحد من المعامل العليا، وعند المدخل كانت امرأة قصيرة بدينة، ترتدي معطفا أبيض، وتقف في تململ منتظرة وصول العمدة.

إيفان تويكس.. ... هي واحدة من خيرة مهندسي لندن، صحيح أنها لايبدو عليها سمة العلماء على الإطلاق، وصحيح أيضا أنها تزين جدران معملها بصور الزهور والجراء الصغيرة - في خرق واضح لتعليمات العصبة - ولكن فيما يتعلق بأمور العمل، فإنها امرأة حازمة شديدة الصرامة.

« مرحبا بك سيدي العمدة «، قالتها مبتسمة في تكلف وهي تنحني، « جميل أن أراك هنا. هل أتيت لزيارتنا؟»

« أريد أن أرى جريك «، قاطعها كروم وهو يندفع إلى داخل المعمل، حتى أنها انتحت جانبا بقوة من أثر اندفاعه، وكأنها ورقة

في مهب الريح.

أسرع كروم الخطى ومن ورائه دكتور تويكس، إلى داخل المعمل، إلـى المهندسـين الـذين أخـذتهم الدهشـة لرؤيـة العمدة، وأرفف الآنية الزجاجية المعملية، والطاولات التي تمددت عليها الهياكل المعـدنية الصـدئة التـي يعكف مجموعـة مـن المهندسـين علـى إصـلاحها فـي صـبر ومثـابرة. لقـد أمضـى فريق دكتـور تـويكس سنوات وسنوات في دراسة هؤلاء الرجال شبه الآليين، الذين يتم اكتشاف بعض من رفاتهم من وقت لآخر في العراء.

إلا أنه مؤخرا قد تم العثور على ماهو أكثر من مجرد بقايا !

« هل أنهيت أبحاثك حول جريك ؟»، وجه العمدة سؤاله فجأة إلى تويكس، « هل أنت متأكدة من أنه ليست له أية استخدامات إضافية يمكننا الاستفادة منها ؟ «

« نعم، لقد عرفت كل ما يمكننا معرفته عنه ياسيدي. إنه قطعة خلابة، لكنه أكثر تعقيدا مما يجب. لقد استطاع تطوير نفسه. ونظرا لارتباطه الشديد بتلك الفتاة. .. .. آ. أظن أن عليَّ جعل النماذج الجديدة أقل تعقيدا. هل تريد مني أن أقوم بتفكيكه ؟»

« لا» أجابها كروم وهو يتوقف أمام باب دائري صغير، وقام بلمس أحد الأزرار فانفتح الباب.

« سوف أحفظ وعدي مع جريك. كما أن لدي مهمة له « .

ووراء الباب، حيث الظلال ورائحة زيتية ثقيلة تفعم الهواء، وقف ذلـك الـهيكل الطويـل منتصبا بـلا حراك، أمام الحائط المقابل،

وبمجرد أن دلف كروم إلى داخل الغرفة، بدأت عينان صغيرتان في إطلاق وميض أخضر ككشافي سيارة أماميين.

« مرحبا سيد جريك. كيف حالك اليوم؟. أرجو ألا تكون نائما «.

« لست نائمًا « أجابه صوت منبعث من الظلام. صوت مرعب. حاد كصرير تروس صدئة، حتى أن دكتور تويكس، والتي سمعته مرارا من قبل، قد اعترتها رعشة قوية.

« هل تريد استجوابي مرة ثانية؟ «

« لا ياجريك. ... هل تتذكر تحذيرك لي حينما أتيت أول مرة منذ عام ونصف العام؟ عن تلك الفتاة شاو؟»

« لقد أخبرتك أنها حية وأنها في طريقها إلى لندن» .

« حسنا.. يبدو أنك كنت محقا. لقد ظهرت كما قلت؟ «

« أين هي؟ أحضرها لي « .

« مستحيل. لقد فرت عبر مكب المخلفات عائدة إلى العراء « .

مرت فترة صمت، يتخللها صوت صرير أشبه بتنفيس البخار، ثم قال الكائن : « يجب أن أذهب وراءها «.

ابتسم كروم وقال : « هذا ما كنت أتمنى في قرارتي أن تقوله، وقد أمرت بإعداد واحدة من مركبات الاستطلاع الجوي من طراز ((جوشاوك٩٠) من أجلك. سوف يقوم الملاحون باتباع الآثار التي تركتها المدينة عبر مسارها حتى تعثر على الفتاة، فإن وجدتها ومرافقها ميتين فلابأس إذن، أما لو كانا لايزالان على قيد الحياة

فسوف يكون عليك قتلهما والعودة بجثتيهما إلي» .

« ثم ماذا؟»

« بعدها، سوف أمنحك ما يتمناه قلبك ياجريك « .

***

كانت فترة عجيبة تمر بها لندن، فالمدينة لاتزال ترتحل بسرعة عالية، وكأن هناك صيدًا ثمينًا يلوح في الأفق، ولكن في الحقيقة لم تكن ثمة مدن في تلك الناحية الجرداء الرمادية الموحلة في الشمال الغربي من ساحة الصيد؛ وكان الجميع يتساءلون في عجب عما يخطط له العمدة.

وقد سمعت كاثرين الخدم في منزلها يتهامسون حول الأمر، حيث تمتم أحدهم : « لايمكننا الاستمرار في الارتحال على هذا النحو. .. هناك مدن كبرى ناحية الشرق. سوف يزدردوننا ولن يتبق منا سوى العظام !»

إلا أن السيدة مالو مدبرة المنزل كان لها رأي آخر، حيث قالت : « أنتم لاتفقهون شيئا على الإطلاق. ألم يقم العمدة بإرسال السيد فالانتاين في بعثة استطلاعية ؟ لابد وأنهما قد رصدا صيدا ثمينا وجائزة كبرى في الأفق. كونوا متأكدين من ذلك « .

جائزة كبرى ؟ ربما، لكن أحدا لايعلم ماهي.

وحينما عاد فالانتاين من اجتماعه مع عصبة المهندسين، سألته كاثرين : « لماذا يرسلونك أنت في مهمة استطلاعية ؟ هذا عمل الملاحين وليس عمل أفضل عالم آثار في العالم. هذا ليس بعدل!

»

تنهد فالانتاين في صبر ثم قال : « كيت. إن العمدة يضع ثقته فيَّ. وأنا لن أتأخر في تلك المهمة. سوف أعود سريعا، ربما لن أستغرق أكثر من ثلاثة أسابيع أو شهر ليس إلا. والآن تعالي معي لنتفقد الإعدادات التي قام بها بيوسي وجينيش في المنطاد من أجل الرحلة» .

***

منذ حرب الستين دقيقة، وعلى مدار الألفية، شهدت تكنولوجيا المناطيد تطورا هائلا حتى بلغت مستويات غير مسبوقة لم يحلم بها حتى القدماء أنفسهم.

وقد امتلك فالانتاين المنطاد مصعد الطابق الثالث عشر، وهو المركبة الجوية التي صممت خصيصا لأجله، وقد دفع فالانتاين تكاليف بنائها من الأموال التي منحه إياها كروم لقاء إحدى الآلات التقنية القديمة التي عثر عليها أثناء رحلته في أمريكا من عشرين عاما.

وقد أخبر فالانتاين ابنته أن تلك المركبة هي أفضل وأحسن المناطيد التي تم بنائها على الإطلاق، ولم تشك كاثرين في رأي والدها.

وبالطبع لم يكن فالانتاين يترك مركبته الفاخرة في مرفأ المناطيد بالطابق الخامس مع باقي المناطيد العادية، وبدلا من ذلك أقام مرفأ خاصا به على بعد بضعة مئات من الياردات من منزله.

سارت كاثرين إلى مرفأ المنطاد بصحبة والدها، ومعهما (كلب) الذي هرع يتشمم المعدات والصناديق التي يتم نقلها إلى المنطاد.

كان المكان يعج بالعاملين، بالإضافة إلى بيوسي وجينيش اللذين كانا يمدان المنطاد بكل ماسوف يحتاجه فالانتاين في رحلته، ومن لحوم معبأة وغاز للطيران، وأدوات طبية، وأقنعة غاز، وسترات واقية من الحريق، ومعاطف واقية من البرد، وخرائط، وأدوات طعام بلاستيكية، وأسلحة ! بالإضافة إلى صندوق مكتوب عليه (أحذية واقية من الأوحال) من ماركة بينك.

وفي ظلال المرفأ، وقفت المركبة العملاقة، بغلافها الحريري المغطى بالمشمع الأسود. وكعادتها، شعرت كاثرين برعشة شديدة تعتريها كلما فكرت في أن تلك المركبة الضخمة سوف تحمل أباها إلى السماء؛ إلا أن أحاسيس أخرى قد اعترتها أيضا : إحساس بالحزن متفاقم لأنه سوف يتركها ويرتحل بعيدا، والخوف من من أنه قد لايعود ثانية. .. « لكم أتمنى أن آتي معك ياأبي» .

« ليس تلك المرة ياكيت. ... ربما في يوم ما أصطحبك معي « .

« ألأنني فتاة ترفض أن تصحبني معك؟ لكن ذلك لايعني شيئا، أقصد أنه في الزمن القديم كان مسموحا للنساء بأن يفعلن كل ما يفعله الرجال، وعلى أية حال فإن المجال الجوي ملئ بالنساء اللائي يعملن بالطيران. وقد عملت واحدة منهن معك، في بعثتك إلى أمريكا. إنني أتذكر صورها جيدا.. ..» .

فضمها والدها إلى صدره قائلا: « الأمر ليس كذلك ياكيت. ... كل

ما هناك أن الرحلة قد تكون خطرة. وعلى أية حال لاأريد أن تكون أولى رحلاتك مع مغامر عجوز مثلي، أريدك أولا أن تنهي دراستك وتصبحي سيدة لندنية راقية جميلة. والأهم من ذلك الآن أريدك أن تمنعي (كلب) من التبول فوق صناديقي... « .

فقامت كاثرين بسحب ذئبها فورا بعيدا عن المنطاد، ثم جلست إلى جانب والدها في الظل وسألته : « ألن تقول لي إلى أين تذهب؟ «

« لايفترض بي أن أقول أي شئ» قالها ناظرا إلى ابنته بطرف عينه.

« هيا !»، قالتها ضاحكة، « نحن أصدقاء مقربون. أليس كذلك؟ وأنت تعلم أنني لن أخبر أي شخص. كما أنني أريد أن أعرف إلى أين تتجه لندن ؟ إنهم لايكفون عن ترديد ذلك السؤال في المدرسة. فمنذ أيام ونحن نتجه ناحية الشرق بأقصى سرعة. إننا حتى لم نتوقف حينما التهمنا سالت هووك. .. «

« حسنا كيت. الحقيقة أن كروم قد طلب مني التوجه نحو (شان جو) وإلقاء نظرة هناك» .

شان جو. .. هي الأمة المتزعمة لجماعة مكافحة التحرك، وهي عبارة عن تحالف بربري يحكم شبه القارة الهندية القديمة وما تبقى من الصين. وهي محمية تماما من خطر المدن الجائعة بسلسلة من الجبال والمستنقعات التي تعين الحدود الشرقية من ساحة الصيد. وقد درست كاثرين تلك المعلومات ضمن مادة الجغرافيا، وتعلم أنه لايوجد سوى طريق واحد فقط إلى تلك

المنطقة عبر الجبال، وهو محمي بالمدينة الحصن (بات مونخ جومبا) المروعة.

« ولكن.. .. لماذا ؟. .. لندن لاتستطيع الذهاب إلى هناك» .

« لم أقل إننا ذاهبون إلى هناك، ولكن ربما اضطررنا للتوجه إليها في يوم ما لاختراق حصون جماعة مقاومة التحرك. أنت تعلمين جيدا أن الفرائس صارت نادرة، والمدن تتضور جوعا الآن « .

« لكن لابد أن هناك حلا آخر غير هذا. .. .. ألا يمكن أن تقام محادثات بين عمد تلك المدن والتشاور بشأن حلول أخرى؟» .

ضحك فالانتاين برفق : « أخشى أن القوانين الداروينية لاتقول ذلك. كيت. إنها طبيعة ذلك العالم، أن مدينة تأكل الأخرى لتحيا. لكن لاتقلقي، فكروم رجل عظيم ومحنك، وبلا شك سوف يجد طريقة ما « .

أومأت كاثرين في عدم رضا، فمازال والدها يخبئ عنها الكثير من الأمور، فإلى الحين لايزال يخفي عنها سر تلك الفتاة التي أرادت قتله، والآن تستطيع أن تجزم أنه يخفي عنها أسرارا أخرى، تتعلق بتلك الحملة التي هو على وشك الخروج فيها، وخطط العمدة بشأن لندن وتحركها الغامض.

ترى، هل يمكن ربط تلك الأمور ببعضها البعض؟. لم يكن بإمكانها أن تسأله مباشرة عما سمعته من حديث بينه وبين كروم، دون أن تعترف لها بأنها كانت تتجسس عليهما مسترقة السمع؛ بدلا من ذلك سألته : « هل لهذه الحملة علاقة بتلك الفتاة القاتلة ؟ هل هي من شان جو ؟»

« لا « أجابها فالانتاين سريعا، وقد لاحظت وجهه الذي امتقع حينها.

« إنها ميتة الآن ياكيت، وما من سبب لتقلقي بشأنها. هيا بنا «، قالها وهب واقفا : « لدينا بضعة أيام لنقضيها معًا قبل الرحلة، لذا دعينا نستغلها بأقصى قدر ممكن. سوف نجلس جوار المدفأة ونلتهم شطائر الزبد، ونتسامر مستذكرين الأيام الخوالي، ولن نفكر مطلقا في ... في تلك الفتاة المشوهة البائسة «.

وفي طريق عودتهما عبر المرفأ، غمرهما ظل هائل آت من السماء.... كان المنطاد جوشاوك ٩٠ يغادر مقر الهندسة.

« أبي، هل ترى هذا؟.. ... كما ترى، فإن عصبة المهندسين لديهم طاقمهم الاستطلاعي الخاص. إنه لأمر بغيض من ماجنوس كروم أن يرسلك بعيدا عني « .

إلا أن والدها لم يحر جوابا، وإنما رفع كفيه فوق عينيه ليتمكن من رؤية ذلك المنطاد الأبيض وهو يغادر قمة الطبقة، فيدور حولها، ثم يرتحل غربا.

***

8 التجمع التجاري

غرق توم في أحلامه بكاثرين، كانت تسير معه، يدها بيده، يجوبان معا القاعات المألوفة للمتحف. و لم يكن أي من رجال العصبة حاضرا، ما من أحد ليأمره « نظف الطابق أيها المتدرب ناتسورثي» أو « انفض الغبار عن أواني القرن الثالث والأربعين «... كان يسير معها في تؤدة، يستعرض المعروضات، ويجوب أرجاء القاعات وكأنها ملك له، أما هي فكانت تنظر إليه ووجهها مشرق بابتسامة.

ومن مكان ما، كانت موسيقى نائحة غريبة تصدر ويتردد صداها في أرجاء الحلم، ولم يميزا مصدرها إلا حينما بلغا معرض التاريخ الطبيعي، حيث كان الحوت الأزرق المعلق هناك لايكف عن الغناء!

توارى الحلم، ولكن بقيت نغمات الأغنية يتردد صداها في عقل توم، الذي كان يرقد حينها فوق أرض خشبية، وعلى جوانبها ترتفع الجدران الخشبية أيضا، في حين يتسرب بعض من ضوء شمس الصباح عبر الفجوات بين الألواح الخشبية للسقف، والذي امتدت فوقه شبكة من الأنابيب والمواسير. إنها شبكة مياه سبيد ويل، ولم يكن صوت الموسيقى الغريب سوى أصوات حركة المياه داخل الشبكة !

تقلب توم فوق الأرض الخشبية، وبدأ يتفقد الغرفة الصغيرة من حوله، فوجد هيستير جالسة إزاء الحائط المقابل.

« أين أنا؟» تسائل توم متأوها.

« لم أكن أظن أن أحدا يمكن أن يقولها - أين أنا- في عالم الواقع. ظننت ذلك يحدث في القصص فقط ،ياله من أمر مثير «.

« حقا؟!» أجاب توم محتجا، ثم عاد يتأمل الجدران الخشبية والباب المعدني الصغير في إحداها ؛ « هل مازلنا في سبيد ويل؟ ماالذي حدث؟»

« لابد أنه الطعام .بلا شك» .

«تقصدين أن ريلاند قد قام بدس مخدر لنا في الطعام؟ ولكن لماذا؟!»

ثم قام من رقدته واتجه نحو الباب..

« لا تتعب نفسك... إنه مغلق تماما».

لم يجب توم وحاول فتحه، لكن دون جدوى، إنها محققة؛ فالباب مغلق تماما ؛ ثم إنه انحنى قليلا لينظر عبر فرجة في الخائط الخشبي، فرأى ممرا خشبيا يهتز باستمرار، وكانت عجلات سبيد ويل تلقي بظلالها عليه .

كانت سبيد ويل تندفع عبر العراء، حيث رأى توم أن الأرض قد صارت أكثر صخرية وانحدارا عما رآها من قبل؛ فقالت هيستير شارحة قبل أن يسألها: « إننا نتجه جنوبا، نحو الجنوب الشرقي، منذ بزوغ أول شعاع للفجر ...وربما من قبل ذلك أيضا، فقد كنت نائمة».

« إلى أين يأخذوننا؟»

«وكيف لي أن أعرف؟»

جلس توم مسندا ظهره إلى الحائط : « هكذا إذن .... لابد أن لندن على بعد مئات الأميال عن هنا . إذن، فأنا لن أعود إلى موطني الآن «.

لم تحر هيستير جوابا، وكان لونها شاحبا حتى بدا الجرح القطعي على وجهها أكثر بروزا عن ذي قبل، ومن ساقها الجريحة كانت الدماء تسيل وتلوث الأرض من حولها .

مرت ساعة، ثم أخرى ؛ في بعض الأحيان كانوا يسمعون أصوات أناس يهرعون عبر الممر الخشبي في الخارج، وتحجب زلالهم ضوء الشمس المنسرب عبر فجوات الحائط الخشبي، في حين استمر هدير الماء عبر الأنابيب.

ثم سمع توم صوت رتاج ينفتح، وعبر فتحة صغيرة أسفل الباب أطل وجه : « هل أنتم على مايرام؟»

« على ما يرام ؟! « .. صاح توم .. « بالطبع لسنا على مايرام « واندفع ناحية فتحة الباب، حيث كان ريلاند جاثيا على يديه وركبتيه ليتمكن من رؤيتيهما عبرها، ومن خلفه بدا حذاء أحد رجاله الذي كان واقفا ورائه .

« لماذا فعلت ذلك بنا؟ ولأي غرض؟ ... نحن لم نسبب لك أي أذى؟»

بدا الحرج على وجه ريلاند، ثم قال: « نعم . هذا صحيح أيها الفتى، لكن الأحوال صعبة كما ترى . إنها أيام قاسية تلك التي نمر

بها حاليا. إنه لأمر ممل أن تقود بلدة تتحرك باستمرار هائمة على وجهها؛ وقد صار لزاما علينا أن ننتهز كل فرصة تتبدى أمامنا، لذا أخذناكما كي نبيعكما كعبيد. هذا هو الأمر، سوف نقوم ببيعكما لواحدة من البلدات التي تقتني العبيد، هناك في التجمع التجاري، حتى نتمكن من الحصول على بعض الأجزاء التي نحتاجها كي نستطيع استئناف المسير بعيدا عن البلدات الأكثر جوعا «.

« تبيعوننا؟!!» ، كان توم قد سمع من قبل عن تلك المدن التي تستخدم العبيد في العمل بغرف محركاتها، إلا أن ذلك كان يبدو له أمرا شديد الغرابة وبعيدا كل البعد عنه.

« عليَّ أن ألحق بلندن. لايمكنك أن تبيعني! «

« أنا متأكد أنك سوف تجلب سعرا جيدا « قالها ريلاند وكأن ذلك أمرا جيدا يتعين على توم أن يشعر بالسعادة بصدده!

« إنك فتى وسيم صحيح البدن . وسوف أعمل على أن تباع لمالك جيد . أما بالنسبة لصديقتك، فلا أدري كيف سأبيعها ! فهي تبدو نصف ميتة وليس لديها أي مقومات من أي نوع ؛ ربما أتمكن من بيعكما كصفقة واحدة معا . شئ من قبيل : اشتر واحدا واحصل على الآخر مجانا!»

ثم دفع إليهما بصحنين عبر الفتحة، صحنين معدنيين مستديرين يشبهان صحون إطعام الكلاب، أحدهما يحتوي على الماء والآخر به مزيد من تلك الطحالب الزرقاء . « كلوا»، قالها ريلاند في مرح، « نريدكما أن تبدوا في حال جيدة حينما نعرضكما في السوق؛ سوف نصل إلى التجمع مع مغيب الشمس، على أن نبيعكما في

الصباح».

« ولكن ...» صاح توم في احتجاج

« نعم، أعلم، وإني آسف حقا . لكن، ماذا بيدي أن أفعل؟! الظروف قاسية كما تعلم».

ثم قام ريلاند وأغلق الفتحة دون كلمة إضافية .

« وماذا عن القرص الممغنط الذي أعطيتك إياه؟» صاح توم، لكنه لم يتلق إجابة، فقط سمع صوت ريلاند يتحدث إلى حرسه، ثم لاشئ.

ارتشف توم بعض الماء من الصحن، ثم أخذه نحو هيستير قائلا: « علينا أن نذهب من هنا».

« كيف؟»

نظر توم حوله ماسحا الزنزانة الخشبية ببصره . لم يكن من المتاح الخروج عبر الباب بالطبع، فقد كان مغلقا، وأمامه يقف الحرس .

ثم نظر لأعلى نحو الأنابيب متتبعا مساراتها، لكنها أيضا غير ذات جدوى، فبالرغم من أن البعض منها كبير بما يكفي بحيث يمكن للفرد الزحف داخلها، إلا أنه ما من وسيلة لبلوغها فضلا عن الدخول إليها.

ثم بدأ يحول انتباهه نحو الجدران الخشبية، متحسسا إياها، وقد شعر أنها ربما هي وسيلة نجاتهما . وأخيرا وجد أحد الألواح

وكأنه هش قليلا، فبدأ توم يعالجه تدريجيا بأظافره، محاولا إحداث فجوة به.

كان عملا شاقا ومؤلما، شديد البطء، حيث كان يضطر للتوقف كلما شعر بوجود أحدهم عند الممر بالقرب من سجنهما، ثم يعاود العمل من جديد مع ابتعاده.

ظل توم ينحت الخشب بأظافره حتى اهترأت أصابعه وامتلأت بشظايا الخشب .

في تلك الأثناء كانت هيستير جالسة تراقبه في صمت، حتى بدأ يشعر بالاستياء منها لعدم مساعدته.

ومع حلول المساء، حيث أصبحت السماء مائلة للاحمرار، وخفت سرعة البلدة قليلا، كان توم قد تمكن من إحداث فرجة كافية ليطل برأسه منها .

انتظر توم حتى تيقن من أنه ما من أحدفي الجوار، ثم انحنى لينظر خارجا . كانت البلدة خينها تمر عبر ظلال جبال صخرية شاهقة، وفي الأمام ظهر ما بدا وكأنه حلبة طبيعية بين الجبال، وكانت تلك الحلبة مليئة بالبلدات .

لم يكن توم قد رأى أية تجمعات مماثلة من قبل لبلدات متحركة، تحتشد جميعا في مكان واحد.

« لقد وصلنا... إنه التجمع التجاري» .

وكانت سبيدويل تبطئ من سرعتها تدريجيا، متخذة طريقها بين قرية شراعية بحرية وبلدة تجارية أكبر .

كان توم في موقع يسمح له برؤية سكان تلك البلدات الأخرى وهم يحيون سبيدويل ويسألون أهلها من أين أتت وعمالديها لتبيعه.

وسمع زوجة ريلاند تجيبهم : « بعض الركام المعدني والأخشاب وقرص ممغنط واثنان من العبيد « .

« ياكويرك» دمدم توم، وبدأ يعمل على توسيع الفجوة التي صنعها .

« تلك الفتحة لن تكون كافية « قالتها هيستير التي تتوقع الأسوأ، والتي دائما ماتكون على صواب .

« كان يتعين عليك أن تساعديني بدلا من الجلوس هكذا» أجابها توم، لكنه ما إن أنهى جملته حتى ندم على ماقال، فهي مريضة جدا، وبدأ يتساءل حول ماقد يحدث لو لم تمكنها حالتها الصحية شديدة الوهن من الهرب؟! . هو لايمكنه الهرب وحده وتركها هاهنا، ولكن في نفس الوقت إن بقي معها فقد تنتهي به الحال كعبد في إحدى تلك البلدات الصغيرة المقرفة .

حاول ألا يفكر في الأمر، وركز كل انتباهه على توسيع الفتحة، حيث كان الظلام قد أعلن سيطرته على الكون، وارتفع القمر عاليا في السماء .

ومن بعيد، كانت أصوات الموسيقى والصخب الدائر في التجمع تتناهى إلى مسامعه في الزنزانة، ومن وقت لآخر كان يسمع أصوات الخطوات فوق الممرات الخشبية، حيث خرج أهل البلدة

بحثا عن المرح في البلدات الأخرى .

ظل توم يحك الفتحة بأظفاره جاهدا لتوسيعها، حاول بكل الطرق، لكن دون جدوى.

وفي النهاية نظر إلى هيستير يائسا : « رجاءً . ساعديني»، فقامت الفتاة مترنحة، وتحاملت على نفسها حتى بلغت موضعه، كانت تبدو مريضة، لكن ليس للدرجة التي كان توم يخشاها؛ ربما كانت تدخر ماتبقى من قوتها إلى أن تحين ساعة الفرار.

بدأت هيستير تتحسس حواف الفتحة التي صنعها توم، ثم أومأت، ومالت بكل ثقلها فوق كتف توم، وطوحت ساقها السليمة إلى الوراء ،ثم وجهت ركلة قوية إلى اللوح الخشبي حول الفتحة ؛ ركلة تلو أخرى حتى بدأ الخشب في التشقق تدريجيا، ومع الركلة الثالثة إنكسر جزء كبير من اللوح وسقط إلى الخارج فوق الممر الخشبي.

«كان بإمكاني فعل ذلك» قالها توم وهو يتسائل في سره لماذا لم تخطر له تلك الفكرة!

«لكنك لم تفعل» قالتها هيستير محاولة الإبتسام . كانت تلك هي المرة الأولى التي يراها فيها تبتسم، صحيح انها ابتسامة قبيحة مشوهة، لكنها أيضا ابتسامة ودودة مرحة، حتى أنه شعر بأنها قد بدأت تتقبله، وكفت عن أن تراه مجرد شخص مزعج .

« هيا بنا إذن» قالتها هيستير وهي تتجه نحو الفتحة .

***

عبر مئات الأميال من الأرض الموحلة، رصد جريك أخيرا شئ ما، فأشار للملاحين بالهبوط عند نقطة معينة، فأطاعوه وبدأوا في الإنخفاض بالمنطاد وهم يتساءلون سرا : ماذا الآن؟ إلى أي مدى سنظل محلقين نجوب الفضاء جيئة وذهابا على امتداد ميار المدينة، ومتى سوف يقر بأن الفتى والفتاة قد ماتا؟!.... لقد كانوا يخشون جريك كثيرا .

انفتح المنطاد وخرج جريك إلى العراء، حيث كانت عيناه الخضراوان تمسحان كل شئ حوله، من جانب إلى آخر، حتى استطاع إيجاد ضالته ...قطعة نسيج من قميص ممزق، ملقاة هناك، نصف مدفونة في الأوحال.

« هيستير شاو كانت هنا» قالها للا أحد، ثم بدأ يتشمم الهواء متعقبا رائحتها .

9 جيني هانيفر

بدا الأمر في البداية وكأن الحظ قد صار حليفهما، حيث اندفع توم وهيستر سريعا عبر الممر باهت الإضاءة، ثم إلى الأسفل تحت زلال إحدى عجلات سبيدويل. ومن مكمنهما في الظل، كان بإمكانهما رؤية الحدود الخارجية المظلمة للبلدات والأضواء الخافتة المنبعثة من نوافذها، والمشعل الكبير المضئ فوق سطح إحداها.

ومن الجانب البعيد من التجمع كانت أصوات احتفالات صاخبة تنبعث آتية إليهما من إحدى بلدات التعدين. وبعد لحظات بدءا يزحفان في صمت على أطراف سبيدويل، باتجاه بلدة تجارية تقف بالقرب منها، وكانت الأضواء تنبعث منها دون وجود أي اثر لحراسة.

وما إن خطا الاثنان إلى سطح البلدة التجارية حتى سمعا من خلفهما صوتا يصيح : « هاي... العبدان يهربان أيها العم ريلاند! »، فهرعا - أو بالأحرى هرع توم ساحبا هيستير إلى جانبه وهي تئن من الألم - سريعا إلى حيث الدرج، وبأنفاس متلاحقة عبرا إحدى الممرات، ثم ضريح بيريباتيتيا، إلهة البلدات المتحركة، حتى وجدا نفسيهما في الساحة التجارية للبلدة، محاطين بأقفاص معدنية بداخلها يقبع مجموعة من العبيد البائسين، ينتظرون عرضهم للبيع. أبطأ توم سرعته متواريا وهيستير في الظلام، محاولا أن يظلا بعيدا عن الأعين، والإنصات لصوت الخطوات لتحديد ما إذا كان أحد يطاردهما، إلا أنه لم يسمع أي خطوات، ربما يئست عشيرة ريلاند من إيجادهما فكفوا عن ملاحقتهما، أو

ربما من غير المسموح لبلدة أن تطارد الفارين منها في بلدة أخرى، لم يكن توم يدرك أي شئ عن القواعد المطبقة في التجمع.

« فلنتجه نحو مقدمة المدينة « قالتها هيستير وهي تحرر ذراعه التي كانت متكئة عليها، وترفع ياقة معطفها لتداري وجهها،» لو حالفنا الحظ فسوف نجد إحدى المناطيد عند المقدمة «

وبالفعل كان الحظ حليفهما

فعند مقدمة البلدة اصطفت مجموعة من المناطيد الصغيرة، ببالوناتها المملوءة بالغاز، حتى بدت هيئتها وكأنها مجموعة من الحيتان النائمة.

« هل سنسرق واحد منها؟ « همس توم متسائلا.

« بالطبع لا، إلا لو كنت تجيد قيادة المنطاد. هناك مقهى للملاحين هناك أمامنا، سوف نذهب إليه، ونحاول حجز إحدى الرحلات كأي زبون آخر .»

كان المقهى عبارة عن زورق قديم صدئ، مثبت إلى سطح البلدة، وعليه بعض من الطاولات المعدنية، تتناثر تحت مظلة مقلمة، وتضيئه مصابيح متوهجة، وعلى إحدى الكراسي كان ملاحا جويا عجوزا يغط في نوم عميق.

وفي الداخل، بالقرب من البار، جلست امرأة ترتدي معطفا طويلا أحمر اللون، ونظارات شمسية! بالرغم من أن الضوء كان شحيحا بالداخل.

اقترب توم من البار، فالتفتت نحوه المرأة تتأمله، في حين وقف

رجل نحيل ذو شارب ضخم متدل على شفته العليا، يمسح الزجاج، فبادره توم بالحديث : « إنني أبحث عن منطاد ليقلني» .

نظر إليه الرجل دون اكتراث :» إلى أين؟»

« لندن.. أحتاج وصديقتي إلى العودة إلى لندن الليلة» .

« لندن ؟» قالها الرجل وشارباه يهتزان كذيلي سنجابين، « لايمكن لأي مركبة جوية أن تحط هناك دونما تصريح «.

« ربما أستطيع المساعدة؟»

التفت توم إلى حيث الصوت الأنثوي الرقيق ذي اللكنة الأجنبية، فوجدها المرأة ذات المعطف الأحمر، وقد اقتربت منه. امرأة نحيلة وجميلة هي، ذات شعر أسود قصير تتخلله خصلات بيضاء، وكانت المصابيح تنعكس أضواؤها متراقصة على زجاج نظارتها الشمسية، وحينما ابتسمت لاحظ توم أسنانها المصطبغة باللون الأحمر.

« لا أملك رخصة للهبوط في لندن، لكنني ذاهبة إلى (إيرهيفن)، ومن هناك يمكنك أن تجد منطادا آخر يوصلك إلى لندن. هل لديك بعض المال؟»

لم يفكر توم فيما سوف تتكلفه الرحلة من أموال! فأخذ ينقب في جيب ردائه بحثا عن أي مال ربما يكون بحوزته، حتى وجد ورقتين ماليتين مهترئتين، يكلل وجه كويرك من وجهها الأمامي، ووجه ماجنوس كروم من الوجه الخلفي؛ لقد أخذ معه تلك الأموال في ذلك اليوم، ليلة سقوطه إلى العراء، على أمل أن

ينفقهم في الاحتفال الذي أقيم لنجاح المطاردة.

أما هنا، في ذلك المكان، فقد بدت أموال لندن كأوراق لعب ليس إلا، وهو نفس ماتبادر إلى ذهن المرأة حين شاهدت الأوراق المالية في يديه : « أه. عشرون كويرك. لكن تلك العملة لايمكن إنفاقها إلا في لندن، وليس لها قيمة كبرى لامرأة تجوب السماء مثلي. ألا يوجد في حوزتك أي عملات ذهبية أو أدوات تقنية عتيقة؟»

هز توم كتفيه وتمتم بكلمات لم تتمكن المرأة من تمييزها؛ ثم لمح، بطرف عينه، هؤلاء القادمين إلى داخل المقهى عبر الطاولات، وسمع أحدهم يقول : « انظر أيها العم ريلاند. هاهم هناك، لقد وجدناهم «.

التفت توم ناحيتهم فوجد ريلاند واثنين من رجاله يقتربون منه حاملين هراوات ثقيلة، فقام من فوره بسحب هيستير - التي كانت تتكئ على المنضدة أمامهما وهي بالكاد تعي مايدور حولها - إلا أن أحد رجال سبيدويل قطع عليهما طريق الهرب، فاعترضته المرأة ذات المعطف الأحمر بدورها وصاحت قائلة : « هذان عميلاي وسيسافران معي، وكنت أتفق معهم على ثمن الرحلة. «

فأجابها ريلاند صائحا: « لا. إنهم عبيدنا. توم نيتسورثي وصديقته من عبيدنا. لقد وجدناهما في العراء وبالتالي قد صارا من حقنا «

انتهز توم الفرصة وجر هيستير مرة ثانية على سطح المدينة المعدني متجها نحو الدرج الصاعد إلى حيث مرفأ المناطيد،

وسمع ريلاند وهو يصرخ في رجاله آمرا إياهم بالبحث عنهما، ثم صوت جلبة شديدة بدا منها وكن أحد رجاله قد تعثر فسقط أرضا : هذا أمر جيد. لكنه أدرك أن باقي رجال ريلاند سرعان ما سوف يجدونه.

صعد بهيستير السلم المعدني إلى المرفأ، حيث كانت بعض المناطيد مضيئة، وقد بدرت إلى ذهنه فكرة مبهمة حول كيفية اعتلاء إحداها وإجبار قائدها على أخذهم إلى لندن. لكنه لم يكن يملك أي شئ يمكن استخدامه كسلاح؛ وقبل أن يبحث عن أي شئ يصلح لهذا الغرض، سمع أصوات خطوات تصعد السلم خلفهما، وصوت ريلاند يقول : « رجاءً سيد نيتسورثي. حاول أن تتعقل، أنا لا أريد إيذاءك « ثم أضاف : « فريد. لقد استطعت أن أحاصر هذين الحقيرين « .

شعر توم بالأمل يغادره، فلا مكان للهرب ولامفر. فوقف مكانه في خنوع ويأس، في حين يتقدم ريلاند إلى الأمام حاملا هراوته، أما هيستير فقد سقطت أرضا وهي تئن بالقرب من الرافعة الكائنة في المرفأ.

« ذلك هو الإنصاف!» قالها ريلاند وقد بدا أنه يظن أن هيستير إنما تئن احتجاجا على ذلك الوضع : « أنا أيضا لا أحب الاستعباد. لكن الظروف صعبة، وقد أمسكنا بكما في العراء، ولا أحد يستطيع إنكار ذلك..»

وفجأة، وبأسرع مما كان لتوم أن يتخيل، تحركت هيستير، فسحبت أداة معدنية من الرافعة بجانبها، وطوحتها صوب ريلاند، فأصابته بنجاح في جانب رأسه، وسقطت هراوته من يده

فوق السطح المعدني محدثة جلبة.

« آاااه ! « صرخ الرجل وسقط أرضا، فاندفعت هيستير نحوه ورفعت الآلة المعدنية عاليا، إلا أن توم كان قد لحق بها فأمسك بذراعها قبل أن تهوي بها فوق جمجمة الرجل.

« توقفي. سوف تقتلينه « .

« إذن؟ «. ... التفتت نحوه سريعا في غضب وقد بدت أسنانها كقرد مجنون : « ماذا إذن؟ «

« إنه محق ياعزيزتي « قالها صوت هادئ : « فما من داع لإنهاء حياته» .

ومن بين الظلال ظهرت المرأة ذات المعطف الأحمر : « أظن أن علينا اعتلاء متن منطادي قبل أن يأتي رجاله « .

« لكنك قلت أننا لانملك مالا كافيًا كافيًا» .

« أنتما بالفعل لا تملكان مالا ياسيد نيتسورثي، ولكني لايمكنني أن أقف بلا حراك هكذا، وأشاهدكما تختطفان وتبيعان كعبيد. لقد كنت أنا أيضا من العبيد في يوم ما، ولا أحب أن أرى غيري في هذا الوضع « ثم خلعت نظارتها الشمسية كاشفة عن عينين سوداوين لوزيتين، وابتسمت قائلة : « ثم إنك قد أثرت فضولي ! ماالذي يجعل شاب لندني يهيم على وجهه في ساحة الصيد ويجلب لنفسه المشاكل؟»

قالتها وهي تمد يدها نحو توم.

« ولكن، ماالذي يجعلنا نثق بك؟ مايدرينا أنك لن تخدعيننا أنت الأخرى كما فعل ريلاند؟»

« لن تعرف بالطبع! فقط أنت مضطر للوثوق فيَّ» .

بعد كل ما رآه من فالانتاين وريلاند، كان من العسير على توم أن يثق بأي أحد على الإطلاق، إلا أن تلك المرأة الأجنبية كانت هي الأمل الأخير لهما.

« حسنا. لكن فقط أود أن أوضح أن ريلاند كان ينطق اسمي بطريقة خاطئة، اسمي ناتسورثي» .

« وأنا فانج. اسمي آنا فانج » كانت لاتزال تمد يدها إلى توم مبتسمة : « منطادي في المرفأ الجوي السادس» .

انطلق الثلاثة من فورهم إلى حيث المنطاد، حيث مروا في طريقهم على رجال ريلاند، حيث كانوا فاقدي الوعي تماما بجانب أحد الأعمدة. .. « هل هم.. ؟ « همس توم.

« فقدوا الوعي. ... «، قالت فانج، « أخشى أنني لا أدرك مقدار قوتي الحقيقية !»

أراد توم التمهل لتفقدهم والتأكد من أنهم على مايرام، إلا أن فانج سحبته سريعا إلى حيث الدرج المؤدي للمرفأ السادس.

وهناك، كان منطادها واقفا ينتظر. لم تكن شديدة الفخامة كما تخيل توم، في الواقع كانت عبارة عن بالون غاز رث ومحرك صدئ، مثبتين إلى زورق خشبي صغير.

« إنه مصنوع من الخردة !»، دمدم توم، إلا أن فانج قد سمعته، فردت ضاحكة : « خردة؟!. .. لماذا؟ لقد صنع ال (جيني هانيفر) من أفضل مكونات المناطيد على الإطلاق، فغلافها الغازي مصنوع من السيليكون الحريري من إحدى السفن الشراعية لشان جو، ومحركها مأخوذ من طائرة حربية فرنسية، أما مضخات الغاز فمنتزعة من منطاد حربي من حرب السبيتزبيرجين.. .. إنها مذهلة. «

ثم تقدمتهم عبر الممر إلى حيث زورق المنطاد، والذي كان عبارة عن مساحة خشبية ضيقة أشبه بالأنبوب، تفوح منه رائحة التوابل والبهارات، وفي مقدمته يقع مركز القيادة، وفي مؤخرته مقر فانج، وبينهما قمرتان صغيرتان.

وكان على توم أن يظل خافضًا رأسه كي يتجنب ارتطام جمجمته بصناديق المحركات أو بالكابلات المتدلية فوق رأسه، والتي تبدو شديدة الخطورة، في حين كانت الملاحة الجوية فانج تتحرك بسرعة في كل اتجاه، وتتمتم بلغة أجنبية، وتسحب الرافعات؛ وفي قمرة القيادة انبعث ضوء أخضر من بعض الآلات الكهربائية.

كان القلق باديًا عل وجه توم وهو ينظر إلى فانج وهي تحدث نفسها، وقد أدركت فانج مايعتمل في رأسه، فقالت ضاحكة : « إنها الإسبرانتو الجوية، لغة الطيران الدولية. ولاعجب من أن تجدني أحدث نفسي هكذا، فمن يحيا وحيدا في السماء يصبح حديثه إلى نفسه عادة «.

ثم قامت بسحب آخر الروافع فبدأ صوت تدفق الغاز إلى البالون، ورنين مكابح الإقلاع التي تم حلها يتردد صداه في الزورق، ومن

الراديو انبعث صوت آلي يعلن أن : « جيني هانيفر. هنا ميناء ستاينز. أنت غير مسموح لك بالمغادرة «

لكن المنطاد كان يرتفع مغادرا على أية حال. شعر توم بالغثيان وتقلب معدته لحظة إقلاع المنطاد إلى حيث سماء منتصف الليل المدلهمة السواد، ومن فتحة القمرة نظر توم إلى الأسفل حيث رأى البلدة تغوص إلى الأسفل مع ارتفاعهم لعنان السماء، ثم ظهرت سبيدويل بجانبها، ثم التجمع التجاري بأكمله، وقد بدا الارتفاع كواحد من تلك النماذج المصغرة للبلدات والمعروضة في المتحف.

« جيني هانيفر» انطلق الصوت من المذياع مرة ثانية، « عد إلى المرفأ حالا. لدينا طلب رسمي من مجلس بلدة سبيدويل بضرورة قيامكم بتسليم ركابكم وإلا سيتم إجباركم على... «.

« ممل!» قالتها فانج وهي تطفئ المذياع.

ومن مدفعية الإطلاق المصنوعة يدويا والمثبت على سطح بلدية سبيدويل، انطلقت دفعة من الصواريخ نحو المنطاد، فأخطأته ثلاثة منها، وانفجر الرابع بالقرب من جانبه الأيمن مؤرجحًا إياه كالبندول، أما الخامس فقد كاد أن يصيبه، فرفعت فانج حاجبها في حين انكمش توم وهيستير كالأرانب المذعورة، إلا أن المنطاد كان قد انطلق بعيدا عن مدى الصواريخ، وحلق جيني هانيفر عاليًا في الفضاء البارد المظلم، ومن ذلك الارتفاع بدا التجمع التجاري كبقع ضوئية تتبدى خلف السحاب.

***

10 مصعد الطابق الثالث عشر

كانت ليلة ممطرة على لندن، ولكن مع بزوخ الخيوط الأولى للضوء من صباح اليوم التالي، بدت السماء صافية، ومن مجاخن المدينة انبعث الدخان مباشرة نحو الأعلى في فضاء دون رياح. في حين كانت الأسطح المعدنية للمدينة تلتمع كالفضة في ضوء الشمس، وفوق أعمدة الطبقة الأولى ارتفعت رايات المدينة هادئة، ساكنة لاتحركها نسمة هواء واحدة. لقد كان صباحا ربيعيا هادئا يتمناه فالانتاين وتخشاه كاثرين، إنه اليوم الأمثل للطيران وبدء الرحلة المنتظرة.

وبالرغم من أنها كانت ساعة مبكرة جدا من الصباح، إلا أن الحشود قد تجمعت على أطراف الطبقة الأولى لمشاهدة لحظة تحليق (مصعد الطابق الثالث عشر).

أقل جينيش كاثرين ووالدها إلى حيث مرفأ الطيران، وفي طريقهم رأت كاثرين الجماهير المحتشدة في ميدان سيركل، حتى بدا الأمر وكأن الطبقة العليا من لندن قد جاءت بأكملها لتحية والدها، الذي لم يكن أحد يعلم وجهته؛ ولكن، مع التحرك المستمر للندن ناحية الشرق، بدأت طاحونة الشائعات في الدوران آناء الليل وأطراف النهار، وصار الجميع على يقين بأن رحلة فالانتاين إنما تتعلق بصيد ثمين يأمل العمدة في اقتناصه في منتصف ساحة الصيد.

نصبت المدرجات المؤقتة لأعضاء مجلس المدينة والعصبات، فقامت كاثرين بتوديع والدها عند مرفأ الإقلاع، ثم ذهبت لتتخذ

مكانها مع أعضاء عصبة المؤرخين بين شادليغ بوميروي ودكتور أركينجارز.

كان عظماء لندن وصفوتها حولها من كل جانب، أتوا جميعا لتحية أبيها؛ كبار عصبة المؤرخين التي ينتمي إليها والدها، في أرديتهم السوداء الأنيقة. .. صفوة عصبة التجار بزيهم الأرجواني. .. عصبة الملاحين الجويين بحلتهم الخضراء المميزة. .. وبالطبع، رؤساء عصبة المهندسين الذين اصطفوا بمعاطفهم البيضاء المطاطية.

حتى العمدة ماجنوس كروم قد جاء لحضور الحدث، وعلى صدره تدلت القلادة التقليدية للعمودية، لامعة متألقة.

لكم تمنت كاثرين لو لزم كل هؤلاء منازلهم، إذ كيف يمكن للمرء أن يودع أحباءه وكل هؤلاء القوم محتشدون من حوله، يلوحون بالرايات ويرسلون القبلات والتحيات.

ربتت كاثرين على رأس (كلب) وشرعت تصف له المشهد : « انظر. إنه أبي. يسير عبر الممشى نحو منطاده. إنهم على وشك تشغيل المحركات».

وبجانبها وقف دكتور أركينجارز يتابع الحدث، ثم تمتم : « فقط أتمنى ألا يقع خطأ ما. فالمرء يسمع الكثير من القصص عن تلك المناطيد التي تنفجر فجأة دونما سبب واضح».

فردت الآنسة بليم، أمين متحف الأثاث، نقد انتابها القلق : « ربما علينا أن نتراجع قليلا للوراء كيلا يصيبنا شئ؟»

« هراء »، قاطعتهما كاثرين - صانعة بإصبعيها علامة جلب الحظ ودرء الشرور، بتقاطعهما - « كل شئ سيكون على مايرام».

« بالتأكيد. ولتصمت ياأركينجارز. فقد صرت عجوزا سخيفا»، قالها بوميروي، « لايوجد مايقلق ياآنسة فالانتاين؛ فوالدك يملك أفضل مركبة جوية وأفضل طاقم ملاحة في العالم. كل شئ سيسير على ما يرام « .

ابتسمت له كاثرين ممتنة، إلا أنها أبقت على إصبعيها متقاطعين كما هما، وقد شعر (كلب) بما يعتمل في قرارتها، فبدأ يئن.

ومن داخل محطة الإقلاع، انبعثت ضوضاء الاستعدادات النهائية، من أصوات إغلاق بوابات المنطاد، وقعقعة سحب سلم منصة الانطلاق، و...

وفي الخارج احتبست الأنفاس داخل صدور اللندنيين الواقفين في شغف وحماسة على أطراف الطبقة الأولى ينتظرون لحظة البدء.

مع بدء عزف النشيد الوطني، ظهر أفراد الطاقم الأرضي وهم يسحبون المنطاد الهائل (مصعد الطابق الثالث عشر) إلى حيث منصة الإطلاق المفتوحة، وتبدى المنطاد الأنيق، بغلافه الأسود اللامع كالحرير، وفي قمرة القيادة بزورق المنطاد، كان فالانتاين يقف ملوحا بيديه، فقام بتحية الطاقم الأرضي والجماهير المحتشدة في المدرجات، ثم نظر لابنته، التي ميز وجهها بين الجمع الغفير فورا، وابتسم لها في حب، فلوحت له بيديها في حماسة. ومع بدء دوران محركات المنطاد قام الطاقم الأرضي

بحـل قـيوده، وبـدأت المـراوح تـدور في سرعة، وارتفعت الآلة العملاقة في الهواء، معلنة بدء الرحلة المجهولة.

ومع ارتفاع المنطـاد، قـامت جماعـة مـن المتـدربين بـرفع لافتـة مكتوب عليها : (يوم فالانتاين سعيد)، ومع ارتقاء المنطاد أكثر، كانت الهتافات الحماسية المحمومة تعلو أكثر فأكثر. ..

وفي وسط كل ذلك الزخم، ومن بين الزحام والهتافات والرايات، لم يكن فالانتاين لير سوى وجـه واحـد فقط، إنصبت عليـه كل حواسه: وجه ابنته كاثرين، التي ظل يرقبها ويلوح لها، حتى حلق المنطاد بعيدا وحالت المسافة الشاهقة دون رؤية أي منهما للآخر.

***

11 إير هيفن

بمجـرد أن تمكـن مـن الاغتسـال، وبعـد نيـل قسـط مـن الراحـة والطعام، بدأ توم ينظر إلى تلك المغامرة العجيبة التي يمر بها، من منظور آخر، فبرغم كل شئ، لم يكن الأمر على هذا القدر من السوء الذي كان يراه عليه من قبل.

ومع شروق شمس اليوم التالي، بدا وكأنه قد بدأ ينسى وضعه المزري حين كان يشق طريقه بين الأوحال، وتعرضه للسجن في سبيدويل. لقد كان مشهد التحليق بين الجبال الذهبية في ضوء الفجر كفيلا بأن يجعله ينسى آلامه إلى حد بعيد، حتى أن غدر فالانتاين به قد بدا كذكرى باهتة بعيدة.

وحينما حان موعد الإفطار، وجد نفسه مستمتعا بلحظاته أيما استمتاع، وهو يحتسي مشروب الشيكولاتة الساخن مع فانج على ظهر الزورق المحلق.

أما فانج نفسها فقد بدت أكثر لطفا ومرحا بمجرد ابتعاد المنطاد عن مرمى صواريخ سبيدويل، حيث بحثت لتوم عن معطف من الصوف ضمن حاجياتها، ورتبت له سريرا في مخزن المنطاد، ثم أخذت هيستير إلى قمرة الإسعافات الطبية، وبدأت في تطبيب ساقها المصابة.

وفـي الصـباح، قـام تـوم لـيلقي نظـرة اطمئنان علـى هيسـتير، فوجدها نائمة بعمق، ملتحفة بغطاء أبيض. فطمأنته فانج : « لقد أعطيتها مسكنا للألم. ... سوف تنام لساعات، فلا تخشَ عليها. سوف تكون بخير » ثم قالت وهي تقوده إلى سطح المركبة : «

لقد أذاها كثيرا ذلك الشرير فالانتاين «.

« كيف عرفت بشأن فالانتاين؟! « سألها توم متعجبا، فضحكت قائلة : « أه. الجميع سمع عن ثاديوس فالانتاين. ... أعلم أنه أعظم مؤرخي لندن، كما أعلم أيضا أن ذلك ليس سوى غطاء لعمله الحقيقي كعميل سري لكروم. «

« هذا ليس صحيحا «، قالها توم، وقد بدا أنه مازال يدافع بإصرار عن بطله السابق... لكن الشائعات كانت تتردد دوما أن لبعثات فالانتاين جانبًا آخر، مظلمًا، يتجاوز الأبحاث العلمية والاستكشافات الأثرية المجردة، وهاهو الآن قد رأى بنفسه جانبا من قسوة الرجل العظيم !، وقد بدأ يصدق ماكان يقال، وشعر بالخجل لفالانتاين ولنفسه لأنه في يوم ما قد أحب هذا الرجل واعتبره بطلا ومثلا أعلى.

كانت فانج تنظر إليه مبتسمة في تعاطف : « لقد أخبرتني هيستير بالكثير ليلة أمس أثناء معالجتي لإصابتها. ... الحق أنكما محظوظان جدا لكونكما لازلتما على قيد الحياة «

« أعلم « أجاب مؤيدا، لكنه لم يستطع مقاومة شعوره بالانزعاج إزاء إفصاح هيستير عن قصتهما لشخص غريب.

ثم جلس توم بجانب فانج في مقعد مساعد الملاح متفحصا آلات التحكم : صفوف من الأزرار والمقابض والرافعات والمحولات، جميعها معنونة بمزيج من لغة الملاحة الدولية واللغات الإنجليكانية والصينية.

وفوقهم وضع محراب صغير مزين بالشرائط الحمراء، وصور

لأسلاف فانج حيث خمن توم أن بعض من تلك الصور هي لوالديها.

« أخبرني ياتوم. إلى أين تتجه لندن ؟»

كان السؤال مباغتا له : « لا أدري» .

« أه ! لابد أنك تعرف شيئا ما... لقد غادرت مدينتك مخبئها في الغرب وعادت عبر الجسر الأرضي حيث تتجه الآن نحو ساحة الصيد المركزية؛ لابد وأنك على الأقل قد سمعت بعض الشائعات عن الأمر؟»، قالتها والتفتت تنظر إلى توم الذي كان يلعق شفتيه في عصبية متسائلا في سره عما يمكن أن يقوله لها، فهو لم يكن يلقي بالا على الإطلاق لتلك القصص والشائعات السخيفة التي كان يتناقلها باقي المتدربين حول وجهة لندن. إنه لايملك أدنى فكرة بالفعل عن الأمر.

وحتى وإن كان يعرف شيئا، فقد كان يدرك أنه من الخطأ أن يبوح بمخططات مدينته لملاح أجنبي غامض؛ فماذا لو أن فانج انطلقت لإحدى المدن الأكبر وأخبرتهم - مقابل حفنة من الأموال - عن المكان الذي يمكن لهم أن يجدوا لندن فيه فيقوموا باقتناصها ؟

لكنه في نفس الوقت كان يخشى أنه إن لم يمنحها أي معلومة، فقد تقوم بإلقائه من منطادها حتى دون أن تهبط إلى الأرض !، لذا لم يجد توم أمامه سوى أن يلقي إليها بهذا الدافع : « الصيد. تقول عصبة الملاحين أن هناك الكثير والكثير من الفرائس في تلك الناحية «.

« حقا؟» قالتها فانج وقد اتسعت ابتسامتها كاشفة عن مزيد من البقع الحمراء على أسنانها.

« لقد سمعت ذلك من رئيس الملاحين ذاته « .

فأومأت فانج وهي لاتزال باسمة، ثم جذبت رافعة نحاسية طويلة، فهدرت صمامات الغاز داخل غلاف المنطاد، وبدأ جيني هانيفر في الهبوط غارقا في سحابة بيضاء كثيفة.

« دعني أريك إذن ساحة الصيد المركزية «، قالتها وهي تتفحص الخرائط المثبتة على الحاجز أمامها.

هبط المنطاد أكثر فأكثر، ورأى توم الأرض الجرداء تمتد شاسعة تحته، كورقة بنية رمادية مجعدة، وعليها تناثرت أشكال زرقاء، هي عبارة عن الآثار التي تركتها مدن لاحصر لها عبر مسارها. ولأول مرة منذ أن غادروا ستاينز، شعر توم بالخوف يتملكه، وقد أدركت فانج ما يعتمل في رأسه من مخاوف، فدمدمت : « لا تخف توم «، فطمأن نفسه قليلا وأخذ ينظر إلى المشهد المذهل من حوله.

وعلى مسافة بعيدة نحو الشمال، كان في مقدوره أن يرى تألق الثلوج في آيس ويستس، والقمم المظلمة لجبال تانهاوسر النارية. ثم بحث عن لندن، حتى رآها أخيرا، عبارة عن بقعة رمادية متحركة للأمام، مخلفة ورائها سحابة من الأتربة والغبار؛ لقد كانت أبعد بكثير مما كان يتمنى.

وعلى الامتداد الشاسع أمامه، رأى العديد من المدن والبلدات، تتناثر هنا وهناك، أو تقبع متوارية في ظلال سلاسل الجبال

النصف متآكلة، لكنها لم تكن قريبة كما كان يتوقع.

أما ناحية الجنوب الشرقي، فلم يكن ثمة شئ على الإطلاق، فقط طبقة داكنة من الضباب

فوق أرض من المستنقعات، ووراء ذلك مساحة من الماء المتلألئ الفضي.

« إنه بحر خازاك الداخلي الأعظم. ... لابد أنك قد سمعت بالقصة « ثم بصوت متمايل رنان بدأت فانج في الغناء : « احذر. احذر من بحر خازاك، حيث المدينة التي منه تقترب، لا تعود أبدا من هناك. ... «

إلا أن توم لم يكن يصغي على الإطلاق، حيث لاحظ شيئًا آخر أكثر هولا من أي بحر داخلي. ... ففي الأسفل، تحت المنطاد مباشرة، كانت إحدى المدن ترقد ميتة، وعليها تناثرت ندوب من آثار مئات من البلدات الصغيرة والأصغر، وحينما اقترب المنطاد أكثر لتفحصها، أدرك توم أن أحشائها قد اختفت، كما تم تجريدها من ألواحها المعدنية بواسطة سرب من البلدات الصغيرة التي كانت تموج في ظلال طبقاتها السفلى، منهمكة في تقطيع أجزاء كبيرة منها.

صدرت نفخة دخان من إحدى تلك البلدات، ثم انطلق صاروخ نحو المنطاد، إلا أن الصاروخ قد انفجر على بعد بضعة مئات من الأقدام أسفله، فقامت فانج من فورها بالضغط على بعض الأزرار أمامها، فارتفع المنطاد مرة ثانية.

« نصف جامعي المخلفات هؤلاء يكسبون رزقهم على أنقاض

المدن الخربة، ولا يسمحون لأحد بمجرد الاقتراب منهم، وإن دنا منهم أحد فإنهم يصوبون أسلحتهم نحوه فورا، وإن لم يجدوا أحدا، فإنهم يقتتلون بعضهم البعض».

« ولكن.. .. كيف حدث ذلك؟» تساءل توم وهو يحدق في الهيكل الخرب أسفلهم.

« ماتت جوعا... انتهى وقودها فوقفت بلا حراك، وهنا جاءت مجموعة من البلدات الأصغر وبدأت في تقطيعها لأجزاء. المجاعة ونقص الغذاء مستمران هنا منذ عدة أشهر. كما ترى ياتوم، لايوجد فرائس كافية هاهنا في ساحة الصيد المركزية، لهذا لا يمكن أن يكون هذا هو السبب الذي جعل لندن تخرج من مكمنها « .

التفت توم ليلقي نظرة أخيرة على المدينة الميتة.

وعند النواحي الشمالية الغربية، كانت مجموعة من الضواحي المفترسة تهاجم بعض البلدات، حيث تسعى خلف البلدات الأضعف والأبطأ حركة، وقبل لحظة الهجوم كان المنطاد قد حلق بعيدا إلى الأعالي، إلى عالم أنقى وأنظف، فوق السحب، واختفى مشهد المدن الذبيحة عن الأعين.

وحينما نظرت فانج إلى توم مرة ثانية، كانت لاتزال مبتسمة، لكن هذه النظرة كانت هناك لمعة غريبة في عينيها : « إذن. إن لم يكن هناك فريسة تلوح في الأفق يسعى إليها ماجنوس كروم، إذن فماالذي تسعى لندن ورائه؟ « .

فهز توم رأسه، واعترف قائلا : « أنا مجرد متدرب في قسم

التاريخ.... من الدرجة الثالثة، ولا أعرف رئيس الملاحين «

« لقد أشارت هيستير في حديثها معي إلى شئ ما أخذه السيد فالانتاين من والديها المسكين، شئ يدعى ميدوسا. ياله من اسم غريب!. هل سمعت عنه أي شئ؟ هل تعلم ماهو؟ «

هز توم رأسه مرة ثانية، فتأملته فانج متفحصة، ثم نظرت مباشرة في عينيه، حتى شعر بنظراتها تنفذ إلى أعماقه، ثم ضحكت قائلة : « حسنا. لايهم. عليّ أن آخذكما إلى إير هيفن، وهناك سوف نجد لكما مركبة تعيدكما إلى لندن» .

***

إير هيفن. .. .. هي واحدة من أشهر البلدات في منطقة التحرك بأكملها، وحينما صدر اسمها عبر مذياع المنطاد من منصة المراقبة الملاحية للبلدة، هرع توم إلى سطح المنطاد، وفي طريقه قابل هيستير خارج غرفة الإسعافات الطبية، حيث كانت مشعثة، تئن، والنعاس لايزال يتملكها. لقد فعلت آنا فانج كل ما بوسعها لعلاج ساق الفتاة، لكن طباعها بقيت دون علاج، فبمجرد أن رأت توم قامت بإخفاء وجهها خلف يديها، ولم تنظر إليه أو تحدثه إلا حينما سألها عن حالتها كيف أصبحت.

ثم التفتت فانج ناحيتهم لتحييهم بابتسامة مشرقة : « انظرا أعزائي « قالتها وهي تشير عبر نافذة الزورق :» إنها إير هيفن»

فوقفا خلف مقعدها ينظران عبر النافذة، ومن بين السحب استطاعا رؤية لمعان الشمس فوق الطبقة المعدنية خفيفة الوزن للبلدة، وهالات البالونات الغازية الملونة هنا وهناك.

منذ زمن بعيد، قررت بلدة إيرهيفن الهروب من المدن الجائعة إلى السماء، وصارت البلدة من بعد ذلك محطة تجارية وملتقى للملاحين الذين يجوبون فوق ساحة الصيد طوال الصيف، ثم يطيرون نحو الجنوب في الشتاء، إلى حيث السموات الأكثر دفئا.

تذكر توم يوم رست تلك البلدة في السماء فوق لندن لأسبوع كامل، وكيف كانت البالونات السياحية تعلو وتهبط من وإلى حديقة كينسينجتون وميدان سيركل، وكيف شعر بالغيرة من هؤلاء الأثرياء أمثال ميليفانت الذي كان يملك المال الكافي للذهاب في رحلة عبر إحدى تلك البالونات إلى البلدة المحلقة، ثم عاد محملا بالعديد من القصص عنها.

والآن، هاهو ذا، ذاهب بنفسه إليها. ترى أية قصص سوف يعود محملا بها إلى وطنه ليحكيها لأقرانه!

تدريجيا بدأ المنطاد يحلق نحو البلدة، ومع مغيب الشمس خلف السحب في الغرب، كانت فانج تستعد للهبوط بمنطادها على مهبط البلدة؛ وعلى أرض المهبط كان رجال الملاحة يشيرون إليها بالرايات التوجيهية لهبوط آمن، ومن خلفهم كان سطح البلدة مزدحما بالزوار والملاحين، وبعض رجال الرصد والاستطلاع الذين كانوا يدونون أرقام المناطيد في أوراقهم.

بعدها ببضع دقائق كان توم يترجل عن المنطاد إلى حيث الهواء البارد للبلدة، متأملا المركبات الآتية والمغادرة، الفاخرة منها والمتواضعة.

« انظروا» صاح توم بحماسة وهو يشير إلى سطح المدينة، « إنها

بورصة المدينة، هناك، أما تلك فكنيسة القديس مايكل السمائية. لقد رأيت صورهما في متحف لندن، إلا أن فانج لم تهتم كثيرا بالأمر، فقد رأت تلك المباني مرات ومرات من قبل، أما هيستير فقد كانت تنظر عابسة الوجه نحو الزحام على المرفأ، وتغطي وجهها بيديها كعادتها.

وبعد إنهائها لإجراءات الدخول، أغلقت فانج أبواب منطادها بمفتاح مربوط حول عنقها، فهرع طفل حافي القدمين نحوها وتعلق بمعطفها قائلا : « يمكنني أن أحرس منطادك ياسيدتي « فضحكت فانج وقامت بنقده ثلاثة قطع برونزية مستديرة مقابل الخدمة.

« لن أدع أحد يقترب منه « قالها الطفل متخذا موضعه بالقرب من المنطاد.

ثم اقترب اثنان من رجال المرفأ في زيهما الرسمي، مبتسمين لفانج في ود، لكنهما كانا في الوقت ذاته ينظران بشك نحو مرافقيها الجدد، فقاما بتفتيشهما للتأكد من أن أحذيتهما ليست ذات غطاء معدني في مقدمتها، وأنهما لايحوزان أية سجائر لاستخدامهما الشخصي، ثم قاموا باصطحابهما لمكتب الميناء، حيث العديد من التعليمات الصارمة مكتوبة في كل مكان : ممنوع التدخين... أغلق كافة الأجهزة الكهربائية... ممنوع إحداث أي شرارات. ..

كانت الشرارات هي أكثر ما يثير الرعب هنا، بسبب ماقد تؤدي إليه أصغر شرارة من خطر ماحق لو أنها وصلت إلى الغاز القابل للاشتعال الممتلئة به بالونات المناطيد. في إيرهيفن كانت كافة

الأنشطة التي يمكن أن يتولد عنها شرر تعد بمثابة جريمة برية، وكان يتعين على كافة القادمين إلى المدينة المحلقة أن يوقعوا على إقرار سلامة بأنهم لن يتسببوا عبر أي فعل في إحداث حريق.

أخيرا انتهت كافة الإجراءات، وسمح لهم مسئولو المرفأ بالدخول إلى المدينة، فصعدوا عبر السلم المعدني إلى حيث الشارع الرئيس. كان الشارع عبارة عن حلقة من ألواح معدنية خفيفة، وهو شارع تجاري بامتياز، محاط بالمحلات والمقاهي والفنادق.

سار توم مبهورا، يلتفت حوله ذات اليمين وذات اليسار، وكأنه يحاول أن يحفظ كل ركن وكل شئ في المكان بذاكرته حتى لاينساه إلى الأبد؛ حيث شاهد المولدات فوق كل سطح، وآلات متحركة كالعناكب تسير فوق محركات ضخمة.

كان الهواء كثيفا ومفعما برائحة أطعمة المدينة الغريبة على توم، وعلى طول الطريق انتشر الملاحون يجوبون المكان في ثقة واستهتار، ومن خلفهم كانت معاطفهم الطويلة تتطاير كأجنحة جلدية.

ثم أشارت فانج إلى مبنى يحتل علامة على شكل منطاد : « هاهو ذا نزل (بالون وزورق). سوف نتناول طعام العشاء، ثم أبحث لكما عن ملاح ليأخذكما إلى لندن .»

سار توم وهيستير نحو المبنى تتقدمهما فانج، وفي حين كانت هيستير لاتكف عن الاختباء عن العالم خلف كفيها المرفوعين إلى وجهها، كان توم يجوب المكان بعينيه شاعرا بالحسرة أن رحلته

إلى إيرهيفن سوف تنتهي سريعا، وبين انبهاره وحماسته وحزنه، لم يلحظ توم ذلك المنطاد، جوشاوك ٩٠، الذي يدور في السماء بين مجموعة من المركبات الأخرى، ينتظر السماح له بالرسو في مرفأ إير هيفن. وحتى لو كان تمكن من ملاحظته، فما كان له، عبر تلك المسافة، أن يقرأ أرقامه أو أن يميز علامة العجلة الحمراء على غلافه، المميزة لعصبة المهندسين.

وفـي النـهاية، وبعـدما صـار المنطـاد مجـرد نقطـة فـي السـماء الشرقية، وبدأت المدرجات تخلو من حشودها، كفكفت كاثرين دموعها، وأخذت ذئبها الأليف، وعادت أدراجها إلى المنزل.

لقـد بـدأت تفتقـد والـدها منذ السـاعات الأولـى لارتحاله، إلا أنها كـانت قـد عقـدت الـعزم على انتهاز الفرصة والبدء فيما قـررت تنفيذه؛ لقد قررت كاثرين أن تستكشف لغز تلك الفتاة الغامضة التي حاولت قتل والدها، والسبب وراء الذعر الذي يتملكه منها.

***

12 باللون وزورق!

كان النزل كبيرا وقاتما من الداخل، ذو حوائط تعج بمجسمات صغيرة لمناطيد في زجاجات، ومركبات هوائية شهيرة من طرز قديمة، مطبوع اسم كل واحدة منها عليها : نادهينزا. .. إيري ماوس... إينفيزيبل وورم..

وعلى الطاولات المعدنية تجمع عدد من الملاحين يتسامرون ويتحدثون عن أسعار الغاز والحمولة و.. ... كانوا قادمين من مناطق شتى، من التبت، من زوسا، جاين.. ..، الطوارق الجويين، الإسكيمو. ..

وفي الركن جلست فتاة من الإيغور تعزف على جيتارها ذي الأربعين وترا.

ومن حين لآخر كان مكبر الصوت يعلن عن :(وصول المنطاد إيديون ويند من بلاد المايا الجديدة محملا بالشيكولاتة والفانيليا عند الخط الثالث [أو (الآن تقلع المركبة ماي شيرونا من الخط السابع محملة بالصادرات إلى أركانجيل). ...

في تلك الأثناء وقفت فانج أمام المحراب بجانب الباب وبدأت في تلاوة صلوات الشكر لآلهة السماء على كون رحلتهم قد حطت بسلام.

كان إله الملاحة الجوية لطيف الملامح كما يتبدى من تمثاله الأحمر البدين المتصدر للمحراب - وقد ذكر توم بشادليغ بوميروي كثيرا- إلا أن زوجته ربة السموات العلا كانت قاسية مخادعة، فلو

حدث وتمت إهانتها أو استفزازها، فإنها تثير الأعاصير العاتية أو تتسبب في تفجير أحد خطوط الغاز مخلفة دمارا عظيما.

انتهت فانج من صلواتها وتقديم قربان للآلهة مكون من كعكة الأرز وبعض العملات، ثم، وبمجرد عودتها، بعد انتهائها من صلواتها، هرعت نحو جماعة من الملاحين يجلسون في الركن على إحدى الطاولات :» خورا « .

وما أن انتبهوا نحو مصدر النداء، حتى هب ملاح إفريقي من بينهم وخطا نحوها مرحبا في حرارة واحتضنها في سعادة بالغة، ثم بدأوا جميعا في التحدث باللغة الدولية، وسمعها توم وهي تذكر لفظ [ميدوسا] بين كلامها وهي تلتفت لتنظر إليه وهيستير أثناء حديثها. وبمجرد اقتراب الاثنان من فانج ورفاقها تحول هؤلاء للحديث باللغة الإنجليكانية، وقال الملاح الأفريقي : « لقد كانت الرياح عاتية طوال الطريق من زاجوا « ثم نفض بعضًا من الرمال الصحراوية الحمراء عن خوذته؛ وكأنما يثبت كلامه بذلك.

وعرف توم أن هذا الملاح هو كابتن خورا، من المركبة الحربية موكيل بيمبي، وقد جاء من إحدى المقاطعات غير المتحركة في جبال القمر، وهي مقاطعة حليفة لجماعة مقاومة التحرك، وسوف يتجه إلى شان جو في جولة رسمية في الحصن العظيم للجماعة في باتمونخ جومبا.

شعر توم بصدمة ثقيلة، حيث أدرك أنه إنما يجلس على طاولة واحدة مع جندي في جماعة مقاومة التحرك، إلا أن خورا قد بدا شخصا جيدا ولطيفا كفانج نفسها.

وبينما كانت فانج تطلب طعام العشاء، قدم لنا خورا أصدقائه : الرجل طويل القامة كئيب الملامح يدعى نيلس ليندستورم، من (جاردن إير بلان تراب)، والسيدة العربية الجميلة ضاحكة الوجه فتدعى ياسمينا راشد، من سفينة القرصنة التدمرية (زينب).

ولم يمر وقت طويل حتى تعالت أصوات ضحكات المجموعة وهم يسترجعون ذكرياتهم ورحلاتهم فوق بلاد المائة جزيرة، والحفلات الصاخبة المخمورة في مقر القوات الجوية في (بنزرستات لينز)، في حين كانت فانج توزع أطباق الطعام الغريب على الطاولة : « هل تريد مزيدًا من معجون الزغبة ياتوم؟». .. « هيستير جربي بعض من خفاش الشيطان. إنه لذيذ» .

وبينما كان توم يحرك طعامه العجيب في الطبق أمامه، مستخدما اثنين من العصي الخشبية، أعطيتها له بدلا من الشوكة والسكين، مال خورا نحوه وقال برفق : « إذن أنت وحبيبتك من طاقم جيني هانيفر الآن؟»

« لا. لا.. .. أقصد أنها ليست حبيبتي، ولسنا من طاقم المنطاد. نحن مجرد مسافرين « .

ثم صمت توم قليلا وهو يقلب في طبق الجراد المهروس، ثم سأل خورا : « هل تعرف آنسة فانج جيدا ؟ «

« طبعا « قالها خورا وهو يضحك ثم أكمل : « جميع العاملين في الطيران يعرفون آنا جيدا، وجميع أعضاء حركة مقاومة التحرك

كذلك، وفي شان جو يلقبونها ب (فينج هوا) بمعنى زهرة الرياح ».

أثار ذلك فضول توم، ماالذي يجعل لفانج لقبًا خاصًا في شان جو؟ !، ولكن قبل أن يهم بسؤال خورا عن ذلك، استرسل الأخير : « هل تعلم أنها قد أسست جيني هانيفر بنفسها ؟. حينما كانت صغيرة شاء القدر أن تكون هي ووالديها على متن بلدة هاجمتها أركانجيل والتهمتها تماما، وتم أخذهم للعمل كعبيد في عنابر السفن الجوية. وعلى مر السنين اعتادت فانج أن تلتقط محركا من هنا ومقودا من هناك، وهكذا حتى تمكنت من بناء ال (جيني هانيفر)، ثم هربت على متنها «.

« لم تخبرنا آنسة فانج بأي شئ من هذا « دمدم توم مأخوذا، وهو ينظر نحو فانج، ولكن هذه المرة من منظور مختلف تماما.

« هي لاتتحدث عن ذلك الأمر. فكما ترى، لم يعش والداها حتى لحظة التحرر. لقد ماتا أمام عينيها وهما في أصفاد العبودية» .

شعر توم بتعاطف شديد نحو فانج المسكينة. إنها يتيمة مثله، ألهذا هي تبتسم طوال الوقت؟ لتداري حسرتها ووجعها؟ ألهذا أنقذته وهيستير؟ أرادت أن تنقذهما من مصير والديها؟

ابتسم توم لها مظهرا المودة واللطف بأقصى ما استطاع، فبادلته الابتسام، وقربت منه أحد أطباق الطعام العجيب : « جرب العنكبوت المسلوق ياتوم. سوف تحب» .

ثم فجأة دوى صوت مكبر الصوت ليعلن أن : « وصل الآن عند الخط الرابع عشر المنطاد جي. إي. ٤٧ من لندن حاملا مسافرين

فقط» .

هب توم من على مقعدة فجأة، حتى أن المقعد سقط على الأرض محدثا جلبة. إنه يتذكر سفن الاستطلاع الجوي السريعة لعصبة المهندسين، والتي تستخدم لتفقد مسارات لندن، ويتذكر كيف أن تلك السفن تحديدا لاتحمل أسماء، وإنما أرقاما رسمية فقط تبدأ جميعا بالحروف جي. إي.

« لقد أرسلوا أحدا خلفنا» .

« ربما هي محض صدفة ياتوم»، قالت فانج، « هناك دوما العديد من المركبات تأتي من لندن. ... وبفرض أن فالانتاين قد أرسل أحدهم خلفك، فعليك أن تطمئن، أنت بين أصدقائك. نحن أقوى من جنود البيف بورجر المرعبين لديكم « .

« بيفييتر « - *الحرس الوطني الملكي التقليدي في لندن *- صحح لها توم النطق بشكل تلقائي، وإن كان قد أدرك أنها قد نطقتها هكذا متعمدة فقط لتكسر حدة التوتر، ورأى هيستير جالسة تبتسم، فشعر بسعادة لوجودها وصمم على أن يحميها مهما كلفه الأمر.

لكن المفاجآت لم تنته، فقد انطفأت الأضواء دون سابق إنذار، فانطلقت صيحات الضجر والاستياء، ومن المطبخ جاء صوت تحطم الأواني الزجاجية؛ ومن النافذة جاءت أضواء الشفق لتكسر حدة الظلام قليلا، وقال ليند ستورم - الرجل ذو الملامح الكئيبة- « لقد انقطع الكهرباء عن إيرهيفن بالكامل !. .. .. لابد أن عطلًا ما قد وقع في محطة الكهرباء «.

« لا»، انطلق صوت هيستير لأول مرة منذ بداية الجلسة، قائلة في سرعة : « إنني أدرك تلك الحيلة جيدا. لقد انقطعت الأضواء كي تحدث فوضى في المكان، ويتم اقتناصنا بسهولة أثناء مغادرتنا. ... هناك شخص ما قد أتى خلفنا ».

كان الهلع يفوح من صوتها، بطريقة لم يعهدها توم فيها من قبل منذ أن قابلها، حتى أثناء المطاردة في ستاينس لم تكن على هذا القدر من الذعر. ثم بدأ يشعر هو الآخر برعب شديد، فمن الركن البعيد بالقاعة، حيث الزبائن ينسربون خارجين إلى حيث ضوء القمر الذي يفترش الشارع، خرجت صرخة مدوية، أعقبتها صرخة أخرى، وصوت تحطم أوانٍ زجاجية شديد. .. صياح. .. لعنات... مقاعد وطاولات تسقط على الأرض محدثة قعقعة شديدة.

ثم.. .. نقطتان من الضوء الأخضر اللامع تتقدمان فوق الجمع !

« هذا ليس من البيفييتر »، قالتها هيستير بصوت لم يستطع توم تمييز ماإذا كان الرعب يسوده أم الارتياح.

« هيستير شاو»، انطلق صوت أشبه بمنشار قطع المعادن مناديا باسمها.

ومن أمام المدخل، انطلقت سحابة من الضباب، ومنها خرج واحد من (المطاردين). كان طوله يبلغ سبعة أقدام، ومن تحت معطفه بدا الدرع المعدني المصفح، وكان وجهه شاحبا، يتلألأ بغشاء شبه معدني، ومن تحت جلده بدت بعض من العظام البيضاء المائلة للزرقة، أما فمه فكان عبارة عن شق يعج بالأسنان المعدنية، وقد غطت قطعة معدنية طويلة مقدمة رأسه حتى أنفه، ومنها يتدلى

عدد من الخراطيم والأنابيب تدخل إلى صدره عبر مداخل عدة. أما عيناه فكانتا زجاجيتين دائريتين، جاحظتين وكأنه في حالة ذهول أبدي.

أما أسوأ ما في هؤلاء المطاردين أنهم كانوا بشرا في يوم ما !، وفي مكان خلف الجمجمة المعدنية يكمن مخهم البشري محاصرا.

« هذا مستحيل !» قالها توم لاهثا من هول المفاجأة، « لم يعد يوجد أي مطاردين. لقد تم تدميرهم جميعا منذ قرون خلت « .

لكن الحقيقة المرعبة الماثلة أمام عينيه قد أنبأته بخطئه، فها هو أحد المطاردين واقفا أمامه، واقعا قائما أمام ناظريه يثبت له بما لايدع مجالا للشك خطأ ماكان يظن طوال حياته.

حاول توم التراجع للوراء، لكنه جمد في مكانه غير قادر على التحرك، ومن بين ساقيه كان السائل الساخن ككوب شاي مسكوب، يتدفق إلى الأسفل، فأدرك حينها أن الرعب قد جعله يتبول على نفسه!

تقدم منهم الكائن شبه الآلي ببطء، دافعا المقاعد والطاولات التي تحول بينه وبينهم، ومن تحت قدميه دوى صوت الأواني والأكواب الزجاجية المتكسرة يقعقع كانفجارات صغيرة.

ومن الظلال خلف المطارد، اندفع أحد الملاحين ملوحا بسيفه نحو الكائن المخيف، إلا أن السيف قد ارتد بمجرد اصطدامه بالدرع المصفح؛ ودون حتى أن ينظر تجاه مهاجمه، وجه المطارد ضربة هائلة نحو الملاح فأطاح به ليسقط أرضا وقد تحطمت

عظامه.

« هيستير شاو.. توماس ناتسوورثي» دوى الصوت المرعب مرة ثانية مرددا الاسمين هذه المرة، فأجفل توم « إنه يعرف اسمي» .

هنا حاولت فانج التدخل لقول أو فعل أي شئ : « أنا.. .. « لكن الكلمات قد ضاعت من بين شفتيها، فلم تتمكن من التفوه بأي حرف آخر، لكنها قامت بجر توم سريعا إلى الوراء، في حين أشهر خورا ورفاقه سيوفهم ووقفوا بين الكائن وفريستيه.

فجأة تقدمت هيستير إلى الأمام، وبصوت بدا غريبا : « لابأس. .. أنا أعرفه. دعوني أتحدث إليه « .

فالتفت المطارد نحوها. .. « هيستير شاو» ردد المطارد الاسم ثانية، ولكن... هذه المرة قد بدا شئ من اللطف في نطقه إياه.

« مرحبا جريك « .

فمال الكائن المرعب برأسه الضخم ناظرا إليها، ثم ارتفعت يده المعدنية، في شئ من التردد، حتى لمس وجهها، تاركا عليه آثارا زيتية..

« آسفة ياجريك. لم أجد الفرصة حينها لأودعك. «

« أنا الآن أعمل لدى عمدة لندن. .. لقد أرسلني لقتلك « .

أجفل توم ثانية، أما هيستير فقد أصدرت ضحكة قصيرة، ثم قالت : « لكنك لن تفعل. أليس كذلك ياجريك؟ أنت لن تقتلني؟ « .

« نعم « قالها الكائن الذي عرفوا أن اسمه جريك، بصوت بارد، وهو

لا يزال يحدق فيها، فهمست هيستير: « لا ! »

هنا وجدت فانج فرصتها، فسحبت من جيبها أداة معدنية فضية على شكل مروحة، وبسرعة طوحتها صوب حنجرة المطارد، فطارت الأداة المعدنية مصدرة حفيفا مخيفا وهي تشق الفراغ نحو جريك وقد انفتحت إلى شكل أسطواني ذي حواف حادة قاطعة كحواف الموسي. فما إن رأى توم الأداة حتى اندفع قائلا : « إنها أسطوانة حربية من بلاد المايا الجديدة ! »، فقد كان يعرف ذلك السلاح جيدا حيث رآه مرارا ضمن مجموعات الأسلحة المحفوظة في قسم الآلات الحربية في المتحف، وكان يعرف أيضا أن تلك الآلة كفيلة بقطع عنق أي إنسان فورا، فحبس أنفاسه منتظرا لحظة انفصال جمجمة المطارد عن جسده، إلا أن ذلك لم يحدث، فقد اصطدمت الآلة بالعنق المصفح محدثة رنينا قويا واستقرت في المعدن القوي، ليس إلا، فافتر فم الكائن عن ابتسامة طويلة، ثم وثب نحو فانج بسرعة، لكن رد فعلها كان سريعا فوثبت بدورها جانبا ثم استدارت ووجهت نحوه ركلة قوية، إلا أنه كان أسرع منها فلم تصبه.

« اهربا» صرخت فانج في توم وهيستير، « عودا إلى جيني هانيفر وسوف ألحق بكما ».

ولم يكن بوسعهما فعل شئ آخر، فانطلقا نحو الباب، وقد حاول جريك الإمساك بهما حينما مرا سريعا بجواره، لكن خورا قد جذبه من ذراعه سريعا في حين طوح نيلس ليندستورم سيفه نحو وجهه، إلا أن الكائن قد طوح خورا جانبا محررا ذراعه من قبضته، أما ليندستورم فقد ألقى بسيفه الذي انكسر، وصرخ في غضب

قابضا على ذراع الكائن، فأطاح به جريك هو الآخر، ثم استدار لفانج ممسكا بها حينما اندفعت نحوه، ورفعها إلى الأعلى ثم طوحها بقوة نحو خورا وياسمينا حينما هرعا لمساعدتها.

« آنسة فانج « صرخ توم، وفكر للحظة في العودة للمشاركة في المعمعة الدائرة، لكنه كان يعرف جيدا أنه ما من شئ يمكنه مقاومة المطاردين، لذا هرع خلف هيستير، فوق الأجساد المتكومة في الطريق إلى الباب.

وفي الخارج كان صوت أجراس الإنذار يدوي في الفضاء، في حين انتشرت رائحة الدخان تحرق الأنفاس والصدور، وهناك، عند محطة الطاقة، خيل لتوم أنه يشاهد أسوأ كوابيس الملاحين يتحقق : اندلاع حريق!

« لا أستطيع أن أفهم.. « كانت هيستير تردد ذلك لاهثة، موجهة حديثها لنفسها وليس لتوم، « هو لن يقتلني. لن يفعل ! «، لكنها لم تتوقف عن الجري؛ حتى وصلا إلى الخط الجوي السابع، حيث كان المنطاد جيني هانيفر واقفا هناك ينتظرهم، لكن جريك كان قد فعل ما من شأنه أن يضمن له أن المنطاد الصغير لن يتحرك الليلة إلى أي مكان، فبمجرد وصول هيستير وتوم إلى حيث المنطاد، فوجئا به وقد تمزق بالونه، وتم انتزاع غطاء المحرك الأيمن ومنه خرجت كومة ممزقة من الأسلاك، ملقاة على رصيف المرفأ، وبين الأسلاك رقدت الجثة المحطمة للطفل الصغير الذي نقدته فانج مالا لحراسة مركبتها.

وقف توم محدقا في الفوضى والحطام من حوله، ومن خلفه بدأ صوت أقدام يقترب رويدا فوق الأرض المعدنية، فالتفت حوله

ليجد أن هيستير قد اختفت، فهرع يبحث عنها على طول المرفأ، ثم أدرك أنها قد هرعت نحو الأسفل، فخف الخطى وراءها مناديا عليها وهو يتتبعها سريعا إلى حيث خط الطيران المجاور.

وهناك، كانت إحدى البالونات السياحية قد هبطت لتوها، ومنها خرجت أسرة من السائحين الذين قد اعتراهم الإضطراب حين وجدوا الظلام يحيط بهم من كل جانب، وتناهت إليهم أصوات الصراخ والصياح، فصاروا يتلفتون حولهم في حيرة من أمرهم ويتساءلون : أهو حادث طارئ قد وقع أم أن ذلك نوع من الأجواء الاحتفالية الصاخبة؟!

في تلك اللحظة كانت هيستير تشق طريقها نحو البالون، فقامت بجذب قائد البالون بقوة وألقت به خارج سلته ثم قفزت هي إليها، في حين قام الرجل من سقطته وهو يصرخ مستنجدا : « أوقفوها. لصوص.. النجدة «.

وفي حين كان توم يسعى للوصول إليها كان صوت الخطوات المسرعة يتردد خلفه بلا هوادة.

« توم. تعال بسرعة «.

فاستجمع شجاعته ووثب بسرعة إلى السلة حيث هيستير، التي اندفعت نحو حبال البالون، وصاحت في توم الذي سقط في قاع السلة : « هلم. ألقِ بكل شئ من هنا «، ففعل ما قالت، وبدأ البالون في الارتفاع عاليا، إلى حيث نوافذ الطابق الأول من المباني، ثم السطح،... حتى صارت إيرهيفن مجرد كعكة تسبح في الظلام أسفلهم.

وعلى رصيف المرفأ وقف جريك ينظر إليهما وهما يحلقان بعيداً، وعيناه تلتمعان بضوئهما الأخضر في الظلام، وقد بدا للهاربين من بعيد كبقعة ضوء.

***

13 العائد

فـــي العصــور المظلمــة، وقبــل بزوغ حقبــة التحــرك، دخلــت الإمبراطوريات البدوية / الهمجية في حروب طاحنة ضد بعضها البعض، عبر المتاهة البركانية لأوروبا. وكان هؤلاء هم من صنعوا [المطاردين]، حيث أخرجوا جثث المحاربين من ميادين المعارك، وقـاموا بإعادتهم إلى نـوع خاص جدا من الحياة !، عبر ادخال بعض الآليات التقنية إلى جهازهم العصبي.

ثم اندثرت تلك الإمبراطوريات، وذهبت سيرتهم أدراج الرياح، إلا أن ماخلفوه ظل قائما لم يتبدد معهم : إنهم. (العائدون).

تذكر توم كيف كان - وهو لم يزل بعد طفلا - يلعب مع زملائه في الملجـأ متقمصا دور أحـد هـؤلاء العائـدين، فكـان يسـير بخطى متخشبة ثقيلة، مادًا ذراعيه إلى أقصى امتدادهما أمامه، صائحا : « أنا... مطارد... عائد... من. .. الموت ! «، إلى أن تأتي الآنسة بليم وتأمره بأن يكف عن الصخب.

كان يلعب دورهم، لكنه لم يكن يتخيل أبدا أن يأتي يوم يقابل فيه أحدهم.

وفي البالون المتجه ناحية الشرق، جلس توم يرتعش وقد انكفأ علـى نفسـه فـي أحـد جـوانب السلة، كي لاترى هيستير بنطاله الملوث وتعرف ما حدث له؛ وبعد حين شرع يتكلم : « لقد كنت أعتقد أنهم جميعا قد ماتوا منذ مئات الستين. كنت أظن أنه قد جرى تدميرهم في المعارك، أو أنهم قد أصابهم الجنون فقطعوا أنفسهم « .

« هذا لاينطبق على جريك « .

« إنه يعرفك !»

« بالطبع يعرفني. ... نحن أصدقاء قدامى، أنا وجريك» .

كانت هيستير قد قابلت جريك لأول مرة في الصباح التالي لمقتل والديها، حينما استيقظت على شواطئ ساحة الصيد. لم تكن تدري كيف وصلت إلى هذا المكان، وكان الألم في رأسها مبرحا بحيث لم تكن قادرة على التحرك أو التفكير.

وفي الجوار، رأت هيستير أصغر بلدة قد رأتها في حياتها، وأكثرها قذارة أيضا، ثم شاهدت جماعة من الناس يحملون على ظهورهم سلالا مجدولة، يهبطون من البلدة عبر سلالم وألواح، يفتشون بين المخلفات والحطام على الشاطئ، ويعودون وقد امتلأت سلالهم ببقايا المخلفات وحطام الأخشاب، وكان بعض منهم يحملون قارب أبيها.

ولم يمر وقت طويل قبل أن يكتشفوا وجود هيستير، حيث جاءها رجلان، أحدهما كان من جامعي المخلفات، والذي ظل ينعم النظر إليها لهنيهة، قبل أن يقول لمرافقه : « آسف سيد جريك. كنت أظنها من نوعك. لكنها من لحم ودم بالكامل «، ثم عاد أدراجه ليستأنف عمله بين البقايا والمخلفات، وقد فقد كل اهتمام بهيستير، فهو لايبغي سوى الأشياء التي يمكنه بيعها، وبالطبع لم تكن ثمة قيمة تذكر لطفلة شبه ميتة مثلها.

أما الآخر فقد ظل في مكانه ينظر إلى هيستير، ثم أنه مد يده

يتحسس وجهها الصغير، فشعرت ببرودة وقوة المعدن تحت قفازه، وأدركت أنه ليس بشريا؛ وحينما تحدث خرج صوته كفرشاة من السلك تحتك بلوح معدني : « لايمكنك البقاء هاهنا أيتها الطفلة »، ثم مد يده نحوها ثانية ورفعها إلى كتفه وأخذها على متن البلدة.

كانت البلدة تدعى سترول، وتأوي خمسين من جامعي المخلفات الخشنين، الذين يقتاتون على سرقة مواقع التقنيات القديمة، وأحيانا على التسول من المدن الأكبر إن لم يجدوا مايسرقونه.

أما جريك فكان له عمل من نوع آخر، فحينما يفر أحد المجرمين الخطرين من أي من المدن المتحركة الكبرى إلى العراء، يقوم جريك بتتبعه والإمساك به ثم قطع رأسه وحفظها، وحينما يمر بطريق تلك المدينة التي فر منها المجرم، يقوم بتسليم الرأس إلى السلطات والحصول على مكافأته.

أما لماذا أنقذها، فهذا مالم تتمكن هيستير من سبر أغواره أبدا، فلايمكن أن يكون قد فعل ذلك بدافع من شفقة أو تعاطف، فجريك لايملك أي نوع من المشاعر، ولم تر هيستير عليه أي من مظاهر الرقة أو الحنان، إلا حينما كان ينشغل بمجموعته الخاصة، فقد كان مولعا بالألعاب الآلية، حيث كان يشتريها من جامعي المخلفات.

وكان مسكنه المتداعي في سترول يعج بالكثير من تلك الألعاب : حيوانات... فرسان مدرعين. ... جنودًا ذوي مفاتيح ملء زمبركية في الخلف. ... وبأحجام مختلفة، قد تصل إلى أن تكون بالحجم الطبيعي.

أما أكثر تلك الألعاب التي كان يفضلها بشكل خاص فهي تلك التي تتخذ شكل النساء أو الأطفال، وكان يملك منها أشكالا متعددة تتخذ هيئة نساء في ملابس بالية وبنات رقيقات وأولاد صغار.

وطوال الليل كان جريك لايكف عن تفكيك تلك الألعاب واستكشاف مكوناتها وإصلاحها، وكأنه بذلك يحاول فهم تركيبه الخاص من خلالها.

وفي كثير من الأحيان كانت هيستير تشعر وكأنها هي نفسها جزءا من مجموعته، ولطالما تساءلت حول ما إذا كانت تذكره بمعاناته في ميدان المعارك في زمن الحروب المنسية، أيام كان لايزال بشريا؟!

وعلى مدار خمس سنوات، عاشت هيستير مع جريك في مأواه، وقد شفي الجرح في وجهها تاركا أثرا لاينمحي وتشوها مستديما، وخلال تلك الفترة استطاعت استعادة ذاكرتها ببطء، حيث كانت بعض من ذكرياتها تأتيها واضحة جلية، فكانت تتذكر جيدا موجات البحر وهي تداعب شواطئ جزيرة السنديان، وصوت أمها، والنسائم المحملة برائحة العشب المبتل وروث الحيوانات.

في حين عاد البعض الآخر من الذكريات مشوشا عصيا على الفهم، كضوء خاطف يسطع فجأة في سماء عقلها ثم سرعان ما يختفي : دماء على خرائط النجوم... ضوضاء... رجل وسيم ذو عينين لونهما كموج البحر المائل للرمادي. ..

كانت شظايا ذكريات ولم تكن ذكريات كاملة واضحة المعالم،

وكان عليها أن تجمعها في صبر وتعيد ترتيبها، كأجزاء الآلات التي يعثر عليها جامعو المخلفات من آن لآخر.

ظلت هيستير على هذه الحال، إلى أن سمعت بعض الرجال يتحدثون ويحكون القصص حول رجل عظيم يدعى ثاديوس فالانتاين. حينها فقط تبدل كل شئ، فقد ميزت هيستير الاسم...، وتذكرت أن هذا هو بالضبط اسم الذي قتل والديها وشوه وجهها؛ تذكرت هيستير كل شئ، وأدركت مايتوجب عليها فعله دون أي تفكير أو تردد.

فأخبرت جريك بأن عليها أن تذهب وراء فالانتاين.

« لايجب عليك فعل ذلك. سوف يتم قتلك «.

« إذن تعال معي» قالتها له متوسلة، لكنه رفض، فقد سمع عن لندن وعن عمدتها ماجنوس كروم وولعه بالتقنيات، وأدرك أنه إن هو ذهب إلى هناك فسوف تأخذه عصبة المهندسين وتقوم بتقطيعه وفصل أجزائه لدراسة تركيبه في معاملهم السرية. ... « لايجب عليك أن تذهبي إلى هناك» .

إلا أن هيستير كانت قد اتخذت قرارها الذي لن ترجع عنه، فانتظرت حتى انشغل جريك بمجموعته كالمعتاد، ثم تسللت عبر النافذة، وانسلت خارج سترول بأكملها، متخذة طريقها في العراء، وبصحبتها سكين مسروق أخفته في حزامها، وانطلقت تبحث عن لندن سعيا للثأر.

***

« ولم أر جريك منذ ذلك الحين » قالتها هيستير لتوم بعدما حكت له قصتها مع جريك، وهما جالسان يرتعشان في سلة البالون، « كانت سترول تقع عند شواطئ البحر الإنجليكاني حينما تركتها. أما الآن هاهو جريك يعمل لصالح ماجنوس كروم ويريد قتلي. هناك شئ غير مفهوم ! «

« ربما تسبب هروبك في جرح مشاعره» .

« جريك لايملك أية مشاعر. لقد أزالوا ذاكرته ومشاعره حينما حولوه لمطارد»، قالتها وقد بدا لتوم أنها إنما تحسد جريك على ذلك.

على أية حال، قد ساعده صوتها على الهدوء قليلا وكف عن الارتعاش، فجلس في هدوء يستمع إلى صوت الرياح وينظر إلى السحب الغربية التي كانت ملوثة ببقع سوداء، ربما هي الأدخنة المتصاعدة من حريق إيرهيفن. ترى، هل استطاعوا السيطرة على الحريق، أم أن المدينة قد دمرت؟!

وماذا عن آنا فانج؟، حينما خطر ذلك السؤال على بال توم، أدرك أن جريك غالبا قد قتلها هي ورفاقها. .. تلك الملاحة الودود الضاحكة هي ميتة الآن على الأرجح، تماما مثل والديه. شعر توم بحزن عميق، وأحس وكأن لعنة تطارده وتدمر كل من يحبونه أو يعاملونه بلطف. ليته لم يقابل فالانتاين، ليته بقي في المتحف حيث ينتمي.

« ربما هي لاتزال بخير»، قالتها هيستير، وكأنها قد خمنت ما يدور في رأسه، « أظن أن جريك كان يلعب معها فقط ! فهو لم يبرز

مخالبه ولم يستخدمها «.

« ألديه مخالب؟! «

« في حال لم تقم بإزعاجه أكثر من ذلك، فهو على الأرجح لن يضيع وقته في قتلها « .

« وماذا عن إيرهيفن ؟» .

« لو أنها قد تضررت بشكل كبير فأغلب الظن أنها ستهبط في مكان ما لحين إصلاحها « .

أومأ توم، ثم خطر على ذهنه خاطر جعله يشعر بسعادة مفاجئة :
« هل تظنين أن آنسة فانج سوف تأتي في إثرنا؟ «.

« لا أعلم. لكن جريك سيفعل بالتأكيد « ما إن قالت ذلك، حتى نظر توم خلف كتفه في رعب.

« ومع ذلك، فعلى الأقل نحن في طريقنا عبر الاتجاه الصحيح إلى لندن « .

نظر توم خارج السلة، فوجد السحاب أسفلهما وقد بدا وكأنه لحاف أبيض سميك يحجب عنهما الأرض، أو أي علامة تدل على اتجاه البالون.

« وكيف تسنى لك أن تعرفي ذلك؟ « .

« عبر النجوم بالطبع. .. لقد علمتني أمي استقراء النجوم وتحديد الاتجاه عبرها، فقد كانت ملاحة أيضا، وقد سافرت إلى كل مكان. حتى أنها ذهبت إلى أمريكا في أحد المرات. عليك أن تستخدم

النجوم لتحديد اتجاهك في حال كنت لاتملك خرائط ولايتوفر أمـامك علامـات مميزة. انظـر، هـذا هـو النجـم القطبـي، وتلـك المجموعـة مـن النجـوم هـي التـي كـان يطلـق عليـها الأقـدمون (مجموعـة الـدب الأكبـر) إلا أن معظـم النـاس حـاليا يسـمونها (المدينة)، فلو أن تلك المجموعة النجمية على يميننا فنحن نتجه إذن نحو الشمال الشرقي «.

« ولكـن... هنـاك الكثـير جـدا مـن النجـوم هنا « أجابها تـوم وهـو يحاول تمييز ماتتحدث عنه حيث تشير بإصبعها، ولكن هناك في الأعـالي، حـيث لاأدخنـة صـادرة عـن المـدن ولاغبـار وأتربة مـن العـراء، كـانت سـماء الليـل تمتـد فوقـهم متألقـة بملايـين مـن النجوم. ..

« لم أكن أعلم من قبل أن هناك كل هذا الكم من النجوم «.

« كل تلك النجوم عبارة عن شموس تلتهب بالضوء، بعيدا جدا فـي الفضـاء، علـى مسـافة آلاف وآلاف مـن الأميـال «، أخـذت هيستير تشرح لتوم، وقد شعر بأنها إنما تتفاخر بما تستعرضه أمامـه مـن معلومات، « فيما عدا البعض منها بالطبع، التـي هـي ليست بنجوم من الأساس، بل هي عبارة عن أقمار اصطناعية أطلقـها القـدماء فـي المدارات منذ آلاف السنين، ولازالت تـدور وتدور حول الأرض» .

حدق توم في الفضاء المتلألئ، ثم أشار نحو نجم لامع منخفض في الغرب : « وما هذا ؟ «

نظرت هيستير إلى حيث أشار، فبهتت الابتسامة على وجهها، «

تلك هناك؟. ... إنها منطاد، وهو يتجه نحونا « .

« ربما هي الآنسة فانج قد جاءت لإنقاذنا ؟ « قالها توم وقد بدأ الأمل يغمر قلبه.

إلا أن المنطاد كان يتجه نحوهم سريعا، وبعد بضعة دقائق كان باستطاعتهم تمييز المركبة لندنية الصنع المخصصة للاستطلاع طراز جوشاوك ٩٠. وحينها شعرا وكأن عيني جريك الخضراوين ترصدهما عبر السماء.

فجأة شرعت هيستير في تلمس رافعات صمامات الغاز التي تتحكم في البالون، وفي غضون بضعة ثوان تمكنت من إيجاد الرافعة التي تبحث عنها، وبدأ صوت هسيس شديد تتردد أصداؤه في البالون.

« ماذا تفعلين ؟ أنت تفرغين الغاز من البالون. سوف نسقط».

« إنني أختبئ عن أعين جريك « قالتها وهي تفتح صمام الغاز أكثر.

وحينما نظر توم لأعلى وجد البالون وقد بدأ يرتخي، فنظر ثانية إلى المنطاد فوجده لايزال يتجه نحوهما بسرعة، إلا أنه كان لايزال بعيدا عنهم ببضعة أميال.

كانت خطة هيستير تعتمد على أن يبدو بالونهما وكأنه قد تعرض لحادث، على أمل ألا يفطن جريك لخطتها، وأيضا على أمل ألا يكون المنطاد مزودا بقاذف للصواريخ.

وفي غضون لحظات كان البالون يسقط بين السحب، وقد بدأت

السلة تصدر صريرا مخيفا، وقد فرغ البالون من الغاز، وهسيس صمام الغاز مستمر كفحيح ثعبان.

« بمجرد هبوطنا إقفز من السلة بأسرع مايمكنك « .

« حسنا... ولكن كلامك يعني أننا سنترك البالون؟ «

« ليست لنا أية فرصة للنجاح في مواجهة جريك في الجو، أما على الأرض فلنأمل أن أتمكن من خداعه» .

« على الأرض؟ « صاح توم « لاتقولي أننا سنبقى في العراء ثانية ! «

كان البالون يسقط سريعا، ولم يكن من أثر لمنطاد جريك من على تلك المسافة، فطمأن توم نفسه.

كانت الأرض على بعد مائة قدم أسفلهم، ثم خمسين، فعشرة...، ثم بدأ البالون يسقط بين فروع الأشجار التي صارت تحتك بسلة البالون أثناء سقوطه، إلى أن اصطدم بالأرض الموحلة، فبدأ في التقافز علوا وهبوطا عدة مرات..

« اقفز» صرخت هيستير، فأطاعها توم سريعا، فقفز عبر الفروع الحادة إلى أن سقط في بركة من الوحل.

قفزت السلة إلى الأعلى ثانية، وللحظة خشي توم أن تكون هيستير قد تركته وحده ليهلك في العراء، وبدأ يناديها في توتر «هيستير... هيستير» .

وأخيرا سمع صوتا من بين الأشجار على يساره، وظهرت هيستير

من بين الفروع.

« أه. شكرا لكويرك»، همس بها وقد شعر بارتياح كبير، وظن أنها ستأتي لتجلس بجانبه ليستريحا قليلا ويشكرا الآلهة على أنهما سقطا على أرض رخوة بدلا من السقوط فوق أرض حجرية؛ لكنها بدلا من ذلك استأنفت طريقها نحو الشمال الشرقي.

« انتظري!... إلى أين أنت ذاهبة؟» كان توم لايزال غير قادر على مجرد الوقوف على قدميه، فالتفتت هيستير ناظرة له وكأنها تنظر إلى شخص مجنون، ثم قالت في تعجب : « لندن»!

استند توم على ظهره وتأوه من الألم، ثم بدأ يحاول استجماع قوته لجولة أخرى مرهقة.

ومن فوقه، عاد البالون ثانية إلى السماء بعدما تحرر من حمولته وصار خفيفا، حتى ابتلعته السحب من جديد، وفي غضون بضع دقائق سمع توم هدير محركات مسرعة، حيث كان منطاد جريك يخف في إثر البالون.

***

14 مقر العصبة

قررت كاثرين أن تبدأ رحلة بحثها عن الحقيقة من القمة، فقامت بعد يوم واحد من سفر والدها بإرسال رسالة إلى مكتب عمدة لندن، من مكتب فالانتاين عبر نظام الإرسال الهوائي، وبعد نصف ساعة جاءها الرد من مكتب سكرتارية كروم، يفيد بأن العمدة في انتظارها عند الظهيرة.

انطلقت كاثرين من فورها إلى حيث غرفة ملابسها، وقامت بانتقاء أكثر الملابس العملية لديها : بنطال أسود ضيق ومعطف رمادي، وقامت بعقص شعرها إلى الوراء بمشبك مصنوع من المصابيح الخلفية لسيارة قديمة، وقبعة عصرية ابتاعتها قبل ستة أسابيع ولم تجد مناسبة لارتدائها.

ثم قامت بوضع بعض من أحمر الشفاه وظل الخدود على وجنتيها، ولم تنس رسم المثلث الأزرق الصغير بين حاجبيها، في محاكاة لعلامة عصبة المهندسين، كما هي الموضة الشائعة بين فتيات لندن العصريات.

ولم تنس أن تأخذ في حوزتها مفكرة وقلم، قامت بوضعهما في حقيبة الأعمال السوداء الخاصة بوالدها، ومعهما وضعت جواز المرور الذهبي الخاص بها، والذي أهداها والدها إياه في عيد ميلادها الخامس عشر، وهو جواز المرور الذي يتيح لها الدخول إلى غالبية الأماكن في لندن.

ثم وقفت كاثرين أمام المرآة متأملة هيئتها، وتخيلت يوم ذهابها بعد بضعة أسابيع لاستقبال والدها العائد، فربما تمكنت يومها من

أن تقول له : « كل شئ على مايرام الآن ياأبي. لقد فهمت كل شئ. لاداعي لأن تخشى شيئا بعد الآن».

وفي تمام الساعة الثانية عشرة إلا ربع، كانت تسير مع (كلب) تجاه محطة المصعد في ميدان كويرك، مستمتعة بنظرات الناس نحوها وهي تمر أمامهم. (.. إنها الآنسة كاثرين فالانتاين)، وتخيلتهم يقولون (إنها ذاهبة للقاء عمدة لندن).

كان العاملون في المصعد يعرفونها جيدا، فحيوها مبتسمين : « صباح الخير آنسة كاثرين «

ثم ربتوا على رأس (كلب)، ولم يفكروا في طلب الاطلاع على جواز مرورها، فدخلت المصعد للإرتقاء إلى (قمة الطبقة).

وصل المصعد إلى وجهته، فخطت في رشاقة خارجه إلى ميدان باترنوستر مع ذئبها . وبعد لحظات كانت كاثرين ترتقي سلالم مقر العصبة، ثم تدخل إلى مصعد داخلي صغير ؛ وفي الساعة الثانية عشرة إلا دقيقة واحدة كانت تدلف عبر الباب البرونزي الدائري المؤدي إلى المكتب الخاص للعمدة .

« آه . آنسة فالانتاين لقد جئت مبكرا عن موعدك بدقيقة « جاءها صوت كروم من الجانب الآخر البعيد من مكتبه الشاسع، حيث رمقها للحظة قبل أن يعاود النظر إلى الأوراق الموضوعة أمامه؛ وخلف رأسه كانت نافذة مستديرة تطل على كنيسة القديس بول، والتي تبدت عبر الزجاج السميك متموجة غير حقيقية، وكأنها معبد غارق في قاع مياه شفافة، في حين كانت أشعة الشمس تنعكس باهتة على الألواح البرونزية غير اللامعة لحوائط

المكتب .

لم يكن مكتب العمدة يحوي أي صور أو ديكورات أو زينة معلقة من أي نوع، أما الأرضية فكانت معدنا مجردا عاريا، حتى أن كاثرين قد ارتعشت من البرودة التي تسربت إلى ساقيها عبر حذائها من الأرض .

تركها العمدة تنتظر في قلق وتوتر لتسعة وخمسين ثانية بدت وكأنها لن تنتهي ابدا، ثم أخيرا رفع وجهه عن تقاريره وابتسم ابتسامة باهتة وكأنه لم يعرف للتبسم سبيلا طوال حياته سوى أنه قرأ عنه في الكتب !

« لدي أخبار ستسعدك . لقد تلقيت لتوي رسالة مشفرة من بعثة أبيك، قبل أن تخرج عن نطاق الإرسال . تقول الرسالة : كل شئ على مايرام على متن المنطاد (مصعد الطابق الثالث عشر) «.

« جميل» قالتها كاثرين وكانت تعرف جيدا أن هذه الرسالة هي آخر ما سوف تتلقاه عن والدها حتى يرجع إلى طريق العودة إلى لندن، فحتى عصبة المهندسين لم تتمكن حتى الآن من إرسال إشارات الراديو لأبعد من بضعة مئات من الأميال .

« هل هناك أمر آخر؟» سألها كروم، فأجابت « نعم... « ثم ترددت قليلا في الحديث، فما سوف تقوله قد يظهرها بمظهر الحمقاء، « أريد أن أعرف عن تلك الفتاة، ولماذا حاولت قتل أبي» .

تبخرت الابتسامة الباهتة عن وجه كروم تماما بمجرد أن سمع ما قالته، ثم أجاب : « لم يجد أبوك أنه من المناسب أن يخبرني شيئا عن تلك الفتاة . ليس لدي أية فكرة عن السبب الذي جعلها ترغب

بشدة في قتله «

« هل تظن أن للأمر علاقة بميدوسا؟ «

رمقها كروم بنظرات أكثر برودة، ثم : « هذا الأمر لايخصك .... ماالذي قاله لك فالانتاين بالضبط ؟ «

« لم يقل لي شيئا ... لكني استطعت أن أرى بوضوح شديد أنه خائف، وأريد أن أعرف سر خوفه هذا، لأن ... « .

قاطعها كروم بحدة وقد هب من مقعده متجها ناحيتها، وقبض بكفه النحيل على كتفها بحزم: « اسمعي أيتها الطفلة .... لو أن فالانتاين قد أخفى عنك أسرارا فإن ذلك لأسباب وجيهة . فلديه جوانب من عمله لن تستطيعي فهمها. وتذكري جيدا، لقد بدأ والدك من لا شئ، كان مجرد جامع للمخلفات في العراء، إلى أن شملته باهتمامي، فهل تريدين أن يعود كما كان ؟ أو ربما أسوأ ؟
»

شعرت كاثرين حينها وكأنه قد قام بصفعها، واشتعل وجهها بحمرة الغضب، لكنها تمكنت من التحكم في أعصابها .

« عودي إلى المنزل، وانتظري رجوع أبيك، واتركي أمور الكبار لمن يفهمونها . ولا تتحدثي إلى أي مخلوق عن الفتاة أو عن ميدوسا « .

أمور الكبار ؟ كم يظنني أبلغ من العمر ؟ .... تساءلت كاثرين في سرها وهي تتميز غضبا، إلا أنها أحنت رأسها وقالت في خضوع :
« حسنا سيدي العمدة ... هيا بنا يا (كلب) « .

« ولا تجلب معك ذلك الحيوان إلى قمة الطبقة مرة ثانية « قالها

كـروم صـائحا، حتـى أن صـوته قـد بلـغ مسـامعها عنـد المكتـب الخارجي، فالتفت إليها السكرتارية يحدقون في وجهها الغاضب الباكي.

استقلت كاثرين المصعد عائدة إلى ميدان كويرك، ثم همست في أذن ذئبها: « سوف نريه يا (كلب) « ؛ وبدلا من أن تتجه مباشرة إلـى منزلـها، دخلـت إلـى معبـد كلـيو الكائـن عنـد أطراف حديقـة الميـدان . وهنـاك، فـي الظـلام المعطـر للمعبـد، جلسـت تهـدئ من روعها وتحاول التفكير في الخطوة التالية.

منــذ أن تـم إعـلان نـيكولاس كويـرك كإلـه، كـف أهـل لنـدن عـن الاهتمـام بالآلـهة والإلهات القديمة، فجعلت كاثرين ذلك المعبد مكانها الخاص، فقد كانت كليو إلهة أمها في برتو آنجليس، بل تمثالها كان يشبه أمها إلى حد بعيد، بعينيها الداكنتين الوديعتين، وابتسامتها الصبورة .

وتذكرت كاثرين ما علمتها إياه أمها حول كيف أن الإلهة المسكينة قـد تقهقرت للـوراء كثيرا مع طـوفـان التقدم، وكيف أنها سـوف تعود يوما من جديد لتلهم الناس وتغير وجه التاريخ .

رفعت كاثرين وجهها نحو الوجه الوادع لتمثال كليو وحدثتها: « مـالـذي علـي أن أفعلـه يـاكليو ؟ كـيف لـي أن أسـاعد أبـي إن لم يخبرني العمدة بأي شئ ؟»

لم تكن تتوقع تلقي إجابات عن أسئلتها، وبالفعل لم تتلق شيئا، فقامت بتلاوة صلوات سريعة لأجل أبيها، كما صلت لأجل ذلك المسـكين تـوم ناتسـورثي، وقـامت بتقـديم قربانها، ثم غادرت

المعبد.

وفــي منتصــف الطــريق إلــى منزلـها، سـطعت الفكـرة فـي رأس كاثرين . فقد تذكرت فجأة كيف أنها في تلك الليلة المشئومة، وهي تهرع إلى حيث مكب النفايات، قد مرت بشخص كان يقف على الجانب المقابل : متدرب شاب من طائفة المهندسين؛ كان يبـدو ممتقع الوجه مصدوما لدرجة تجعلها على يقين من أنه ولابد قد شاهد ما حدث.

إنــدفعت كـاثرين نحـو منزلـها وفـي رأسـها فكـرة واحـدة : هـذا المتــدرب الشـاب ربمـا يملـك إجـابات، لـذا فعليـها أن تعـود إلـى الأحشاء وتعثر عليه ! فلربما استطاعت معرفة ماقد وقع دون الحاجة لمعونة ذلك العجوز الشرير ماجنوس كروم.

***

15 مستنقعات راست واتر / مستنقعات المياه الصدئة

ظل توم وهيستير يجدان السير طوال الليل، واستمر مسيرهما حتى مطلع الشمس، وقد بدت شاحبة خلف ضباب الصباح، ولم يتوقفا طوال سيرهما سوى للحظات قليلة لالتقاط الأنفاس. كان المشهد في تلك المنطقة مغايرا قليلا عن المنطقة التي اضطرا لعبورها منذ بضعة أيام، فقد كان المكان حولهما مليئا بالمستنقعات وبرك المياه الآسنة، حتى أنهما اضطرا للدوران حولها أكثر من مرة طوال طريقهما .

وقد لاحظ توم أنه، بالرغم من الآثار القديمة البادية لمسارات بعض البلدات، إلا أن الطريق قد بدا وكأنه ما من بلدة أو مدينة قد مرت عبره منذ عديد من السنوات .

« انظر. إنها شجيرات نامية »، قالتها هيستير وهي تشير نحو مجموعة من الأخاديد المليئة بالشجيرات، « حتى لو أن بلدة نصف متحركة قد مرت من هنا، كانت بلاشك ستقطع تلك الأشجار لتستخدمها كوقود « .

« ربما الأرض هنا رخوة بحيث لايمكن لبلدة أن تمر منها »، أجابها توم وهو غارق في الأوحال للمرة العشرين حتى خاصرته، ثم أنه تذكر الخارطة الضخمة لساحة الصيد، المعلقة في مدخل متحف لندن، حيث منطقة المستنقعات الشاسعة الممتدة عبر أميال وأميال، من الجبال المركزية وحتى شواطئ بحر خازاك؛ وقد تم تحديدها جميعا على الخارطة بعلامة تشير إلى أنها : [غير

ملائمة للمدن أو البلدات] .... « أظن أن تلك عي حدود مستنقعات راست ووتر، لقد سميت بذلك الاسم لأن مياهها ملوثة بالبقع الحمراء الناتجة عن تآكل معادن البلدات التي ضلت طريقها إلى هنا وغرقت في المستنقعات. لا يمكن لعمدة أي مدينة أو بلدة أن يجر بلدته إلى هنا إلا لو كان أحمق « .

« إذن فقد اتجه بنا ريلاند وآنا فانج إلى الجنوب أكثر مما كنت أحسب ....لابد أن لندن تبعد عنا الآن آلاف الأميال، وسوف نأخذ

أشهر طوال إلى أن نبلغها ثانية، كما سوف يكون جريك في أثري طوال الطريق» .

« لكنك تمكنت من خداعه وفررنا منه «.

« لن يظل منخدعا طويلا... سوف يلتقط أثرنا قريبا، وإلا فلماذا تظن أنهم يطلقون على نوعه : مطارد؟ «.

استأنفا مسيرهما، وصارت هيستير هي القائد، فظلت تتقدم وتتقدم، وتوم يسير ورائها دون راحة، عبر وديان ومستنقعات، حيث الهواء الشحيح والحشرات الطائرة تطن وتلسع على طول الطريق. وحينما اقترح توم ان يجلسا ليستريحا قليلا، أجابته هيستير بحدة أن : « افعل ما شئت. لايهمني أمرك «، فوجم وأطبق فمه، وقد بدأ يشعر بغضب شديد تجاهها، فبعد كل ما لقياه معًا، وبعد عونه لها في العراء، لازال لديها الاستعداد التام لأن تهجره وتمضي بعيدا، وتمنى حينها لو أن جريك قد أمسك بها، وفر هو مع فانج أو خورا، على الأقل كانا سيتركانه ليريح ساقيه المنهكتين قليلا.

إلا أنـه عنـد حلـول الظـلام، شعر بامتنان كبير لهيستير، فحينما أطبـق الظـلام أنيابـه علـى الكـون، وبـدأ الضباب يلوح له وكأنه أشـباح حـيوان المـاموث المـهول، وصـار صـوت حـفيف الأشـجار وكأنه وقع أقدام أحد المطاردين، حينها قررت هيستير البحث عن مكـان ملائـم للمبـيت فيـه حتـى الصبـاح، وبالفعل وجـدت مأوى مناسب بين الشجيرات.

ولاحقا، حينما قام من نومته مفزوعا على صوت بومة في الجوار، وجـد هيستير جالسة بجانبه تحرسهما في سكون، ثم طمأنته قائلة : « لابأس. كل شئ على مايرم « .

وبعد دقائق، وفي لحظة من لحظات الألفة التي تبدر منها من حين لآخر، كما لاحظ توم من قبل، قالت : « إنني أفتقدهما... أبي وأمي».

« أعلم، أنا أيضا أفتقد أبوي «.

« ليست لك عائلة في لندن ؟»

« لا» .

« ولا أصدقاء؟».

فكر قليلا ثم أجاب : « ليس حقا» .

مرت هنيهة ثم سألته : « من كانت تلك الفتاة ؟» .

«ماذا؟ أين؟ «

« في الأحشـاء، تلـك الليلـة. الفتـاة التـي كـانت بصحبتك أنت

وفالانتاين «.

« إنها كاثرين... إنها ..آ.. إنها ابنة فالانتاين».

أومأت هيستير قائلة : « جميلة هي « .

مرت فترة أخرى، حتى راح توم في النوم ثانية، بصورة أيسر هذه المرة، فحلم بكاثرين وقد جاءت على متن منطاد لإنقاذهما، فحملتـهما عـاليا وطـاروا إلـى حـيث الضـوء الكريسـتالي فـوق السحب.

وحينما فتح عينيه للمرة الثانية كان ضوء الفجر قد غزا السماء، ووجد هيستير تهزه لتوقظه قائلة : « أنصت!»، ففعل، وبالفعل التقطت أذناه صوتًا ليس كصوت الماء أو الأشجار من حولهما .

« أهي بلدة ؟ « سألها، آملا أن يكون الأمر كذلك.

« لا ... إنه محرك جوي «.

اقترب الصوت أكثر فأكثر، وفوق الضباب كانت مركبة استطلاع لـندنية تجـوب الآفـاق، فجمد كلاهما في مكانه آملين أن تفلح الأغصان المشتجنة في إخفائهما .

ابتعد صوت المحرك قليلا، ثم عاد واقترب ثانية، لقد كان يدور حـول منطقـة اختبائـهما، وهمسـت هيسـتير : « يمكـن لجريـك رؤيتنا»، ثم وجهت بصرها عاليا حيث الضباب الأبيض الكثيف : « أستطيع أن أشعر به وهو ينظر نحونا « .

« لا ..لا ... إن كنا لا نستطيع رؤية المنطاد فكيف له أن يرانا ؟ «

ولكن، في الأعلى، كان جريك قد قام بتحويل نظام الرؤية في عينيه إلى الأشعة فوق الحمراء، كما قام بتشغيل مجساته الحرارية، وبالفعل استطاع رصد هيئتين بشريتين تختبئان تحت الأشجار، فأمر الماحين أن : « اهبط بنا قليلا »، فدمدم الملاح متذمرا : « طالما أنك تستطيع رؤيتهما الآن جيدا، فلماذا لم تستطع أن تدرك أن ذلك البالون كان فارغا بدلا من اضطرارنا لمطاردته عبر نصف ساحة الصيد ».

لم يجب جريك، فما من شئ يحمله على تفسير تصرفاته لمثل ذلك الكائن الفاني !. لقد رأى أن البالون كان خاليا بمجرد أن عاود الأخير للارتفاع بين السحب، لكنه أبقى تلك المعلومة لنفسه، فقد كان سعيدا بسرعة بديهة هيستير شاو، وقرر أن يدعها تحيا لبضع ساعات أخرى على سبيل المكافأة .

أعاد جريك عيناه إلى وضعهما الطبيعي، وقرر أن يقتنص هيستير بالطريقة الأصعب، عبر الرائحة والصوت، وبالرؤية العادية، فقام باستدعاء وجهها في ذاكرته في حين كان المنطاد يهبط عبر الضباب نحو الأسفل .

***

« اجرِ» صاحت هيستير في توم بمجرد رؤيتهما للمنطاد وهو يهبط إليهما خارجا من بين الضباب، على بعد بضعة ياردات ليس إلا؛ جرت توم من ذراعه خارجين من مخبأهما الذي صار غير ذي جدوى، وانطلقا عبر الأرض الرخوة يتعثران في جذور الأشجار .

ومع كل خطوة يخطوانها كانت الأوحال تدخل في حذائيهما

والماء الآين يتناثر حولهما، لكنهما ظلا يعدوان هائمين على وجهيهما دونما وجهة محددة، إلى أن توقفت هيستر على حين غرة، فاصطدم بها توم من الخلف وسقطا أرضا. فمن فوقهما مباشرة كان المنطاد يتبعهما وقد امتد ظله الذي يحيط بهما من كل ناحية، وأمامهما كانت نقطتان خضراوان تقتربان نحوهما ...» هيستير «دوى الصوت المعدني .

بحثت هيستير سريعا حولها عن أي شئ يمكن أن تستخدمه كسلاح، حتى وجدت فرع شجرة قديمًا، فالتقطته من فورها : « لا تقترب ياجريك وإلا سوف أحطم هاتين العينين الخضراوين « .

« هلمي بنا « قالها توم وهو يحاول سحبها ليستأنفا الهرب.

« إلى أين؟ « سألته هيستير وقد حانت منها التفاتة سريعة نحوه قبل أن تعاود مواجهة جريك ثانية، والذي كان يقترب أكثر، فأحكمت قبضتها على سلاحها .

«لقد أبليت بلاءً حسنا ياهيستير، لكن الأمر قد انتهى « قالها جريك وهو يخطو بحرص فوق الأرض الطرية، ومع كل خطوة بقدمه المعدنية كانت الأبخرة تتصاعد من باطنها؛ ظل يتقدم نحو هيستير، ومن يديه المرفوعتان خرجت مخالب معدنية حادة .

«مالذي جعلك تغير رأيك في لندن ياجريك؟ كيف أصبحت رجل كروم ؟»

« أنت ياهيستير من قدتني إلى لندن «، قالها وقد افتر فمه عن ابتسامة، « كنت أعلم أنك سوف تذهبين إلى هناك، فقمت ببيع مجموعتي واستأجرت منطادا لأصل إلى لندن قبلك « .

« قمت ببيع مجموعتك ؟!!» رددت هيستير في ذهول، « جريك، لو أنك أردت إعادتي فلماذا لم تتبع أثري ببساطة ؟»

« لأنني قررت أن أدعك تعبرين أرض الصيد وحدك. لقد كان ذلك اختبارا « .

« وهل اجتزته؟»

تجاهل جريك سؤالها واسترسل: « وحينما وصلت إلى لندن، تم اقتيادي مباشرة إلى مقر الهندسة كما توقعت. أمضيت هناك ثمانية عشر شهرا في انتظار وصولك. لقد فككني المهندسون وأعادوا تركيبي عشرات المرات، لكن الأمر كان يستحق. ثم أنني عقدت صفقة مع ماجنوس كروم لقد وعدني بأن يمنحني أمنية حياتي ».

« أه. هذا أمر طيب» قالتها هيستير وهي لاتدري شيئا عما يتحدث عنه !

« ولكن يجب أولا أن تموتي ».

« ولكن..لماذا ياجريك ؟»

لكنها لم تتلق إجابة، فقد فوجئ الجميع بصوت طنين شديد يقترب، حتى أن توم ظن أن المنطاد سيترك جريك ويرحل دونه، لكنه حين نظر لأعلى وجد المنطاد كما هو، لكن الصوت الهادر كان آخذا في الاقتراب، حتى جريك قد بدا عليه الاضطراب، فحول انتباهه نحو مصدر الصوت، ومن تحت الأقدام كانت الأرض تهتز بشدة .

ثم، ومن بين الضباب، انفجر إعصار من الطين والماء، ومن ورائه ظهرت بلدة متحركة، شديدة الصغر، قديمة الطراز، تسير على ثمانية عجلات ضخام .

أجفلت هيستير وتراجعت للوراء، ورأى جريك التعبير على وجهها فاستدار لينظر خلفه، أما توم فقد انتحى جانبا وجر هيستير من الشال الذي حول عنقها دافعا إياها معه نحو مكان أكثر أمنا .

حاول المنطاد الفرار من أمام البلدة إلا أن عجلاتها الضخمة قد فجرته فحولته إلى حطام محترقة، وغرقت بقاياه في الأوحال .

وفي اللحظة التالية جاءهما صوت جريك من أسفل العجلة الأمامية للبلدة، يردد « هيستير »، قبل أن يختفي تحتها .

التصقا توم وهيستير ببعضهما البعض، وظلا يعدوان في كل مكان، فارين من طريق البلدة المتحركة بلاتوقف تجاههما، وهدير محركاتها يصم الآذان، والشرر يتطاير في كل مكان، ومن منصات المتابعة على سطح البلدة أطلت هيئات بشرية بدت صغيرة الحجم من على تلك المسافة، يتابعون ما يجري في الأسفل .

وبعد لحظات، وكما ظهرت البلدة فجأة، اختفت فجأة، تاركة الهواء من حولهما مفعما بالدخان ورائحة المعدن الساخن .

جلسا يلتقطان أنفاسهما، ومن حولهما كانت حطام المنطاد لاتزال مشتعلة، وعلى الأرض، حيث كان المطارد واقفا، تركت إحدى العجلات الضخمة حفرة غائرة سرعان ما امتلأت بالأوحال، ومن بركة الوحل تلك خيل إليهما وكأن يدا معدنية قد ظهرت ثم

اختفت ثانية، في حين انبعثت سحابة من البخار سرعان ما تبددت في الهواء .

« هل ... مات ؟» تساءل توم بصوت مرتعش .

« لقد سقط تحت عجلات بلدة، فلا أظن أنه سيكون بخير حال ! »

صمت توم وأخذ يفكر مليا : ماالذي كان يقصده جريك ب [أمنية حياته] ؟ أي أمنية تلك ؟ ولماذا يبيع مجموعته الحبيبة إليه ليأتي خلف هيستير إن كان كل ما يريده هو قتلها ؟.. للأسف لم يعد من سبيل لمعرفة الإجابة .

« ياللملاحين البؤساء ... لقد قضوا نحبهم .»

« لقد تم إرسالهم للمساعدة على قتلنا ياناتسورثي. لاداعي للشفقة عليهم» .

ظلا صامتين لبرهة من الوقت، يحدقان في الفراغ أمامهما، ثم تكلم توم من جديد: « ترى، ماالذي كانت تفر منه ؟ «

« ماذا تقصد ؟»

« تلك البلدة. لقد كانت تتحرك بسرعة كبيرة....لابد ان شئ ما كان يطاردها «

نظرت إليه هيستير قليلا، ثم بدأت تدرك مايعنيه ....

« آه. القصابين!»

وبم تمر لحظة حتى وجدا البلدة الثانية أمامهم. كانت أكبر من

البلدة الأولى، ذات عجلات ضخمة تشبه البراميل، وعلى فكها الفاغر ذي الأنياب تدلت عبارة : [التهام سعيد]

هذه المرة لم يكن ثمة وقت للفرار، فقامت هيستير بجر توم جرا، ورآها تصرخ فيه دون أن يتمكن من سماع ماتقول بسبب هدير المحركات الصاخب، ثم سرعان ما فطن لما تريده : « يمكننا أن نقفز إليها. افعل كما سأفعل ».

كانت البلدة تدنو أكثر فأكثر، وقد سدت عجلاتها الطريق عليهما تماما، وسرعان ما وجدا نفسيهما يرتفعان في الهواء فوق موجة عالية من الطين والماء بفعل الدوران المحموم للعجلات، إلى أن صارا فوق قمة الموجة العاتية. توقع توم أن يفقد حياته في أية لحظة، ثم رأى هيستير تصيح به مجددا وهي تشير نحو البلدة، وعلى ضوء أفران الصهر القادم من الأسفل، تمكن توم من رؤية الإفريز، فتمسكت به هيستير جيدا ورفعت جسدها فوقه، وتبعها توم الذي كادت ذراعاه تنخلعان عن مفصليهما، إلى أن تمكنت هيستير من الهبوط إلى سطح البلدة ثم سحبت توم إلى جانبها، فصارا في أمان أخيرا.

استغرق الأمر عدة دقائق إلى أن كفا عن الارتعاش، واسترخت عضلاتهما قليلا؛ كانا يبدوان وكأنما مجسمان صنعا من الوحل، فقد غطاهما الطين تماما والتصق بشعريهما ولطخ وجهيهما.

بدأ توم يضحك، غير مصدق أنهما لايزالان على قيد الحياة، وبدأت هيستير تشاركه الضحك. إنها المرة الأولى التي يسمعها فيها وهي تضحك، وفي تلك اللحظة شعر أنه قريب منها كما لم يشعر تجاه أي إنسان من قبل .

ومن بين ضحكاتها قالت له : « سوف نكون بخير.... سوف نكون على مايرام....دعنا الآن نستكشف البلدة التي فررنا إليها.»

***

أيا كانت تلك البلدة، فقد كانت صغيرة جدا، لاتعدو كونها مجرد ضاحية، وبينما كان توم يحاول تخمين كنهها، قامت هيستير بفتح مزلاج باب صغير يؤدي إلى الداخل، فوجدا سلما معدنيا، صعدا عبره إلى الأعلى، وعلى جانبيه كانت الحوائط الصدئة يتصاعد منها الدخان بفعل الحرارة القادمة من المحركات .

بدت البلدة الضئيلة لتوم وكأنها إحدى المستعمرات التي بنتها لندن أيام الماضي المجيد، حينما كانت الفرائس متوفرة بكثرة بحيث يمكن للمدن بناء مستعمرات تابعة لها؛ فإذا كان الأمر كذلك، فمن المحتمل أن تكون تلك الضاحية تملك قاعدة مركبات تجارية ورخصة هبوط في لندن.

ومع هذا فقد ظل الخاطر المزعج يؤرق عقل توم : أن الحمقى فقط هم من يجرون بلداتهم إلى تلك المستنقعات .... ماالذي يجعل أي بلدة تطارد بلدة أخرى إلى تلك البقاع المهلكة؟!

صعد توم وهيستير عبر السلم إلى أن وصلا إلى باب ثان، كان مفتوحا، فمرا عبره إلى سطح الضاحية، حيث الرياح الباردة تموج بين المباني المعدنية، في حين ترتج الألواح الأرضية مع حركة الضاحية المستمرة .

كانت الشوارع تبدو وكأنها مهجورة، لكن توم كان يعلم أن تلك

البلدات الصغيرة لايقطنها سوى بضعة مئات من السكان، فربما هم مشغولون حاليا في عنابر المحركات بالأسفل، أو يقبعون داخل بيوتهم حيث الأمان إلى حين انتهاء المطاردة .

ولكن .... كان هناك شئ ما في هذا المكان غير مريح بالنسبة لتوم، فهو لم يكن ضاحية صغيرة نظيفة كما كان يأمل، فقد كانت الأرضية والجدران صدئة تماما، أما المنازل المتداعية فقد كانت متقزمة بجانب المحركات المساعدة الضخمة التي تم اقتلاعها من بلدات أخرى وتثبيتها إلى تلك الضاحية كيفما اتفق، ووصلها بالمحركات الرئيسية عبر كابلات وأنابيب عملاقة تلتف حول المنازل وتخترق أرضية السطح عبر فتحات ضخمة في الألواح وصولا إلى عنابر المحركات.

أما خلف المنازل، حيث كان توم يتوقع أن يرى متنزهات البلدة ومنصات المتابعة الخاصة بها، كانت مجموعة من المدافع والحواجز الخشبية تحتشد وتحيط بأطراف البلدة .

أشارت هيستير إلى توم بأن يتبعها في صمت وهدوء نحو مؤخرة البلدة الغارقة في الضباب، وحينما وصلا إلى هناك وجدا أمامهما مبنى مرتفعًا خمنا أنه مبنى البلدية، فاقتربا أكثر، فوجدا لافتة مثبتة فوق مدخله تقول :

مرحبا في تونبريدج وييلز ذات ال ٥٠٠ ٤٦٧ ٢١٢ نسمة ولازالت في تزايد .

وفوق اللافتة ارتفع علم أسود تتوسطه جمجمة وبيضاء وعظمتان متقاطعتان !

فشهق توم : « ياكويرك العظيم. ...إنها ضاحية قراصنة !»

و فجأة، من كافة الشوارع الجانبية التي تحيط بهما، خرج عليهم عدد من الرجال والنساء، في هيئة رثة كضاحيتهم، تلتمع عيونهم بالشراسة، حاملين في أيديهم أكبر بنادق رآها توم في حياته .

***

بمجرد أن مضت ضاحية القراصنة في طريقها، عاد السكون والصمت من جديد إلى مستنقعات راست ووتر، ثمت لايقطعه سوى صوت بعض المخلوقات الصغيرة تتواثب بين الأوحال .

وفي إحدى البرك العميقة التي صنعتها العجلات وامتلأت بالوحل، بدأت فقاعات عدة في التكون على السطح، محدثة صوتًا كالغرغرة، ومن بين الطين بدأ الهيكل المتحطم لجريك يتخذ طريقه إلى السطح، إلى أن خرج من البركة الموحلة .

لقد سقط تحت عجلات البلدة إلى أعماق الحفرة الطينية، وقد انسحق هيكله تحت وطأة العجلات، وحينما خرج ثانية كانت ذراعه اليسرى تتدلى بجانبه عبر بضعة أسلاك مهترئة، وقد فقدت ساقه اليمنى القدرة على الحركة، أما عيناه فقد فقد إحداهما في حين صارت الرؤية في الأخرى مشوشة غائمة.

كما أدى به الحادث إلى أن فقد بعض أجزاء من ذاكرته، في حين طفا البعض الآخر إلى السطح؛ فبمجرد خروجه من بركة الوحل تذكر الحروب القديمة التي تم تصنيعه للمشاركة بها، وكيف أنه في حرب (التل العشرين)احترق بالكامل بعدما أصابته أسلحة تيسلا بطلقات نزلت كالصواعق، لكنه نجا رغم كل شئ، إنه آخر

أفراد نوعه، وقد نجا من كل المهالك التي تعرض لها، وكان يعرف جيدا أن هلاكه يتطلب بالتأكيد ماهو أقوى من السقوط تحت عجلات بلدتين .

وببطء بدأ يتلمس طريقه إلى تربة أكثر صلابة، ثم بدأ يتشمم الهواء من حوله، إلى أن أيقن أن هيستير لاتزال على قيد الحياة وأنها قد فرت هاربة .

شعر بفخر شديد بها. قريبا سوف تتحقق أمنية حياته، سوف يتمكن من العثور على هيستير من جديد، وسوف تنتهي وحدته الأبدية .

أدرك جريك أن الضاحية التي فرت هيستير على متنها قد تركت منطقة المستنقعات، لكنه يعرف أيضا أنه يسهل عليه تتبع أثرها إلى أن يصل إليها، حتى ولو كان بساق مشلولة وعين واحدة وعقل مشوش.

وفي وسط المستنقعات الخاوية، وقف المطارد جريك مطوحا رأسه إلى الوراء، ومن حنجرته المعدنية أطلق صيحة الصي مدوية تتردد أصداؤها في الفراغ.

***

16 صهاريج الفضلات

ظلت لندن تتحرك يوما بعد يوم، ماضية في طريقها، عبر القارة المعروفة رسميا باسم : أوروبا، وكأن صيدا عظيما يلوح لها في الأفق، ومع هذا فلم يرصد المراقبون على طول الطريق منذ التهام سالت هووك، سوى بضعة من بلدات جامعي المخلفات الضئيلة، ولم يتكبد كروم عناء اصطيادها .

وفي طبقات المدينة، بدأ أهل لندن يشعرون بعدم الارتياح، وصاروا يتهامسون فيما بينهم متسائلين حول ماهية مايهدف إليه العمدة من وراء ذلك التحرك الذي لاينتهي، فلم تسع لندن من قبل للتحرك بعيدا إلى هذا الحد، وبتلك السرعة .

وبدأ الكلام يتردد حول نقص الغذاء في المدينة، والحرارة المتزايدة التي تتصاعد من المحركات، التي صارت تعمل بلا هوادة، عبر ألواح المدينة، حتى تداول اللندنيون أنك إن أردت أن تقلي بيضة فليس عليك سوى وضعها على سطح الأرض في الطبقة السادسة !

أما في الأحشاء، فقد صارت شدة الحرارة مروعة، حتى أن كاثرين قد شعرت وكأنها تسير في فرن بمجرد أن دلفت خارجة من المصعد إلى طريق تارتاروس. إنها المرة الأولى التي تهبط فيها إلى تلك الدرجة من أعماق الأحشاء، وللحظة وقفت على عتبة المصعد مشوشة تماما جراء الضوضاء والظلام الضاربين أطنابهما في باطن الأحشاء؛ لقد تركت أشعة الشمس البهيجة والنسائم العذبة هناك في الأعلى، حيث الطبقة الأولى، أما في

الأسفل فقد كانت أصوات المحركات والأفران تدوي عاليا في صخب، في حين تمتد أمامها أوعية الوقود الضخمة في طريقها إلى الأفران .

للحظة شعرت كاثرين أنها تود أن تعود أدراجها إلى المنزل، لكنها كانت تعلم جيدا أن عليها تنفذ ما قد عقدت العزم على فعله، لأجل والدها، فأخذت نفسا عميقا ثم استأنفت طريقها .

لم يكن في أعماق الأحشاء مايشبه لندن العليا في شئ، فما من أحد يعرفها هنا.

وحينما سألت أحد المارة عن اتجاهات الطريق، عاملها بفظاظة وتجهم شديد، وبمجرد أن مرت من أمام جماعة من العمال الذين كانوا يتسكعون بين الطرقات في وقت راحتهم، شرعوا في مغازلتها بوقاحة، عبر الصفير والصياح : « مرحبا ياحلوتي « ... « حتى أن رجلا ضخم الجثة قد قام بدفعها جانبا بغلظة ليفسح الطريق لمرور جماعة من المحكوم عليهم بالسجن، مقيدين في الأصفاد .

وفي محراب يقع أسفل قنوات تمرير الوقود، تبدى تمثال [سووتي بيت] الأحدب، إله عنابر المحركات والمداخن .

اعتدلت كاثرين في مشيتها ورفعت ذقنها عاليا بما يوحي بقوة الشكيمة، قابضة بيدها على مقود (كلب)، شاعرة بالسرور أنها قد قامت باصطحابه معها إلى تلك الأعماق لحمايتها .

لم تحب كاثرين المكان، لكنها كانت تعلم جيدا أنه الموضع الوحيد الذي قد تجد فيه الحقيقة؛ فمع ارتحال والدها، وفقدان توم أو

موته، وعدم رغبة ماجنوس كروم في التحدث عن أي شئ، لم يتبق أمامها في لندن كلها سوى شخص واحد ربما يعرف سر الفتاة المشوهة .

لم يكن إيجاد المتدرب الشاب بالأمر السهل، لكن لحسن الحظ كان العاملون في مكتب السجلات الخاص بالأحشاء على أتم الاستعداد لإسداء خدمة لابنة ثاديوس فالانتاين، وقد أكدوا لها أنه لو كان أحد من المتدربين من عصبة الهندسة قد عمل في الأحشاء بالقرب من مكب النفايات في تلك الليلة، فلابد وأنه كان يشرف على العاملين من السجناء، ولو أن الأمر كذلك فلابد إذن أنه قد أتى من سجن الهندسة التجريبي الكائن في أعماق الأحشاء .

وبعد بضعة أسئلة أخرى للموظفين في المكتب، ورشوة لابأس بها لكبير العمال في الأحشاء، استطاعت كاثرين أن تحصل على اسم الفتى: بود .

والآن، وبعد أسبوع من مقابلتها العاصفة مع العمدة، هاهي في طريقها للتحدث مباشرة إلى الفتى .

***

كان سجن أعماق الأحشاء عبارة عن شبكة معقدة من المباني، في حجم بلدة صغيرة، يتجمع حول عمود ضخم.

سارت كاثرين متبعة الإرشادات التوجيهية للطريق، حتى وصلت إلى المبنى الإداري، وهو عبارة عن مبنى معدني كروي الشكل يرتفع فوق دعامات دائرية، يدور ببطء بحيث يمكن للمشرفين

متابعة سير العمل من نوافذهم .

وفي بهو المدخل المضاء بمصابيح النيون، جاء أحد المهندسين مسرعا نحو كاثرين : « ممنوع دخول الكلاب هاهنا « .

« إنه ليس بكلب، إنه ذئب »، قالتها ماثرين وقد ارتسمت على شفتيها أعذب ابتسامة ممكنة، فوثب الرجل إلى الوراء في رعب، في حين راح (كلب) يتشمم معطفه المطاطي .

كان رجلا ذا مظهر أنيق وفم صغير، وعلى رأسه الحليق تناثرت بقع الإكزيما. وكانت الشارة التعريفية على معطفه تفيد بأنه : [نيمو. مشرف بالأحشاء]

ابتسمت كاثرين له مرة ثانية، وقبل أن يبدي أية اعتراضات أخرى، أبرزت جواز مرورها الذهبي قائلة : « أنا هنا في مهمة خاصة بأبي، رئيس طائفة المؤرخين. وأريد أن أتحدث إلى أحد المتدربين لديك يدعى بود « .

نظر إليها المشرف نيمو في تردد قائلا : « لكن.... لكن،....»

« لقد جئت إلى هنا قادمة من مكتب ماجنوس كروم رأسا ... يمكنك التحدث إلى مكتبه والتأكد بنفسك إن أردت ...». كانت كاثرين تكذب بالطبع، لكنها ظلت هادئة ثابتة الجنان» .

« لا ..لا داعي. أنا متأكد من أن كل شئ على مايرام ..»

لم يطلب أحد من خارج العصبة مقابلة أي متدرب بها من قبل، ولم يكن نيمو مرتاحا للأمر، وغالبا هناك قواعد تقضي بذلك، لكنه في نفس الوقت لايرغب في الدخول في سجال شخص يأتي من

طـرف عمـدة لنـدن، لـذا طلب مـن كـاثرين الانتظار قليلا، واتجـه مسرعا إلى مكتب زجاجي يقع في الجانب البعيد من البهو، في حين وقفت كاثرين تنتظر، وتداعب رأس ذئبها، وتبتسم في أدب لأحد المارة من ذوي المعاطف البيضاء .

وبعد لحظات عاد إليها نيمو : « لقد حددت مكان المتدرب بود. لقد تم نقله إلى القسم ٦٠ « .

« حسنا فعلت سيد نيمو، هلا أرسلت في طلبه إذن ؟ «

« أخشى ان ذلك غير ممكن «، أجابها نيمو، الذي لم يستسغ فكرة أن يأخذ أوامر من مجرد ابنة أحد المؤرخين، وعلى أية حال، إن هـي أرادت مقابلـة الفتـى فـي القسـم ٦٠ فسوف يصطحبها إلى هناك : « اتبعيني «، قالها متقدما إياها نحو مصعد صغير، « القسم ال٦٠ في الأسفل، حيث قاع المدينة « .

القاع .... إنه المكان الذي تتجمع به شبكة المياه والصرف الصحي للندن، وقد قرأت كاثرين عنه في كتبها المدرسية، ومن ثم فقد أعـدت نفسـها لرحلـة طويلـة إلى الأسـفل؛ لكنها لم تكن تحسب حساب الرائحة !

كانت الرائحة بشعة لدرجة لاتطاق، غمرت أنفها بمجرد أن انفتح باب المصعد، حتى شعرت وكأنها تسير في مجرور.

« هذا هو القسم ال٦٠، إنه واحد من أكثر وحدات التجارب أهمية وإثارة لدينا» .

أخذ نيمو يشرح لها وهما يسيران في القاع، وقد بدا وكأنه لم

يلحظ الرائحة أساسا، « هنا يعمل السجناء. حيث يسهمون في تطوير بعض من أحدث طرق إعادة تدوير نفايات المدينة «

وقفت كاثرين لتلتقط منديلا ورقيا لتسد به أنفها، ثم تلفتت حولها لتجد أنها إنما تقف في قاعة ضخمة ذات إضاءة باهتة، وأمامها امتدت ثلاثة صهاريج هائلة الحجم، يفوق الواحد منها في مساحته، مساحة منزل كليو بالحديقة المحيطة به ؛وفي تلك الصهاريج كانت مادة صفراء بنية مثيرة للغثيان يتم صبها إليها من خلال شبكة من الأنابيب الممتدة عبر السقف المنخفض للقاعة، وكانت مجموعة من السجناء، يرتدون سراويل رمادية رثة، يقفون في الصهاريج يخوضون في المادة المقززة حتى صدورهم، يكشطون الزبد المتكون فوق سطح المادة بأداة كشط ذات يد طويلة .

« ماذا يفعلون ؟ وماهي تلك المادة ؟»

« إنها البقايا ياآنسة فالانتاين ... بقايا الغذاء التي يتخلص منها الجسم البشري بعد عملية التمثيل الغذائي، عبر شبكات الصرف «، أجابها نيمو وقد بدا أنه يشعر بالفخر!

« أنت تقصد ...فضلات ؟» قالتها كاثرين وقد بدا عليها الفزع.

« نعم. شكرا آنسة فالانتاين، إنها الكلمة التي كنت أبحث عنها .... دعيني أؤكد لك أنه لايوجد مايثير القرف في الأمر. فجميعنا ... آ... يستخدم المرحاض من حين إلى آخر ... أظنك الآن أدركت إلى أين تذهب ...فضلاتك ... إن شعارنا نحن عصبة المهندسين هو [صفر بقايا]، وبالتالي فإننا نعمل على معالجة وتحويل غائط

وفضلات سكان المدينة إلى وقود من أجل محركات لندن. والآن نجري التجارب حول تحويل تلك الفضلات إلى طعام لذيذ ومغذي. حاليا لايتغذى السجناء لدينا على أي شئ آخر، صحيح أن الوفيات مستمرة بينهم، لكنها مجرد مرحلة مؤقتة سوف نتجاوزها. أنا واثق من ذلك « .

مضت كاثرين في طريقها بصحبة نيمو، وأخذت تفكر : لقد هبطت إلى مدينة أخرى تماما، إنها مدينة الموتى التي لاتشرق عليها الشمس. أه ياكليو. لقد هبطت إلى أرض الموتى !

ولكن، حتى أرض الموتى التي لاتشرق عليها الشمس لايمكن أن تكون مريعة كهذا المكان.

كان السائل الكريه يهتز في الصهاريج حتى يكاد يلامس حوافها، مع الاهتزازات المستمرة المصاحبة لحركة لندن، في حين كانت أسراب الحشرات الطائرة تطن بلا هوادة، وتلتصق بوجوه وأجساد العمال الذين تلتمع رؤوسهم الحليقة بالعرق في الضوء الشحيح، وقد ارتسمت في أعينهم نظرات خاوية من أي تعبير، في حين كانوا يمارسون عملهم البغيض بكشط السطح الكثيف للسائل ثم صبه في أقماع تسير على عجلات يدفعها سجناء آخرون على طول جوانب الصهاريج؛ ومن حولهم كان المتدربون من عصبة الهندسة يشرفون على سير العمل، حاملين في يدهم العصي السوداء .

لم يكن ثمة كائن يشعر بالسعادة في هذا المكان، سوى (كلب)، الذي لم يكف عن هز ذيله طوال الطريق، والنظر إلى كاثرين وكأنه يود أن يشكرها على اصطحابه إلى هذا المكان ذو الرائحة

المثيرة .

قاومت كاثرين غثيانها ورغبتها في التقيؤ، والتفتت إلى نيمو تسأله : « من هؤلاء البؤساء؟»

« آه. لاتشغلي بالك بهم. إنهم عبارة عن حفنة من السجناء المجرمين. إنهم يستحقون ما هم فيه « .

« ماالذي فعلوه؟ «

« جرائم متنوعة. سرقات.. تهرب ضريبي.. انتقاد عمدتنا. إنهم يعاملون معاملة جيدة بالقياس لجرائمهم. والآن دعينا نر ما إذا كنا سنتمكن من العثور على المتدرب بود « .

في أثناء ذلك، كانت كاثرين ترقب الصهريج الأقرب إلى موضعها، حيث كان أحد السجناء قد توقف فجأة عن العمل وألقى بأداة الكشط من يده، ممسكا برأسه الحليق وكأنه يقاوم دوارا شديدا، وقد لاحظته واحدة من المتدربات المشرفات على العمل أيضا، فما كان منها إلا أن اعتلت حافة الصهريج وقامت بوخزه بعصاها السوداء، فانطلق شرار أزرق من موضع لمس العصا للرجل الذي صرخ وانقلب داخل الصهريج من هول الصاعقة، حتى اختفى أسفل سطح المادة السميك، وبالقرب منه وقف مجموعة من السجناء يطالعون ما يحدث دون أن يجرؤوا على التدخل لمساعدته .

صاحت كاثرين في ذعر وهي تلتفت إلى نيمو الذي يبدو أنه لم يلاحظ ما حدث : « افعل شيئا» .

وحينها جاء متدرب آخر يهرع نحو حافة الصهريج صارخا في السجناء آمرا إياهم بمساعدة زميلهم، فغاص اثنان أو ثلاثة منهم في الصهريج وقاموا بإخراجه، حيث انحنى ذلك المتدرب وقام بسحب الرجل إلى الخارج، وقد تناثرت بقع السائل على ردائه .

كان المتدرب الشاب يرتدي قناعا من الشاش على وجهه، مثل كثير من الملاحظين، إلا أن كاثرين قد تعرفت عليه فورا، وبجانبها سمعت نيمو يصيح : « بود» .

هرعت كاثرين ونيمو ناحية المتدرب الذي كان يجر السجين إلى حيث الممر المعدني بين الصهاريج، محاولا تنظيف وجهه من المادة المقرفة عبر أحد خراطيم المياه في الجوار .

أما المتدربة التي قامت بصعق الرجل فقد كانت تنظر ناحيته في اشمئزاز وتقول : « إنك تهدر المياه ثانية يابود « .

« ماالذي يحدث هنا أيها المتدربون؟ «، صاح نيمو موجها سؤاله إلى بود والمتدربة الأخرى، فردت قائلة : « لقد كان هذا الرحل يتلكأ في عمله، وكنت فقط أحاول حثه على العمل بصورة أسرع دون تباطؤ» .

« إنه محموم !» قالها بود مقاطعا، وقد رفع رأسه الذي تلطخ تماما بالمادة، « لاعجب إذن أنه لايستطيع العمل « .

جثت كاثرين على ركبتيها بجواره، فأدرك بود وجودها لأول مرة، فاتسعت عيناه من المفاجأة؛ وكان قد قام بتنظيف وجه الرجل تماما من الفضلات، فوضعت كاثرين يدها على جبينه تجس حرارته، فوجدته محموما بالفعل، وقد استطاعت أن تميز ذلك

حتى في ظل الحرارة الشديدة للأحشاء، : « إنه مريض حقا ... حرارته شديدة الارتفاع. يجب نقله إلى المستشفى «، قالتها موجهة حديثها إلى نيمو، الذي رد باندهاش : « مستشفى؟! ... لايوجد لدينا مستشفى هاهنا. إنهم سجناء ياآنسة فالانتاين، مجرمون. إنهم لايستحقون الرعاية الطبية « .

« سوف يصير حالة أخرى للقسم .ك. قريبا» قالتها المتدربة، فرمقها نيمو قائلا لها في صوت كالفحيح : « اصمتي ! « .

فتساءلت كاثرين : « ماالذي تعنيه بالقسم. ك. ؟»

لم يجب نيمو، في حين كان بود يرمقها، وقد خيل إليها أنه قد رأت الدموع تسيل من مقلتيه، إلا أنها خمنت أن ذلك ربما يكون عرقا وليس دموعا .

ثم نظرت إلى السجين التعس ثانية، والذي بدا أنه قد راح في نصف نومة .

كانت الأرض المعدنية صلبة جدا على الرجل، فخلعت كاثرين قبعتها وثنتها ثم وضعتها تحت رأس الرجل كوسادة، وقالت في غضب: « لايجب أن يبقى هنا ...إنه شديد الوهن ولن يقوى على العمل في صهاريجكم المريعة «.

« نعم. هو أمر مريع « قالها نيمو مؤيدا، « إن السجناء الذين يرسلونهم إلينا تلك الأيام شديدو الوهن. لو أن عصبة التجار يبذلون جهدا أكبر لحل مشكلة نقص الغذاء، لأمكن تغذية هؤلاء بحيث يصيرون أكثر صحة، أو لو تحركت عصبة الملاحين وكلفوا أنفسهم عناء البحث عن فرائس، لتغير الوضع .... عامة، أظن أنك

قد رأيت مايكفي ياآنسة فالانتاين ! لذا رجاء اطرحي ماتريدين من الأسئلة التي يريد والدك إجابات عنها على المتدرب بود، حتى أعيدك إلى الخارج «.

فنظرت كاثرين ناحية بود، الذي كان قد أماط القناع عن وجهه، فوجدته شابا وسيما على غير ماتوقعت، ذا عينين سوداوين كبيرتين، وفم مرسوم. حدقت فيه للحظة، شاعرة بالغباء، فها هو الفتى الذي قد أبدى قدرا عظيما من الشجاعة وهو يحاول إنقاذ الرجل التعس، ثم تأتي هي لتسأله عن أمر بدا لها تافها إلى حد ما بالمقارنة لما وقع أمامها منذ لحظات .

« أنت آنسة فالانتاين. آنسة. أليس كذلك؟» قالها بود في عصبية، في حين كان (كلب) يتشمم أصابع الرجل المريض المسجى أمامهم.

فأومأت كاثرين : « لقد رأيتك في الأحشاء في تلك الليلة، يوم التهمنا سالت هووك، بالقرب من مكب النفايات أظن أنك قد شاهدت الفتاة التي حاولت قتل أبي. هلا حكيت لي كل ما تتذكره عن تلك الليلة «.

حدق بود فيها، مفتتنا بخصلات الشعر الداكن المنسدل على وجهها، ثم أشاح ببصره عنها قائلا : « لم أر شيئا ياآنسة. أعني أنني قد سمعت صياحا فهرعت لتقديم المساعدة، ولكن مع كل الدخان المنبعث، لم أستطع تمييز أية أشخاص «.

« هل أنت متأكد؟ .... الأمر جد خطير « قالتها كاثرين متوسلة، إلا أن بود قد هز رأسه، متفاديا النظر في عينيها : « آسف» .

فجأة، شهق الرجل الممدد على الأرض شهقة عالية، فالتفت الجميع نحوه، فوجدوه قد أسلم الروح، وقد استلزم الأمر برهة من الوقت حتى استوعبت كاثرين أنه قد مات .

« أرأيت؟ قلت لك إنه سيكون من نصيب القسم. ك. « قالتها المتدربة، في حين نخس نيمو الجثة بطرف حذائه، وقال : « خذه بعيدا أيها المتدرب «.

كانت كاثرين ترتعش من هول مارأت، غير قادرة حتى على البكاء، وتمنت لو أنها تستطيع فعل أي شئ لأحل هؤلاء التعساء : « سوف اخبر أبي بكل ماحدث حينما يعود .. وعندما يعرف مايجور في هذا المكان البشع ...سوف.... « ولم تستطع استكمال حديثها، وفي قرارتها كانت تتمنى لو لم تأت إلى هنا .

وبجانبها سمعت بود يهمس : « آسف آنسة فالانتاين «، لكنها لم تكن تدري أهو يأسف لكونه لايستطيع مساعدتها فيما جاءت بشأنه، أم يأسف لكونها قد عرفت حقيقة الحياة الدائرة تحت لندن .

بدأ نيمو يفقد صبره : « أنسة فالانتاين. عليك أن تغادري الآن. لايجب أن تكوني هنا، وعلى والدك أن يرسل عضوا رسميا من عصبته إلى المتدرب بود. ولكن، ماالذي يريد معرفته بالضبط من الفتى؟»

« أنا قادمة «، ثم أنها فعلت الشئ الوحيد الذي أمكنها فعله للمتوفى، قامت بتسبيل عينيه برفق.

ومع مغادرتها المكان، همس بود ثانية : « آسف».

17 ضاحية القراصنة

في تلك الليلة، في أعماق مستنقعات راست ووتر، تمكنت ضاحية تونبريدج ويلز أخيرا من اصطياد فريستها التي ظلت تطاردها، سقطت البلدة المنهكة في حفرة، فصدمتها الضاحية في طريقها، دون أن تكلف نفسها عناء إبطاء سرعتها ولو قليلا. تفسخت البلدة في لحظات، وسقطت شظاياها لتمطر شوارع الضاحية، التي استدارت عائدة لابتلاع بقايا فريستها .

ومن قفصهما في أحشاء الضاحية، أبصر توم وهيستر في رعب قواطع الضاحية وهي تمزق البلدة إلى شرائح وقطع، دونما حتى أن تكلف الضاحية نفسها عناء انتظار مغادرة الناجين للبلدة المنتهكة، ومن تمكن منهم من النجاة كان يسقط في يد القراصنة الذين كانوا في انتظار أسراهم، فمن وجدوه منهم شابا فتيا وافر الصحة، قاموا باقتياده إلى أقفاص مماثلة للقفص الذي يقبع به توم وهيستير، أما من وجدوه عليلا أو عجوزا، فقد قاموا بقتله على الفور وإلقاء جثته مع ركام الحطام عند مدخل عنابر الهضم .

« ياكويرك العظيم. إن ذلك لأمر فظيع. إنهم ينتهكون كل القوانين الداروينية ....»

قالها توم هامسا وهو يرتعد، فأجابته هيستير : « إنها ضاحية قراصنة ياناتسورثي ... فما الذي كنت تتوقعه منهم ؟! إنهم يقنصون فرائسهم بأسرع ما يمكنهم، ويجعلون من أسراهم عبيدا يعملون في عنابر المحركات، ولا يضيعون الطعام أو المساحات في تغذية وإيواء من كانوا أضعف من أن يعملوا. والحق أن

الوضع لايختلف كثيرا عما تفعله لندنك الغالية ! على الأقل لدى هـؤلاء القراصـنة الصـراحة والوضـوح الكـافيين لـيعترفوا أنـهم قراصنة «.

فجأة لمح توم أطراف الرداء القرمزي لعمدة القراصنة، يتحرك بـالقرب مـن عنـابر الهضـم، حـيث جاء ليتفقد صيدهم الجديد، محاطا بحرسه .

كان عمدة تلك الضاحية رجلا ضئيلا صغير الحجم، محدودب الظهر، محني الكتفين، ذا رأس أصلع وعنق نحيل يخرج من بين ياقة ردائه الموشاة بفراء القط. ولم يكن الرجل يبدو ودودا على الإطلاق، « إنه يبدو كعجوز جشع أكثر منه عمدة ! »، همس توم وهو يشير إليه، متسائلا : « ماذا تظنين أنهم بنا فاعلون ؟»

« أعتقـد أنـهم سـيلقون بنـا للعمـل فـي عنـابر المحركـات...»، ثـم توقفت عن الكلام بغتة وهي تحدق في العمدة بتفرس، وكأنه أعجب شئ رأته في حياتها !، ثم إنها قربت رأسها من قضبان القفص وبدأت تصيح : « بيفي ... أنا هنا « !

فسألها توم الذي بدا مضطربا : « هل تعرفينه ؟ هل هو صديق لك ؟... هل هو شخص جيد ؟ «

« لـيس لـي أصدقاء... وهـو لـيس شـخصا جيدا، بل إنه لايعرف الرحمة على الإطلاق. إنه يقتل الحيوانات، بل لقد رأيته بأم عيني يقتل بشرا لمجرد أنهم نظروا إليه بطريقة ساخرة نوعا؛ لنأمل أن يكـون الصـيد الجـديد قـد جعلـه فـي مزاج جيـد ....»، ثـم بـدأت تصيح من جديد : « بيفي ..هنا ... أنا هيستير شاو ..»

هنا استدار الرجل تجاه القفص وقد عبس بوجهه.

« اسمه كريسلر بيفي، توقف في ستروول عدة مرات للتجارة حينما كنت لاأزال أحيا مع جريك، وكان حينها عمدة بلدة أخرى لجامعي النفايات. الآلهة وحدها تعلم كيف صار عمدة ضاحية كهذه. والآن اصمت تماما ودعني أتحدث أنا إليه «.

صمت توم، وشرع يتفحص كريسلر بيفي وهو يدنو متبخترا من قفصهما. كانت الأضواء المنبعثة من أفران الصهر تنعكس على فروة رأسه التي لمعت بالعرق؛ وكان الرجل مشعرا جدا وكأنما يعوض صلعه بكل هذا الشعر : ذقن مشعثة.. شعيرات رمادية تخرج من أذنيه وأنفه .. زوجان من الحواجب الكثة ...ومن عنقه تدلت قلادة العمودية، وعلى أحد كتفيه استقر قرد نحيل.

« من هؤلاء؟»، سمعا العمدة وهو يتساءل مشيرا ناحيتهما.

« إنهما اثنان من المرتحلين ياسيدي... أقصد..جلالتك «، أجابته واحدة من حراسه، وهي امرأة ذات شعر طويل مجدول على شكل قرنين كبيرين معقوفين، في حين أكمل حارس آخر : « لقد جاءا إلى متن الضاحية أثناء المطاردة جلالتك « ...كان هذا الحارس تحديدا هو من أشرف على عملية القبض عليهما؛ وفي تلك اللحظة كان يرتدي معطف توم الذي كان قد قام بانتزاعه عنه عنوة، « وقد حصلت على هذا المعطف من أحدهما ...»

أومأ بيفي وهم بمغادرة المكان، إلا أن هيستير بدأت تصيح من جديد منادية إياه : « بيفي. إنه أنا»، وأخيرا بدا في عينيه أنه قد تعرف عليها، فصاح : « ياللعجب! إنها طفلة الرجل المعدني !»

« إنك تبدو على خير حال يابيفي »، قالتها هيستير، وقد لاحظ توم أنها لم تحاول إخفاء وجهها عن القراصنة، وكأنها ارتأت أنه لاينبغي أن يلحظ عليها هؤلاء أي علامة تنم عن ضعف من أي نوع.

« ياللعجب! إنه أنت حقا، مساعدة المطارد الصغيرة. لقد كبرت وصرت أقبح من ذي قبل ! أين هو جريك العجوز ؟ »

« مات ».

« مات؟ أكان ذلك جراء مرض معدني ؟ »، قالها ثم شرع يقهقه، فشاركه حراسه الضحك تملقا، حتى القرد على كتفه، بدأ يصدر أصواتا صاخبة ويحرك فكه وكأنما يشاركهم الضحك .

« كيف صرت حاكما لتونبريدج وييلز ؟ ..آخر مرة سمعت عن هذا المكان، كان لايزال ضاحية لها احترامها تمارس الصيد في الشمال عند حدود الجبال الثلجية » سألته هيستير، وكان لايزال يهتز ضحكا حتى دمعت عيناه، فمال ناحية القضبان وقال : « كانت ضاحية متألقة. أليس كذلك ؟. لقد التهم ذلك المكان بلدتي منذ عامين. اقتفوا أثرنا، ثم هجموا علينا بغتة؛ لكنهم كانوا متساهلين، واستخفوا بي وبأولادي ورجالي، فخرجنا من الأحشاء، واستولينا على المكان برمته، فقمت بإرسال العمدة ومجلس بلدته إلى المواقد، واستحوذنا على منازلهم المريحة ومجلس الضاحية، والضاحية برمتها .

والآن، لم أعد جامعا للمخلفات، بل صرت عمدة ميسورا ....جلالة كريسلر بيفي في خدمتك ! « .

ارتعد توم وهو يتخيل الأمور الشنيعة التي لابد أنها قد جرت أثناء استيلاء بيفي على الضاحية، أما هيستير فقد أومأت تجاه الرجل وكأن ما حكاه قد أثار إعجابها : « تهانينا ... إنها ضاحية جيدة وسريعة. أعني أنها جيدة البناء. ولكنك تخاطر بها في حال لم تتوقف فريستك في المكان المناسب، لأنك بهذا قد تضطر للدخول إلى قلب مستنقعات راست ووتر والغرق في أوحالها « .

« هذا لا ينطبق على تونبريدج ويلز ياعزيزتي. هذه الضاحية استثناء، فالمستنقعات والبرك لاتخيفنا. هناك الكثير من البلدات المغرية التي تختبئ بين المستنقعات « .

« وماذا عن إطلاق سراحنا إذن؟ ... مع كل تلك الفرائس التي تريد اصطيادها، ربما تحتاج إلى اثنين من المعاونين في الأعلى على السطح « .

ضحك بيفي ساخرا مما قالته : « ها ها ها. محاولة جيدة ياهيستي، لكن للأسف جانبك الحظ. فالفرائس قد صارت قليلة خلال العامين الأخيرين، وقد صرت في حاجة لكل المؤن والغنائم لإطعام هؤلاء الرجال وإرضائهم، وبكل تأكيد هم لن يكونوا راضين إن رأوا أنني آتي إليهم بوجوه غريبة على متن ضاحيتهم ليشاركوهم الغذاء، خاصة لو كانوا ذوي وجوه بشعة كوجهك «، ثم قهقه ضاحكا من جديد وهو يتلفت حوله نحو رجاله ليتأكد من أنهم يجارونه في الضحك .

« لكنك تحتاج إليّ يابيفي ... أنا لست لينة العريكة، بل إنني أكثر خشونة وصلابة ربما من أكثر من نصف أفضل رجالك .. ويمكنني أن أكافح من أجل إيجاد مكان لي في الأعلى لو تطلب الأمر «.

« آه. حسنا. يمكنني الاستفادة منك، ولكن ليس في الأعلى، وإنما في عنبر المحركات. آسف هيستي ! «، قالها ثم استدار مغادرا المكان وهو يصدر أوامره للمرأة ذات القرون :

« قوديهما ياماجس، وخذيهما إلى بوتقة العبيد « .

تهاوت هيستير في قنوط على أرضية القفص، فربت توم على كتفها، لكنها هزت كتفها نافضة كفه عنها، فنظر تجاه بيفي الذي كان يسير في تبختر وخيلاء عبر عنابره الملطخة بالدماء، في حين كان قراصنته يقتربون من القفص حاملين البنادق والأصفاد.

ولدهشته، كان توم يشعر بالغضب أكثر من شعوره بالخوف؛ فبعد كل مامروا به، هاهم على وشك أن يصبحوا عبيدا ! هذا ليس عدلا !

ودون أن يدري بما يفعل، وجد توم نفسه واقفا ممسكا بالقضبان اللزجة، وبصوت حاد رفيع، غريب حتى على أذنيه هو، طفق يصرخ عاليا : « لاا» .

التفت بيفي حوله رافعا حاجبيه، وقد اعترته الدهشة ...

« لااا .... أنت تعرفها جيدا، وقد طلبت منك المساعدة. كان عليك أن تساعدها. أنت مجرد رجل جبان، تلتهم البلدات الصغيرة التي لاتقوى على الفرار، وتقتل البشر، وتستعبدهم، فقط لأنك تخشى رجالك، تخشى أن يغضبوا عليك إن أنت مددت يد العون لغيرك « .

رفعت ماجس والباقون بنادقهم ونظروا لبيفي منتظرين إشارة

منه ليفتكوا بالسجين الوقح ويمزقوه إربا، إلا أن بيفي ظل جامدا في مكانه يحدق في الفتى، ثم عاد ودنا منه في تؤدة: « ماذا قلت ؟ «

تراجع توم إلى الخلف، وحينما حاول التكلم، أبت الحروف أن تخرج من فمه !

فسأله بيفي : « أنت من لندن. أليس كذلك ؟ .... إنني قادر على تمييز لكنة لندن أينما سمعتها. كما أنك لست من نيزربروغز. قل لي، من أي طبقة في لندن جئت ؟»

« الطبقة الثانية «، أجاب توم متلعثما.

« الطبقة الثانية ؟»، كررها بيفي وهو ينظر حوله إلى مرافقيه، : « هل سمعتم هذا ؟ إنه من لندن العليا تقريبا. هذا الفتى هو أحد السادة المهذبون من لندن العليا. كيف تريدين أن تلقي بهذا الشاب الراقي في بؤر العبيد ياماجس ؟! «

« لكنك أنت قلت ... « تمتمت ماجس محتجة، إلا أن بيفي قاطعها صارخا : « لايهم ماقلته .. أخرجوه ! «

فقامت المرأة ذات القرون بمعالجة أقفال القفص، فانفتح الباب، وانقض القراصنة على توم ساحبين إياه إلى خارج القفص، إلا أن بيفي أزاحهم عنه بسرعة، ثم شرع في نفض الغبار عن ملابس توم في نوع من التهذيب الخشن، مدمدما : « ليست تلك هي الطريقة المناسبة في التعامل مع السادة المهذبين. ياسبانر، أعد إليه معطفه. «

« ماذا ؟!! « صاح سبانر - القرصان الذي استول على معطف توم - « لايمكن »، فما كان من بيفي إلا أن سحب بندقية وقام بإطلاق النار على الرجل، فأرداه قتيلا، وهو بعد يردد صارخا : « قلت أعط للسيد المهذب معطفه »، فهرع الآخرون يخلعون المعطف عن الجثة الملقاة التي تحدق بذهول في الفراغ، وقاموا بوضعه على كتفي توم، أما بيفي فقد أخذ يربت على موضع الرصاصة في الجسد المسجى أمامه : « آسف على إسالة دمائك. «

ثم وجه كلامه إلى توم : « هؤلاء الرجال لاأخلاق لهم، ولايجيدون التعامل، ولتسمح لي أن أعتذر بشدة عن سوء الفهم الذي وقع، وأن أرحب بك على متن بلدتي المتواضعة. إنه لشرف لي أن أستقبل سيدا راقيا مثلك أخيرا. وإني آمل ياسيدي أن تصحبني لنحتسي شاي مابعد الظهيرة في مبنى البلدية. «

كان توم في ذهول تام، وقد نظر إلى الرجل فاغرا فاه. لقد أدرك أخيرا أنه ليس ذاهبا إلى حتفه، لكن تناول شاي مابعد الظهيرة مع الرجل كان آخر ما يمكن له أن يتوقعه .

وبمجرد أن بدأ الجمع في التحرك، تذكر توم هيستير التي كانت لاتزال قابعة في القفص : « أنا لن أتركها هنا « .

« من ؟ هيستير ؟ «

« نعم. لقد مضينا في رحلتنا معا .. إنها صديقتي « .

« دعني أؤكد لك أن تونبريدج ويلز تعج بالفتيات، وكلهن أجمل كثيرا منها، على الأقل لديهن أنوف وملامح كاملة. بل إن ابنتي الجميلة سوف يسعدها مرافقتك « .

« لا أستطيع ترك هيستير ورائي » قالها توم بكل ما أوتي له من حزم وصرامة، فأومأ العمدة بأدب وأشار لرجاله بأن يفتحوا القفص ويخرجوها .

***

في البداية ظن توم أن بيفي إنما يسعى إلى نفس ماسعت إليه الآنسة فانج من قبل، الحصول على معلومات عن الوجهة التي تتجه لندن إليها وما الذي دفعها للانطلاق نحو أرض الصيد المركزية .

ولكن، وبالرغم من كل الأسئلة التي طرحها بيفي حول حياة توم في لندن، إلا أنه لم يبد أي أي اهتمام بتحركات المدينة، وإنما كان سعيدا فقط باستضافة واحد من [سادة لندن العليا] على متن بلدته .

ثم أنه قام بأخذ توم وهيستير في جولة بمبنى البلدية، وقدم لهم مستشاريه وأعضاء مجلسه خشني المظهر : جاني ماجس... ثيك مانجو.. ستادسفيسر زيب ... بوجو نادجرز ... زيب ريسكي ... تراكشن جراد كيد.

ثم حان وقت الشاي، فاصطحب العمدة ضيفيه إلى مقره الخاص، وهو عبارة عن غرفة مليئة بالنفائس، تقع في الدور العلوي من مبنى البلدية، حيث يحيا أطفاله المشاغبون الذين يتدلى المخاط من أنوفهم .

جاءت ابنته الكبرى كورتينا حاملة الشاي في أكواب جميلة من

البورسلين، ومعه شطائر الخيار على صحفة زجاجية؛ كانت الفتاة ذات عينين زرقاوين رقراقتين، ويبدو على ملامحها الرعب الشديد، وحينما رأى والدها أنها لم تقطع الشطائر، قام بدفعها بعنف إلى الوراء حتى اصطدمت بخزانة الأطباق وأدوات المائدة، وصاح في غضب وهو يقذف بالشطائر في وجهها : « إنه من لندن... وكان يتوقع أن تقدمي له الشطائر في شكل أنيق. كان عليك أن تقطعيها على شكل مثلثات « .

ثم التفت إلى توم قائلا : « ماذا نفعل ؟! لقد حاولت تنشئتها لتصير سيدة راقية، لكنها لاتتعلم. إنها، رغم كل شئ، فتاة جيدة، وكثيرا ما أنظر إليها متمنيا لو أنني لم أقم بإطلاق النار على أمها ...»، قالها وأخذ يمسح عينيه بمنديل كبير عليه رمز الجمجمة والعظمتين المتقاطعتين؛ وبعد هنيهة عادت كورتينا وهي ترتعش رعبا، بشطائر أخرى .

« إنني لاأريد أن أظل قرصانا طوال حياتي ياتوم «، قالها بيفي بفم ملئ بشطائر الخيار.

« آهٍ. لا؟ «

« لا. كما ترى يابني، إنني لم أحظ بأي من المميزات التي تمتعت بها أنت حينما كنت طفلا، فأنا لم أحصل على تعليم أو أي شئ، ولطالما كنت قبيحا كريها، منبوذا ...»

« آه. لاتقل هذا « دمدم توم في أدب .

« كان عليّ دوما أن أكسب عيشي من وسط الغبار وركام البقايا والمخلفات، لكنني كنت أعلم أن ذلك سيتغير يوما وسأصير ذا

شأن آخر. لقد رأيت لندن في يوم ما، من على مسافة بعيدة، وقد اعتبرتها يوما أجمل مكان وقعت عليه عيناي، بطبقاتها المتعددة، وفللها البيضاء في القمة، تلمع في ضوء الشمس. ثم أنني قد سمعت عن أناسها الأثرياء الذين يحيون في الأعالي، وقررت أنني أريد أن أحيا حياة مماثلة لحياتهم الراقية، بحفلاتهم المفتوحة، وزياراتهم للمسرح، إلى آخر ذلك من مظاهر الرفاهية. لذا عملت كجامع للمخلفات، ثم صار لدي بلدة صغيرة أحكمها، والآن أصبحت عمدة تلك البلدة الأكبر من سابقتها؛ لكن... ما أريده حقا ... أن أكون محترما بين الناس».

« نعم. نعم، بالتأكيد « ردد توم مؤيدا ! وهو ينظر بطرف عينه إلى هيستير .

« هذا ما كنت أفكر فيه كما ترى. ولو أن رحلة الصيد الحالية تلك تمت كما آمل، فسوف تصبح تونبريدج ويلز ثرية قريبا. ثرية جدا. إنني أحب تلك الضاحية ياتوم، وأريدها أن تنمو وتترعرع. أريد أن يكون لها طبقات أعلى ذات حدائق ومنازل رفيعة المستوى ومصاعد تتنقل بين الطبقات. أريدها أن تصبح مدينة، مدينة كبيرة ثرية أكون عمدتها. وأنت ياتوم، أريدك أنت أن تدلني كيف تكون المدينة، أن تعلمني أخلاقياتها وطبائعها. أن تدربني على الإتيكيت وفنون التعامل الراقي، بحيث أكون مكافئا لعمد باقي المدن الكبرى، بحيث لا يسخرون مني ويتندرون عليّ من وراء ظهري. وبالمثل أريدك أن تهذب رجالي أيضا، إنهم يحيون كالخنازير. ما رأيك إذن ياتوم ؟ هل تقبل أن تحولنا إلى سادة مهذبين ؟ «

نظر توم إليه محاولا استيعاب الموقف، وقد استدعى إلى ذاكرته الوجوه الخشنة لرجال بيفي، وتساءل في سره حول رد فعلهم حينما يشرع في تعليمهم التصرف بلياقة، وأن يفتح أحدهم الباب للآخر، وكيف أن عليهم ألا يمضغوا الطعام وفمهم مفتوح ...

لم يدر توم ماذا يمكن أن يقوله للرجل، لكن هيستير قد أراحته من عبء الرد وتولت هي المهمة ...

« إنه يوم سعدك يابيفي، يوم أن أتى توم إلى متن بلدتك ... إنه خبير في فنون التعامل الراقي، بل إنه أكثر الأشخاص الذين قابلتهم في حياتي رقيا وتهذيبا، وسوف يعرفك كل ماتريد معرفته « .

« لكن ... « قالها توم مترددا، إلا أن هيستير قد لكزته في كاحله .

« ياله من أمر جميل ! « صاح بيفي في سعادة، « سوف تبقى مع كريسلر العجوز ياتومي العزيز ولن تذهب بعيدا. وسوف تبدأ عملك بمجرد أن نمسك بصيدنا الموعود السمين. إن فريستنا هناك على الجانب الآخر من المستنقعات، ومن المفترض أن نبلغها قبل نهاية الأسبوع « .

رشف توم من كوب الشاي الخاص به، وفي مخيلته استدعى من جديد خارطة ساحة الصيد العظيمة، والمساحة الضخمة للمستنقعات، ومن خلفها ....

« خلف المستنقعات؟ .... ولكن .... لايوجد بعد المستنقعات أي شئ سوى بحر خازاك !!»

« اهدأ يابني .. ألم أخبرك ؟ لقد قلت لك أن تونبريدج ويبلز استثنائية. فقط إنتظر وسوف تنظر ! ... انتظر وسوف « تبحر « ..

هل فهمتها ؟ هاهاها... قالها ضاحكا وهو يخبط على كتف توم، ثم ارتشف رشفة كبيرة من فنجان الشاي .

***

18 بفيز

بعد بضعة أيام تمكنت لندن من رصد فريسة جديدة، عبارة عن مجموعة من القرى المتحركة الصغيرة والتي تتحدث باللسان السلافي. كانت القرى تحاول الاختباء بين بعض التلال الجيرية، لكن محاولاتهم لم تسفر عن شئ؛ فقد أخذت المدينة تقتنصهم الواحدة تلو الأخرى، من هنا وهناك.

وعلى منصات المتابعة الأمامية تكدس نصف سكان لندن لمشاهدة الأحداث المثيرة في حماسة.

في تلك الأثناء، كانت القفار الموحشة لساحة الصيد الغربية تقع وراء لندن. لقد نسي الجميع اضطرابات الماضي، ومامن أحد يأبه الآن لمن ماتوا في نيزربوروغز ! .. فلتبارك الآلهة لندن، ولتبارك الآلهة كروم. إن مايدور الآن هو أفضل سلسلة من مطاردات الصيد منذ سنوات خلت .

انطلقت المدينة تطارد البلدات الأسرع إلى أن التهمتها، ثم استدارت عائدة للبلدات الأقل سرعة. وها قد مضى مايقرب من أسبوع، قبل أن تأتي لندن على آخر تلك البلدات فتلتهمها؛ كانت بلدة كبيرة تسير بوهن بعدما كانت قد تعرضت لهجوم عنيف من إحدى الضواحي المفترسة .

وفي ليلة الالتهام، أقيمت الاحتفالات احتفاءً بالصيد الموفق في كل متنزهات لندن؛ وقد ازداد المحتفلون حماسة وإثارة حينما لمعت حزمة من الأضواء بعيدة من جهة الشمال، وسرت الشائعات أن تلك الأضواء صادرة عن مدينة ضخمة لكن كسيحة،

وأن تلك المدينة هي الصيد الثمين الذي تم إرسال فالانتاين لاستطلاعه، وأن الإشارات القادمة عبر موجات الراديو من منطاد فالانتاين ربما تقود المدينة للشمال إلى حيث أكبر وجبة يمكن أن تحصل عليها على الإطلاق .

استمرت الألعاب النارية تلمع في سماء المدينة حتى الساعة الثانية صباحا؛ وقد قام شادليغ بوميروي - الذي يقوم مقام فالانتاين في رئاسة عصبة المؤرخين بالإنابة - بتخفيض رتبة هربرت ميليفانت إلى درجة متدرب من الدرجة الثالثة بعدما ترك إحدى ألعابه النارية في القاعة الرئيسية بالمتحف .

ولكن مع بزوغ الفجر، انتهت لحظات المرح وماتت الشائعات المتحمسة، فقد علم الجميع أن الأضواء الآتية من الشمال إنما تنتمي بالفعل إلى مدينة كبرى، لكنها ليست كسيحة على الإطلاق، بل على العكس كانت تتجه نحو الجنوب بأقصى سرعة، وكان يبدو أنها جائعة تتوق لاقتناص فريسة جديدة .

وقد تمكنت عصبة الملاحين من التعرف عليها، إنها مدينة بانزرستات بايريز، وهي عبارة عن إتحاد مكون من أربعة مدن متحركة كبيرة، لكنّ أحدا من سكان لندن لم يهتم بمعرفة أي شئ عنها، فقط كان الجميع يريدون الفرار منها والاختفاء من أمامها، فأطلقت لندن العنان لمحركاتها واتخذت سبيلها نحو الشرق، كي تفسح المجال لمرور الاتحاد الضخم، ولكن في اليوم التالي ظهرت الأضواء من جديد، على مسافة أقرب هذه المرة .

***

لم تشارك كاثرين فالانتاين في أي مما يدور في مدينتها في الآونة الأخيرة، فلم تحتفل مع أهل لندن بالصيد العظيم، كما لم تشاركهم رعبهم الحالي من المدينة المفترسة التي تقترب من لندن. فمنذ عودتها من أعماق الأحشاء لم تفارق غرفتها، وإنما قضت وقتها في الاغتسال! فقد ظلت تغتسل وتغتسل لتتخلص من الرائحة الشنيعة للفضلات والتي علقت بها من رحلتها في القسم ٦٠، كما أنها لم تأكل أي شئ تقريبا، وأمرت خدمها بالتخلص من كافة الملابس التي كانت ترتديها في ذلك اليوم، في صناديق إعادة التدوير .

بل إنها توقفت حتى عن الذهاب لمدرستها، فكيف لها بعد كل مارأت وعرفت، أن تجالس أصدقاءها من جديد وتستمع لأحاديثهم التافهة وكلامهم السخيف عن أحدث خطوط الموضة والشبان ؟!

وفي الخارج كانت الشمس تنشر ضوءها البهيج على الموجودات، حيث الأزهار تتفتح، والأشجار تورق باللون الأخضر ...ولكن، كيف لها أيضا أن تعاود الاستمتاع بكل هذا الجمال من جديد في لندن العليا، بعد كل ما شهدته هناك في القاع، حيث الآلاف من اللندنيين يقبعون في بؤس وعذاب ثم يقضون نحبهم، لمجرد أن يحيا بضعة من المحظوظين المرفهين مثلها في راحة ورفاهية هنا في الأعلى.

وفي لحظة من اللحظات، قررت كاثرين أن تكتب رسالة إلى الناس تبثها عبر شاشات المتابعة، ورسالة أخرى إلى الشرطة، تسرد فيهما كل ما رأت. وبالفعل قامت بكتابة الرسالتين، إلا أنها

عادت ومزقتهما تماما، فما من معنى من إرسال تلك الرسائل في الوقت الذي يتحكم فيه ماجنوس في كل شئ في لندن، بما فيها الشرطة وشاشات المتابعة، حتى كاهن كليو قد جرى تعيينه من جانب كروم.

وهكذا، لم تجد كاثرين بدًا من انتظار عودة والدها قبل اتخاذ أي تصرف حيال ما يدور في القاع، هذا بالطبع إن لم يتم التهام لندن حتى موعد عودته .

أمـا بالنسـبة لبحثـها عـن حقيقـة الفتـاة المشـوهة، فقـد وصـل الموضوع إلى طريق مسدود، فالمتدرب بود لايعرف شيئا - أو ربما يدعي ذلك - في حين لاتجد هي أي درب آخر لتسير فيه بحثا عن الحقيقة .

في صبيحة اليوم الثالث من محاولات لندن للفرار من بنزرستات بـايريث، وصـل إلـى منزل فـالانتاين خطـاب موجه إلـى كـاثرين. اندهشت كاثرين للأمر، ولم تكن تملك أدنى فكرة عمن يمكن أن يرسل إليها خطابا؛ فطفقت تقلب المظروف بين يديها، محدقة فـي طابع البريد الذي يحمل علامة الطبقة السادسة، والخـوف يتملكها !

وحينما قامت أخيرا بفتح المظروف، سقطت منه قطعة من الورق التقليدي المستخدم في لندن، وقد بدا أنها قد أعيد تدويرها عدة مرات، وعليها العلامة المائية : (صفر بقايا)

أما فحوى الخطاب نفسه فكان :

عزيزتي آنسة فالانتاين،

أرجو منك المساعدة، فهناك شئ يجب أن أخبرك إياه. سوف أكون في (بيتي إيتس) بمتنزه بيلسايز، بالطبقة الخامسة، اليوم في الساعة الحادية عشر صباحا .

إمضاء: صديق

لو أن تلك الرسالة كانت قد وصلتها قبل بضعة أسابيع لأثارت شغفها وحماستها كثيرا، أما الآن فهي لم تعد تملك المزاج الرائق للألغاز. لابد أن أحدهم يمزح معها، وهي لاتملك أي استعداد للمزاح في الوقت الحالي، وكيف لها ذلك والطبقات السفلى من لندن تضج بالعذابات والمآسي، في حين تسعى لندن ذاتها للنجاة من الموت !

قامت كاثرين بإلقاء الخطاب في سلة إعادة التدوير، وأزاحت إفطارها الذي لم تتناول أي شئ منه جانبا، وعادت إلى غرفتها لتغتسل من جديد.

ولكن، وبالرغم منها، تملكها الفضول حيال الخطاب. حينما حانت الساعة تمام التاسعة صباحا قالت لنفسها [لن أذهب]،

وفي التاسعة والنصف قالت لذئبها : « لامعنى للذهاب، فلن أجد أحدا على الإطلاق « .

ومع دقات العاشرة، تمتمت : « بيتي إيتس ! ... أي اسم هذا ؟ لابد أنه اسم ارتجله صاحب الخطاب « .

ثم بعدها بنصف ساعة، كانت كاثرين تقف عند المحطة في انتظار المصعد للهبوط إلى الطبقة الخامسة. بعد دقائق، خرجت

كاثرين من المصعد إلى لو هوربورن، سارت عند أطراف الطبقة الخامسة عبر الشوارع المعدنية مع (كلب)، وقد ارتدت أقدم ملابسها، ومشت مسرعة مطأطئة الرأس، فما عادت تفخر بشهرتها ولا بتطلعات الناس نحوها، وإنما صارت تتخيلهم ينظرون إليها ويقولون : إنها كاثرين فالانتاين. الفتاة الصغيرة من الطبقة الأولى. إن هؤلاء السادة لايدركون أنهم إنما ولدوا مثل باقي البشر .

وصلت كاثرين لحديقة بيلسايز، والتي بدت معزولة إلى حد كبير. كان الهواء ثقيلا محملا بأدخنة المحركات، أما الحديقة فقد آلت إلى قسم الزراعة منذ عدة سنوات لاستغلالها في زراعة الخضروات مكان أحواض الزهور، ولهذا لم تر كاثرين سوى عمال الزراعة الذين أخذوا يرشون المبيدات الزراعية بين صفوف نبات الملفوف لقتل حشرات الحقول.

وبالجوار، كان مبنى متداع، مخروطي الشكل، يحمل لافتة أعلى سطحه كتب عليها (بيتي إيتس) وأسفل الاسم كتب بخط أصغر أنه: (مقهى)، وبالفعل كانت بضعة طاولات معدنية تنتشر على الرصيف أمام بابه، وفي الداخل تراصت مزيد من الطاولات، حيث جلس رواد المقهى يتسامرون ويدخنون .

وبالقرب من الباب، كان شاب يجلس إلى إحدى الطاولات وحيدا، وقد هب واقفا من فوره بمجرد دخول كاثرين، وبدأ يلوح لها، فشرع (كلب) يهز ذيله في حين استغرق الأمر من كاثرين بضعة لحظات حتى أدركت أنه المتدرب بود.

« أنا بفيز »، قالها بود مبتسما في توتر في حين جلست كاثرين

أمامه « بفيز بود «

« أتذكرك «.

« سعيد بأنك قد أتيت. لقد أردت التحدث إليك منذ أن رأيتك في القسم ٦٠، لكني لم أكن أريد أن تدري العصبة بأنني على تواصل معك. إنهم لايحبون أن يتواصل أي منا مع من هم من خارج العصبة. لكن اليوم هو عطلة، حيث يعدون لاجتماع كبير. لذا تمكنت من المجيء إلى هنا، وكما ترين، لن تجدي كثيرا من المهندسين يتناولون طعامهم هاهنا « .

[لست متفاجئة !] قالتها كاثرين لنفسها وهي تطالع قائمة الطعام ذات الصورة الكبيرة الملونة التي تتصدرها وقد كتب عليها : وجبة سعيدة، أما الصورة ذاتها فكانت عبارة عن قطعة عجيبة من اللحم الوردي بشكل غير معقول، بين شطيرتي خبز من عجين الطحالب !

وضعت كاثرين القائمة العجيبة جانبا، وطلبت شاي النعناع، فجاءها في قدح بلاستيكي مزجج، وكان مذاقه أقرب إلى المواد الكيماوية منه إلى الشاي .

سألت مرافقها : « هل كل مطاعم الطبقة الخامسة على هذه الشاكلة؟ «

« بالطبع لا ... هذا المطعم أفضل كثيرا من الباقين « .

طوال الجلسة، لم يستطع بود أن يحول بصره عن كاثرين أو أن يكف عن تأمل خصلات شعرها. لقد أمضى حياته بالكامل في

كنف عصبة الهندسة في الأحشاء، ولم ير من قبل أحدا يملك شعرا على رأسه كشعرها، طويل، لامع، ينبض بالحياة والحيوية. تقول عصبة الهندسة إن شعر الرأس ليس له أهمية، وأنه لايعدو كونه من موروثات عصر سكنى الأرض المجردة؛ ولكن حينما رأى شعر كاثرين، بدأ يتساءل حول مدى صحة مايقولونه ...

« قلت إنك تحتاجين لمساعدتي ..» أخرجته كاثرين من استرسال أفكاره .

« نعم »، قالها وهو يتلفت حوله، ونظر وراء كتفه ليتأكد من أن أحد لايراقبهما، « الأمر يتعلق بما سألتني عنه. لم أستطع أن أخبرك بشئ حينها، في وجود نيمو، فقد كان لدي من المشاكل مايكفيني، حينما حاولت إنقاذ ذلك الرجل المسكين ..»

وبمجرد ذكر الرجل، اغرورقت عينا الفتى بالدموع مرة ثانية، وهو الأمر الذي أدهش كاثرين، أن تجد أحد أفراد عصبة المهندسين يبكي بتلك السهولة !

« بفيز.... الأمر ليس خطأك أنت « .... « والآن، ماذا عن الفتاة التي حاولت قتل أبي ؟ هل رأيتها؟ «

أومأ بفيز إيجابا، وقد استرجع تلك الليلة في ذاكرته، « لقد رأيتها تهرع من أمامي، وخلفها كان ذلك المتدرب من عصبة المؤرخين يعدو مطاردا إياها وهو يصيح طلبا للمساعدة، فهرعت خلفهما أنا الآخر. ثم رأيت الفتاة وقد بلغت مكب المخلفات. كان هناك شيء ما غير طبيعي في وجهها.. «

فأومأت كاثرين أن نعم، ثم : « أكمل كلامك « .

« سمعتها تصرخ في وجه المتدرب، لكني لم أستطع تمييز ما قالته بسبب ضوضاء المحركات، لكنها أتت على ذكر والدك، ثم أشارت لنفسها قائلة شيئا ما ثم : هيستير شاو. ثم قامت بالقفز من فتحة مكب المخلفات « .

« نعم، وقامت بجر المسكين توم معها « .

« كلا ياآنسة. لقد قفزت وحدها في حين ظل هو ثابتا في مكانه وقد بدا عليه الذهول وعدم استيعاب ما وقع أمامه؛ ثم تزايد تكاثف الدخان ولم أستطع رؤية أي شئ أكثر من ذلك. ثم أدركت بعد ذلك أن الشرطة قد جاءت وانتشرت في كل مكان، لذا انسحبت من المشهد، فلم يكن مسموحا لي أن أغادر موقت عملي من الأساس. ولهذا لم أستطع أخبار أي شخص بما رأيت « .

« لكنك تخبرني الآن « .

« نعم «، قالها بفيز وقد احمر وجهه خجلا .

] هيستير شاو] تردد الاسم في عقل كاثرين. لكن ذلك لايعني شيئا، إن ما سرده بفيز من تسلسل الأحداث لايتماشى مع ماسرده والدها، لابد إذن أن بفيز قد أخطأ بشكل أو بآخر .

في تلك الأثناء كان بفيز يتلفت حوله من جديد بعصبية، ثم همس قائلا : « هل كنت حقا تعنين ما قلت عن والدك؟ هل يمكنه بالفعل مساعدة هؤلاء المساجين ؟»

« سوف يفعل بالتأكيد حينما أخبره بما يحدث لهم .. أنا واثقة من أنه لايدري شيئا عنهم. بالمناسبة، لاداعي للألقاب معي، لاتناديني

بآنسة، أنا كاثرين. كيت « .

« حسنا. كيت « قالها وهو يبتسم، لكن ابتسامته تلك لم تكن لتخفي توتره .

« إنني أدين بالولاء للعصبة، ولا أريد أي شئ سوى أن أكون مهندسا. لكنني لم أتوقع أبدا أن يتم تعييني في سجن تجريبي، حيث يتم وضع البشر في أقفاص وجعلهم يعملون في الأحشاء ويخوضون في صهاريج مليئة بالفضلات. هذه ليست هندسة، إنه عمل كريه. إنني أفعل كل مابوسعي لمساعدتهم، لكن ماأستطيع فعله ليس بكثير، وكل ما يرغب فيه المشرفون أن يظل هؤلاء السجناء يعملون حتى الموت، ثم يقومون بإرسال جثامينهم قي حقائب بلاستيكية إلى القسم ك.، وبالتالي فهؤلاء البؤساء لايحظون بالراحة حتى بعد موتهم ».

« ماهو هذا القسم. ك؟ « سألته كاثرين وقد تذكرت كيف أسكت نيمو المتدربة الأخرى حينما أتت على ذكر ذلك القسم، « هل هو جزء من السجن؟»

« لا. إنه في الأعلى، في القمة بمقر عصبة الهندسة. إنه قسم للأبحاث والتجارب تديره دكتور تويكس « .

« وماطبيعة العمل الذي تستخدم فيه أجساد الموتى ؟ « سألته كاثرين في توتر، ولم تكن واثقة أهي تريد حقا معرفة الغرض من ذلك أم لا!

نظر لها بفيز وقد اعترى الشحوب وجهه، ثم قال : « هناك شائعات تدور حول الأمر، فبعض أعضاء العصبة يقولون إنها إنما تستخدم

تلك الأجزاء لصنع المطاردين : الرجال العائدين من الموت « .

« ياكليو العظيمة !» ارتاعت كاثرين مما سمعته لتوها، وفي ذهنها بدأت تسترجع كل ما تعلمته عن المطاردين. كانت تعرف أن أباها قد تمكن من استخراج بعض الهياكل لصالح عصبة الهندسة لدراستها، لكنه أخبرها أنهم مهتمون فقط بالعقول الكهربائية المحركة لهم. ولكن ... هل حقا يحاولون الآن صنع المطاردين ؟!

« لماذا؟ ... أعني أن هؤلاء المطاردين كانوا مجرد جنود، نوع من الأوعية البشرية التي تم تصميمها لأغراض الحروب القديمة .. «

« إنهم أفضل أنواع العمالة ياآنسة. فهم لايحتاجون لطعام أو مسكن أو ملبس، وحينما لايكون هناك عمل يؤدونه فإن كل ما عليك فعله هو إطفاء دائرتهم الكهربائية وتخزينهم في المستودع. تقول العصبة إنه في المستقبل سوف يتم إعادة كل شخص يموت من أهل الطبقات الدنيا، إلى ذلك النوع من الحياة للاستفادة منه، ومن ثم فلن تكون هناك حاجة للبشر العاديين الأحياء، فيما عدا المشرفين بالطبع « .

« لكن هذا أمر شنيع .... سوف تتحول لندن إلى مدينة الموتى !»

هز بفيز كتفيه قائلا : « إنها كذلك بالفعل في قاع الأحشاء. إنني أخبرك فقط بما سمعت، كروم يريد صنع مطاردين وهذا ماتعكف دكتور تويكس على تحقيقه باستخدام تلك الأجساد التي تردها من قسمنا «.

« أنا واثقة من أن أهل لندن لو علموا بهذا المخطط المريع فلسوف .....» .

ثم توقفت فجأة عن الكلام، فقد جاءها خاطر معين ... « هل لهذا المشروع اسم حركي معين أو شفرة ؟ هل يطلق عليه ميدوسا؟ «

ازداد وجه بفيز شحوبا بمجرد أن سمعها تردد الاسم، وصاح : « ياللآلهة !! ... كيف عرفت بميدوسا ؟..... لايفترض بأحد أن يعرف ذلك الأمر !»

« ولكن لماذا؟ وماذا تكون تلك الميدوسا إن لم يكن لها علاقة بمشروع العائدين من الموت؟ «

« إنها سر العصبة الكبير «، أجابها بفيز هامسا، « لايفترض حتى بالمتدربين أن يعرفوا بهذا الاسم. لكننا من حين لآخر نسمع المشرفين يتحدثون عنه. فبمجرد أن تقع المدينة في مأزق ما، يبدأ المشرفون في ترديد كلام من نوعية أن كل شئ سوف يكون على مايرام بمجرد إيقاظ الميدوسا ... أقربها هذا الأسبوع، حينما بدأ ذلك الاتحاد في مطاردتنا، ففي حين يتخبط الجميع في ذعر وقد سيطر عليهم هاجس أن لندن إنما تشهد نهايتها، تجدين كبار رجال العصبة يهمسون لبعضهم البعض أن : ميدوسا سوف تحل الأمر. ولهذا فإنهم سيقيمون ذلك الاجتماع الكبير في مقر الهندسة الليلة، حيث سيقوم ماجنوس كروم بالإعلان عن شئ ما يتعلق بهذا الأمر « .

شعرت كاثرين بالرعشة تعتريها وهي تفكر في مقر الهندسة وكل تلك الألغاز والأسرار العجيبة التي تتوارى خلف نوافذه السوداء. هناك، في ذلك المقر، ربما تجد حل لغز اضطراب والدها وسر خوفه ...ميدوسا! إن الأمر برمته يتعلق بصورة أو بأخرى

بالميدوسا .

قربت كاثرين رأسها من الفتى قليلا وقالت هامسة : « بفيز. اسمعني. هل أنت ذاهب لحضور ذلك الاجتماع ؟ هل يمكنك أن تخبرني بما سوف يقوله كروم ؟»

« لا ياآنسة. أقصد ياكيت. لا، إن الاجتماع مقتصر فقط على كبار العصبة وليس للمتدربين أن يحضروه « .

« هل يمكنك إذن أن تدعي أنك واحد من رجال العصبة أو شئ من هذا القبيل ؟ ... لدي شعور أن هناك شيئا ما سوف يقع، وأن هذه الميدوسا تكمن في صلبه» .

« آسف ياآنسة. لاأجرؤ على فعل ذلك. لاأريد أن يتم قتلي وأخذ جثتي لمقر الهندسة وتحويلي إلى مطارد « .

« إذن ساعدني على أن أذهب أنا ! « قالتها كاثرين متوسلة، وقد مدت يدها عبر الطاولة لتمسك بيده، فأجفل من لمستها وسحب يده بسرعة، ونظر إلى أنامله في تعجب، وكأنه لم يتخيل أبدا أن أحد قد يلمس يده يوما ما .

إلا أن كاثرين أصرت، فأمسكت بيديه المرتعشتين ونظرت عميقا في عينيه : « يتعين عليَ أن أعرف ما يخطط له كروم. لأجل مصلحة والدي. رجاءً بفيز، عليَ أن أدخل إلى مقر عصبة الهندسة» .

***

19 بحر خازاك

مع حلول المساء، حيث الضباب القادم من المستنقعات يغلف كل شئ، كانت تونبريدج وييلز قد وصلت إلى حدود البحر، فتوقفت الضاحية قليلا ترصد تلك الحزمة من الجزر، التي بدت داكنة وسط المياه الفضية .

كانت أسراب الطيور تنتشر عبر شاطئ البحر، ومع إطفاء الضحية لمحركاتها، بدأت أصداء رفيف أجنحتها يتردد عبر الأجواء، في حين كانت أمواج البحر تضرب الشاطئ بلا هوادة، ورياح الشرق تصفر وهي تتخلل العشب الرمادي المتناثر .

وفيما عدا صوت الطبيعة، لم يكن ثمة أي صوت آخر، أو حركة ولو بسيطة. ما من ضوء أو دخان لأي بلدات أخرى بين المستنقعات .

فجأة صاح كريسلر بيفي مناديا : « ناتسورثي»، وقد وقف ينظر عبر منظاره المقرب / التليسكوب، عند نافذة منصة المراقبة الواقعة أعلى مبنى البلدية .

« أين هذا الفتى ؟ أبلغوه أني أريده حالا «، وبعد هنيهة جاءه اثنان من قراصنته بتوم وهيستير، فالتفت بيفي إلي توم وقد علت وجهه ابتسامة عريضة، وناول توم المنظار قائلا : « ألقِ نظرة ياتومي العزيز. لقد قلت لك إنني سأمر بك سالما عبر المستنقعات، والآن انظر إلى أين نحن ذاهبون !»

فتناول توم المنظار ووضعه على عينه، وبدأ ينظر عبر العدسة

إلى حيث يشير بيفي. بدا المنظر في البداية غائما مشوشا، ثم بدأ يتضح تدريجيا، وعبر المنظار رأى توم بضعة جزر صغيرة تتناثر أمامهم في البحر، في حين كانت أكبرهم تلوح في الأفق تجاه الشرق وتبدو كظهر حيوان وحشي مهول من عصور ما قبل التاريخ، ثم خفض المنظار عن عينه وقال : « لكن .. لايوجد شئ ذو بال هناك ..»

***

استغرق الأمر مايزيد عن الأسبوع كي تعبر تونبريدج ويلز طريقها ببطء عبر المستنقعات، ولم يفسر بيفي لتوم أي شئ عن وجهة الضاحية ولا ماالذي يأمل أن يجده بالضبط على الجانب الآخر من المستنقعات، حتى رجال الضاحية لم يكونوا على دراية بأي شئ، لكنهم كانوا سعداء بما فيه الكفاية مع اقتناص الضاحية للبلدات الضئيلة نصف المتحركة، والتي كانت تتخذ من حنايا المستنقعات مأوى لها ومخبأ. كانت تلك البلدات صغيرة جدا لدرجة أن التهامها لم يكن يعني الكثير، إلا أن الضاحية قد التهمتهم على أية حال، وقتلت واستعبدت أهلها وألقمت بقاياها للمحارق .

ولقد كان ذلك الوقت عصيبا بالنسبة لتوم، الذي نشأ على أن القوانين الداروينية البلدية هي مبادئ سامية ونظام جميل !، ولكن هاهو ذا الآن يشهد بنفسه أنه ما من شئ جميل أو نبيل فيما تفعله تونبريدج ويلز .

ظل توم يعامل كضيف نبيل مكرم، وكذلك هيستير، بالرغم من أن بيفي لم يستطع فهم سر ارتباط توم بفتاة مشوهة كئيبة صامتة

مثلها، وفي إحدى الليالي جلس بجانب توم في قاعة الطعام - والتي كانت قديما غرفة اجتماعات مجلس البلدة - وسأله في مداهنة: « لماذا لاتواعد ابنتي كورتينا ؟ أو أي من أولئك الفتيات الجميلات اللائي قمنا بأسرهن في آخر عملية صيد؟. إنهن جميلات حقا، كما أنهن لايفقهن حرفا واحدا من اللغة الإنجليكانية، ومن ثم لن يصدعن رأسك بالثرثرة ولن يتفوهن بحرف ..»

« هيستير ليست رفيقتي «، قالها توم، لكنه في نفس الوقت لم يكن يرغب في مواعدة ابنة بيفي، وكان يدرك جيدا أن الرجل لن يستوعب الحقيقة أبدا، حقيقة أنه واقع في الحب مع خيال كاثرين فالانتاين، التي ظلت صورتها عالقة في مخيلته، كسراج يضئ له طريقه عبر كل المغامرات التي خاضها ..

« لقد مررت أنا وهيستير بالكثير معا ياسيد بيفي، وقد أقسمت أن أساعدها على الوصول إلى لندن « .

« لكن هذا كان فيما سبق، أما الآن فأنت مواطن في تونبريدج ويلز، وسوف تبقى معي هاهنا كابني الذي لم أنجبه قط. وقد كنت أفكر في أن رجالي قد يتقبلونك بشكل أيسر لو أنك صار لديك امرأة جميلة» .

نظر توم عبر طاولات الطعام الممتدة أمامه، ورأى رجال بيفي ينظرون نحوه وفي أيديهم تلمع سكاكينهم الحادة. لقد كان يعلم جيدا أنهم لن يتقبلوه أبدا، وأنهم يكرهونه لكونه آتيا من مدينة مرفهة، ولكونه أيضا قد صار رجل بيفي المفضل، ولم يكن يستطيع أن يلومهم على ذلك .

فيما بعد، في السويعات الصغيرة التي يتشاركها وهيستير، قال : « علينا أن نرحل عن تلك البلدة. هؤلاء القراصنة لايحبوننا. وقد بدأوا يكلون من بيفي وأحاديثه التي لاتنقطع عن التهذيب والسلوكيات الجيدة، إنني لا أريد أن أفكر فيما يمكن أن يحدث لنا لو أنهم تمردوا عليه».

« دعنا ننتظر ونشاهد « قالتها هيستير وهي تتكوم حول نفسها في ركن بعيد بالغرفة، « إن بيفي رجل خشن صلب، وهو قادر على كبح جماح رجاله طالما أوجد لهم ذلك الصيد الكبير الذي وعدهم به والذي لايعلم أحد ماهيته « .

« سوف نعرف غدا «، أجابها توم وهو يخلد إلى نومه المضطرب، « في مثل هذا الوقت غدا سوف تصبح المستنقعات الرهيبة خلفنا « .

***

جاء اليوم التالي، وبالفعل تجاوزت الضاحية منطقة المستنقعات الوعرة التي صارت خلفها .

وفي منصة المراقبة، جاء الملاح ومد خرائطه أمامهم، في حين بدأ صوت كالهسيس يتردد صداه من ناحية سلم مبنى البلدية، فنظر توم إلى رجال بيفي الذين تجمعوا حول الخرائط، لكن يبدو أن أحدا لم يسمع ذلك الصوت، فيما عدا هيستير التي نظرت لي في توتر وهزت كتفيها .

كان الملاح رجلا نحيلا يرتدي العوينات ويدعى السيد آميس،

وكان يعمل معلما في الضاحية قبل أن يستولي عليها بيفي، وهاهو الآن متوائم مع حياته الجديدة كقرصان ويحيا في سعادة، فقد صارت الأوقات أفضل وأكثر مرحا، كما أن سلوكيات رجال بيفي الفظة هي أفضل حالا بكثير من سلوكيات معظم تلاميذه القدامى.

قام السيد آميس بمد خرائطه أمامهم، وقال : « إنها بمثابة ساحة الصيد لمئات من البلدات البحرية الصغيرة، إلا أنهم جميعا قد التهموا بعضهم البعض، والآن بدأت جماعات مقاومة التحرك تخرج من بين الجبال قاصدة تلك لمجموعة من الجزر لتستقر عليها وتؤسس موطنا لها بها « .

دنا توم من الخريطة ليلقي نظرة، فوجد أمامه بحر خازاك العظيم وقد تناثرت على صفحته العديد من الجزر، لكن أحدها - تلك التي كان آميس يشير إليها - كانت هي الأكبر بينها، وقد اتخذت شكل جوهرة، وتمتد لمساحة ٢٠ ميلا تقريبا. لكن توم لم يجد شيئا مثيرا في تلك الجزيرة لتحظى بكل هذا الاهتمام، وكذلك القراصنة من حوله الذين بدا عدم الفهم جليا على ملامحهم، إلا أن بيفي كان يضحك في حماسة ويفرك كفيه، ثم قال : « الجزيرة السوداء... لايوجد مايثير في مظهرها، أليس كذلك؟ لكنها هي التي ستجعلنا أثرياء ياأولاد، أثرياء. بعد الليلة سوف تصبح تونبريدج وييلز قادرة على أن تتحول إلى مدينة مرفهة « .

« كيف؟» قالها القرصان مانجو، الذي لايثق كثيرا في بيفي ويكره توم لأقصى درجة، « لايوجد شئ على تلك الخريطة يابيفي، فقط بضعة أشجار قديمة وحفنة من الطحلبيين عديمي القيمة

« .

« ماهم الطحلبيون ؟!» همس توم لهيستير متسائلا .

« إنـه يعني هـؤلاء الأشـخاص الـذين يحـيون فـي مـواطن غير متحركة « .

« تعنـين كمـا فـي الأقـوال القـديمة : البلـدة المتحركـة لاتجمع الطح... .».

« في واقع الأمر، أيها السيدات والسادة «، صاح بيفي فقطع توم كلامه بغتة: « هناك شئ على الجزيرة السوداء. فقبل بضعة أيام، قبل أن تأتي إلى متن بلدتنا ياتوم، قمنا بإسقاط منطاد كان يدور حـول منطقـة المسـتنقعات، وقـد أخبرنـا طاقمـه قبل أن نقتلهم بأشـياء مثيرة جـدا. فمما يبدو أنه قد وقعت معركة كبرى في إيــرهيفن، حــرائق.... تــدمير للمحركـات ... تسـرب للغـاز ..، لقد تعرضت البلدة لتدمير كبير، حتى أنهم لم يعودوا قادرين على الاسـتمرار فـي السـماء، فاضـطروا للـهبوط إلـى الأسـفل لإجـراء أعمال الصيانة وإصلاح التلفيات، فأين تظنهم قد هبطوا ؟»

أجابـه تـوم وقـد اسـتنتج الأمـر مـن ابتسـامة بيفي : « الجزيرة السوداء ؟»

« هذا هو ابني الذكي تومي. هناك خان كبير بالجزيرة يهبط إليه الملاحون لإعادة ملء خزانات الوقود في طريقهم من أراضي جماعة مقاومة التحرك في الجنوب، وهناك حطت إير هيفن. إنهم يظنون أنهم في مأمن هناك حيث المياه تحيطهم من كل جانب، وأصدقاؤهم الطحلبيون سوف يكونون في عونهم. لكنهم أبدا

ليسوا في مأمن من تونبريدج وييلز !»

بدأت شرارة الحماسة تدب في القراصنة المجتمعون، والتفت توم إلى هيستير، لكنها كانت تنظر خارجا نحو البحر إلى حيث الجزيرة البعيدة.

في تلك اللحظة كان توم مشتتا بين إحساسه بالخوف والارتياع على تلك البلدة الجوية الجميلة التي تقبع على الجزيرة، وعلى وشك أن يتم التهامها، وبين حيرته بصدد الكيفية التي سيبلغ بها بيفي تلك الجزيرة في عرض البحر !

« والآن إلى مواقعكم يا أحبائي. شغلوا المحركات بأقصى سرعة ... احشوا بنادقكم. بحلول فجر الغد سوف نصير أثرياء « قالها بيفي مصدرا أوامره لقراصنته المتحمسين، فانطلقوا منصاعين لأوامره، في حين هرع توم نحو النافذة. كان الظلام يكاد يخيم على الأجواء في الخارج، ولم يكن سوى بصيص خافت من ضوء شمس الغروب في السماء فوق المستنقعات. إلا أن شوارع تونبريدج وييلز كانت مضاءة بالكامل، ومن الأسفل بدأ صوت المحركات يهدر من جديد.

وبينما كان بيفي يتحدث ويصدر الأوامر، كانت بلدته منشغلة في ضخ الهواء في عوامات الضاحية وحوافها المطاطية .

« دعونا نسبح! « صاح عمدة القراصنة وهو يستلقي على كرسيه الدوار ويشير إلى غرف المحركات .

دارت المحركات بالكامل، وبدأت الضاحية تتحرك للأمام نحو حافة الشاطئ ثم إلى المياه.

***

في البداية كان كل شئ يسير على مايرام، وشرعت تونبريدج ويبلز تشق طريقها عبر الماء دونما معوقات، تجاه الشرق نحو الجزيرة السوداء.

فتح توم نافذة جانبية في منصة المراقبة ووقف يتأمل الظلام، والهواء البحري المالح يلفح وجهه، وقد اعتراه إحساس عجيب بالإثارة .

ومن موقعه رأى القراصنة المحتشدين في ساحة السوق القديمة، يجهزون الخطافات والسلالم. ولأن إير هيفن قد تكون اكبر بكثير من أن يسهل ابتلاعها عبر الفك العملاق للضاحية، فقد كان عليهم أن يستعدوا للاستيلاء عليها بالقوة ثم يقوموا بتمزيقها وتقطيعها بأنفسهم .

لم يستسغ توم كل ذلك على الإطلاق، خاصة حينما تذكر أن أصدقاءه الملاحين ربما لايزالون على متن إيرهيفن ... ولكن، إنها طبيعة ذلك العالم، أن تلتهم مدينة الأخرى، كما أن خطة بيفي كانت مثيرة جدا.

فجأة، سقط شئ من السماء وانفجر في ساحة السوق مخلفا فجوة هائلة في سطح الضاحية، في حين تبخر الرجال الذين كانوا يعملون منذ لحظات في موضع الانفجار، أما باقي سكان الضاحية فطفقوا يهرولون هنا وهناك حاملين معهم أدوات إطفاء الحرائق، وقد صاح أحدهم في هلع : « منطاد...منطاد...منطاد !». ثم توالت الانفجارات تطيح بالمباني محولة إياها أشلاءً، في

حين كان سكانها يتطايرون في الهواء وكأنه عرض بهلواني مجنون !

« ماالذي يحدث بحق سوتي بيت ؟ « صاح بيفي وهو يهرع نحو نافذة منصة المتابعة المحطمة وينظر إلى الأسفل حيث الشوارع المفعمة بالدخان، في حين شرع قرده في التقافز لأعلى ولأسفل على كتفه صارخا .

« هؤلاء الطحلبيون أكثر تنظيما وحنكة مما كنا نحسب هم ... أضيئوا كشافات البحث سريعا «.

وبالفعل انبعثت الأضواء ساطعة من كشافين متحركين فوق الضاحية وبدأت دائرتان من الضوء تدوران في السماء الغارقة في الدخان، وحينما التقتا في نقطة واحدة رأى توم المنطاد الضخم اللامع قليلا بالضوء الأحمر .

اتجهت كافة مدافع وبنادق الضاحية إلى الأعلى وبدأ إطلاق النيران، واخترق اللهب السحب.

« لقد أخطأوه ...» صرخ بيفي وهو ينظر عبر منظاره يتابع المعركة، « اللعنة. كان يجب أن أدرك أن إيرهيفن سوف ترسل مركباتها الاستطلاعية، وإن لم أكن مخطئا فلابد أن هذا هو الوعاء الصدئ للحيزبون فانج» .

فشهق توم في فرح : « ال جيني هانيفر « !

« لاداعي لكل تلك السعادة البادية عليك... « قالها بيفي مزمجرا « إنها شديدة الخطورة، ألم تسمع عن (زهرة الرياح) ؟»

لم يكن توم قد أخبر بيفي عن مغامرته في إيرهيفن، فقال، محاولا إخفاء سعادته بكون الآنسة فانج لاتزال على قيد الحياة، : « لقد سمعت عنها. إنها ملاحة تجارية ».

« حقا؟ وهل تظن أن الملاح التجاري يحمل معه تلك الأسلحة ؟ إنها واحدة من أكبر عملاء جماعة مقاومة التحرك. ولن يوقفها شئ عن تدمير ضاحيتنا المتحركة المسكينة. لقد كانت هي التي زرعت القنبلة في مارسيليز، وهي التي شنقت سلطانة بالاوبينانج البائسة. إن يديها ملطختان بدماء آلاف البلدات التي دمرتها. ومع ذلك فسوف نريها تلك الشمطاء، أليس كذلك ياتومي ؟ سوف أخرج أحشاءها وأصنع منها طعامي وسوف أعلق جثتها لتأكلها الصقور. مانجو، بوجو، ماجس ... سوف أمنح قسما إضافيا من الغنيمة لمن يسقط ذلك المنطاد الأحمر « .

إلا أن المنطاد كان بعيدا عن مرماهم، فلم يتمكن أي منهم من إسقاطه، واتجه عائدا إلى الجزيرة السوداء لتحذير إيرهيفن من الخطر المحدق بهم .

في تلك اللحظات كان الغضب يعتري توم لأبعد الحدود. ألهذا أنقذته فانج؟ ولهذا كانت لطيفة ودودة معه ؟ كل هذا لكي تحصل على معلومات لأجل جماعتها، وبالطبع كان كابتن خورا متواطئا معها، ولهذا حكى قصتها لتوم كي يكسب تعاطفه ....حمدا لكويرك أنه لم يكن قادرا على أن يحكي لها أي شئ .

كانت تونبريدج ويلز تحترق من عدة مواضع، إلا أن صواريخ الجيني هانيفرز كانت صغيرة بحيث لايمكنها إحداث دمار شامل

للبلدة، وماكانت فانج لتخاطر بشن هجوم جديد، خاصة مع انتهاء مفعول عنصر المفاجأة.

ترنحت البلدة باتجاه الشرق، ومن مكانه استطاع توم أن يرى الأضواء على طول شاطئ الجزيرة السوداء ! ثم رأى مجموعة أخرى من الأضواء تلمع في الطريق بين الجزيرة والضاحية .

« قوارب !» صاح مانجو وهو ينظر تجاه البحر، فعاد بيفي إلى النافذة من جديد ... « قوارب صيد «، دمدم بيفي وقد بدت نبرة رضا في صوته، « إنها الوجبة الأولى لتلك الليلة. سوف نأكلهم جميعا ...سوف يكونون مقبلاتنا « .

بدأت قوارب الصيد تتفرق مع اقتراب تونبريدج وييلز تجاههم، كانوا يفرون من أمام الضاحية باحثين لأنفسهم عن مأوى على الشاطئ، إلا أن أكبرهم وأبطأهم قد مال تجاه الريح وابتعد عن باقي القوارب .

«سوف نأخذهم « صاح بيفي، فانصاعت ماجس لأوامره وهرعت لتنقلها إلى باقي طاقم القراصنة، وبدأت الضاحية تغير اتجاهها قليلا.

في تلك الأثناء كان توم يفكر فيما إذا كانت مرتفعات الجزيرة البادية أمامهم مرصعة بالبنادق والمدافع !، ولكن حتى وإن كان الأمر كذلك، فلم يتم حتى الآن أي إطلاق للنار منها تجاههم.

ومن مكانه كان يرى القارب الواهن، ومن ورائه الأمواج المتكسرة على الصخور. فجأة صرخت هيستير « بيفي ..إنه فخ «، ولكن بعد فوات الأوان، فقد اصطدمت تونبريدج وييلز التي كانت

تسير بأقصى سرعتها، وبكل ثقلها، بمجموعة من الصخور الحادة التي اخترقتها في أكثر من موضع، في حين فر القارب المتباطئ نحو الشاطئ، وانقلبت الضاحية على جانبها بعنف، حتى أن توم وقع وتدحرج حتى ارتطم بأرجل منضدة الخرائط .

توقفت المحركات وساد صمت رهيب، وزحف توم حتى وصل إلى النافذة فوجد شوارع الضاحية وقد اتشحت بالظلام التام وامتلأت بالمياه المتفجرة عبر مواضع الثقوب في السطح المعدني، وانتشر الزبد الأبيض للبحر، وفي وسطه كان سكان الضاحية يكافحون للنجاة. وعلى بعد مئات الياردات كان البحر يفصل الضاحية المتهالكة عن الشاطئ شديد الانحدار للجزيرة .

شعر توم بيد تقبض على كتفه بغتة وتجره نحو الباب « سوف تأتي معي ياتوم « كان هذا كريسلر بيفي، وقد حمل على كتفه بندقية ضخمة، وأخذ يصيح : « وأنتم أيضا، أميس، مانجو، ماجس، سوف تأتون معي.. «

وبالفعل ذهبوا جميعا معه ! وقد تحلقوا حوله صانعين دائرة حماية لعمدتهم الذي أخذ يخف الخطى وهو يجر توم عبر السلالم إلى الأسفل، ومن خلفهم هرعت هيستير وهي تعرج .

وفي الأسفل كان الصراخ والوجوه المرعوبة للسكان الذين كانوا يتطلعون في هلع إلى عمدتهم وجماعته، وقد بلغت المياه الركبتين منهم.

« اخلوا البلدة .. النساء والعمدة أولا « صاح بهم بيفي، ثم دخل ومن معه إلى مقره الخاص، حيث تكومت ابنته الكبر تحتضن

أخواتها اللائي كن يرتعدن خوفا، فتجاهلها بيفي واتجه رأسا نحو خزانة في ركن الغرفة ففتحها وسحب منها صرة برتقالية اللون، ثم انطلق إلى الخارج حيث المياه تغرق كل شئ.

عاد توم مسرعا إلى غرفة العمدة ليساعد كورتينا وأخواتها الصغيرات اللائي نسيهم بيفي تماما، والذي وقف في الخارج وقام بإلقاء الصرة البرتقالية إلى الأمواج، فانفتحت وتمددت حتى تحولت إلى طوف إنقاذ ميتدير صغير الحجم؛ فقام بيفي بجر توم مرة ثانية آمرا إياه أن : « اركب «.

« ولكن...»

« اركب» .

فركب توم القارب، الذي ظل يتأرجح به إلى الأعلى وإلى الأسفل، ومن بعده ركب مانجو، ثم تبعهما الآخرون، وتناهى إلى مسامعه صوت كورتينا من مكان ما وهي تصيح في لوعة وهلع .

تكدسوا جميعا فوق بعضهم البعض كيفما اتفق، وحينما استطاع توم أخيرا أن يخرج من أسفل آميس، كانت الضاحية نصف الغارقة قد صارت بعيدة عنهم.

بحث توم عن هيستير حتى وجدها إلى جانبه، في حين لم يكف قرد بيفي عن التقافز فزعا .

ومن بعيد تناهت إلى مسامعهم أصوات الصياح والاستغاثة، حيث قفز السكان إلى الماء من ضاحيتهم المتداعية، وعلى حافة الطوف بدت عشرات الأيدي المتلهفة تحاول التشبث بحوافه

سعيا وراء النجاة، إلا أن بيفي ومانجو أخذا يضربان الأيدي المستغيثة بعنف مبعدين إياهم عن الطوف، في حين وقفت ماجس تطلق النار من بندقيتها على من يحاولون الصعود إلى الطوف حتى استحالت المياه من حوله إلى اللون الأحمر .

كانت الضاحية تنحدر أكثر فأكثر في الماء والبخار ينبعث منها، حيث غمرت المياه غلاياتها وأفرانها، ثم غرقت الضاحية بأكملها تماما تحت سطح الماء وتصاعدت الصرخات وصيحات الاستغاثة اليائسة، في حين كان الماء يموج ويفور، والصخب يعم الأرجاء .

بعد حين، ساد الصمت التام، وسار الطوف مع التيار تجاه الشاطئ.

***

20 الجزيرة السوداء

بحلول الفجر، كان جريك قد وصل إلى شاطئ البحر، حيث كان المد عاليا حتى كادت آثار عجلات الضاحية تنمحي بفعل الأمواج، وبالقرب من شاطئ الجزيرة السوداء كان الدخان ينبعث عاليا. رفع جريك رأسه الميت وابتسم في فخر بهيستير شاو التي نجت من جديد مخلفة وراءها كل هذا الدمار .

هيستير هي من جعلته يخوض كل تلك المسافة عبر المستنقعات، يجر ساقه الكسيحة بين الأوحال ويغوص في غمار المياه الآسنة التي كانت تصل في بعض الأحيان إلى رأسه. على أية حال، لقد سهلت الآثار التي خلفتها الضاحية على طول طريقها الأمور عليه، وصار من الأيسر اتباعها ببساطة .

والآن هاهو يتبعهم من جديد إلى الشاطئ وعبر أمواج البحر. كانت المياه المالحة تضرب عينيه وتتسرب عبر الثقوب في دروعه. غاص جريك البحر، واختفت أصوات الرياح وطيور النورس وحل محلها صوت الأعماق. سواء كان يطير في السماء أو يغوص تحت سطح الماء، مامن فارق بالنسبة لأمثاله من العائدين.

في الأعماق، كانت الأسماك تحدق به ثم تسبح في الاتجاه الآخر فرارا منه، لتختبئ بين الطحالب البحرية، في حين كانت سرطانات البحر تفسح له الطريق، رافعة كلاباتها نحوه وكأنها تتعبد إلى إله معدني مدرع .

شق جريك طريقه سابحا، متتبعا رائحة الزيت وشحم عجلات

تونبريدج وييلز .

وعلى السطح، على بعد بضعة أميال منه، كان طوف الإنقاذ قد وصل إلى الشاطئ، فوقف كريسلر بيفي على منحدر مرتفع في انتظار أن يلحق به الآخرون، الذين جاءوا تباعا، توم وهيستير أولا، ثم آميس ومعه خرائطه، وأخيرا جاءت ماجس ومانجو يحملان بنادقهما .

ومن بعيد كان في وسعهم رؤية المنحدرات الصخرية للجزيرة، وبالقرب منها مجموعة من القوارب التي رست عند حطام تونبريدج وييلز، حيث لم يضيع سكان الجزيرة وقتهم فانطلقوا فورا نحو الضاحية الغارقة ليغترفوا من غنائمها .

« حثالة» قالها بيفي مزمجرا. لم يكن توم قد تحدث إلى بيفي منذ أن وقع ما وقع، والآن قد اعترته الدهشة حينما نظر إلى الرجل فوجد الدموع تترقرق في مقلتيه، فقال له : « آسف لما حدث لأسرتك ياسيد بيفي. لقد حاولت أن أنقذهم، لكن... « حفنة أغبياء « قالها بيفي من بين دموعه، « أنا لاأبكيهم، وإنما أبكي ضاحيتي الجميلة! انظر إلى ما آلت إليه، اللعنة على هؤلاء الطحلبيين ..»

بعد لحظات، من مكان ما من ناحية الجنوب، سمعوا صوت إطلاق نار، فأشرق وجه بيفي والتفت إليهم يقول : « هل سمعتم هذا ؟ لابد أن بعضا من رجال ضاحيتنا قد نجحوا في الوصول إلى شاطئ الجزيرة، وسوف يتعاملون مع هؤلاء الطحلبيين. سوف نتواصل معهم ونتحد جميعا .. الفرصة لاقتناص إيرهيفن لم تفت بعد، سوف نقتل أغلب أهلها ونترك القليل منهم على قيد الحياة

لإصلاحها، ثم نطير عائدين وقد صرنا أثرياء، ومن حين لآخر نهبط من السماء على البلدات الثمينة قبل أن ينتشر خبر أن إيرهيفن قد صارت بلدة للقراصنة، ولربما استطعنا فيما بعد أن نصطاد مدينة لأنفسنا !»

ثم بدأ يسير من جديد ممنيا نفسه بأمانيه العريضة، فتبعه الآخرون؛ وقد بدا على ماجس ومانجو التعب والقنوط بسبب فقدان تونبريدج وييلز، كما لم يبد عليهم الاقتناع بما قاله بيفي، حيث ظلا يتبادلان النظرات ويتهامسان معا حينما يكونا بعيدين عن مسامع عمدتهما. على أية حال، هما في مكان غريب عليهما، وقد ارتأى توم أنهما لايملكان القوة والجرأة الكافيتين للانقلاب ضد بيفي، على الأقل في الوقت الحالي.

أما بالنسبة لآنيس فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي تطأ قدماه الأرض المجردة، لذا فقد ظل يتذمر ويرغي ويزبد : « هذا أمر شنيع « .... « من العسير جدا السير هاهنا « .... « ماكل هذا العشب ! ... ربما يكون هناك حيوانات مفترسة أو ثعابين هاهنا « .... « الآن فهمت لماذا قرر أسلافنا التوقف عن العيش على الأرض المجردة ..»، وكان توم يتفهم مايشعر به الرجل جيدا .

وفي الشمال والجنوب منهم، كان الجانب المنحدر من الجزيرة السوداء يمتد على مسافة واسعة، وفوقهم كان المنحدر يمتد رأسيا وفي قمته الصخور الداكنة، تضربها الرياح وتتخلل فرجاتها، فتصدر أصواتا مخيفة، في حين انتصبت الأبراج الحجرية المنحوتة في الصخور، والتي بدت لهم من على بعد كقلاع وحصون منيعة، وقد انعطف بيفي بجماعته أكثر من مرة

أثناء المسير ليتجنبوا تلك الأبراج، قبل أن يدرك أنها ليست سوى مجرد أحجار .

« ياله من أمر جميل !» قالتها هيستير وهي تتنهد مبتسمة وتصفر بالنغمات من بين أسنانها، « ماالذي يجعلك سعيدة إلى هذا الحد ؟!» سألها توم، فأجابت هامسة : « نحن ذاهبون إلى إير هيفن أليس كذلك ؟ إنها هنا في مكان ما، ولن يتمكن بيفي وجماعته الصغيرة من الاستيلاء عليها، ليس والطحلبيون جنبا إلى جنب مع سكان إيرهيفن، يقفون لهم بالمرصاد. سوف يتم قتل الرجل وجماعته، وسوف نجد نحن منطادا ليأخذنا شمالا إلى حيث لندن. وتذكر أن آنا فانج هناك، ولربما قدمت لنا المساعدة مرة ثانية «.

« مساعدة منها ؟!»قالها توم بغضب، « ألم تسمعي ماقاله بيفي عنها ؟ إنها جاسوسة لجماعة مقاومة التحرك « .

« لقد استنتجت ذلك.... أعني أن كل تلك الأسئلة التي طرحتها عن لندن وعن فالانتاين جعلتني أستنتج ذلك « .

« كان عليك أن تخبريني. كان من الممكن أن أكشف أسرارا هامة عن لندن أمامها» .

« ومالذي يعنيني في هذا ؟ ثم منذ متى كان المتدربون في عصبة المؤرخين يعرفون أية أسرار هامة ؟ .. على أية حال لقد اعتقدت أنك أدركت أنها جاسوسة «.

« إنها لاتبدو كالجواسيس «.

« كذلك هم الجواسيس. هل كنت تتخيل مثلا أنهم يضعون لافتة كتـــب عليــها (جاســوس) ؟ أو يرتــدون قبعــات خاصــة بالجواسيس ؟!». كانت هيستير في مزاج مرح على غير عادتها، وتساءل توم في سره حول السبب وراء ذلك، وما إذا كان ذلك يعود للمنحدرات التي تحفهم ؟ ربما ذكرتها تلك المنحدرات بأيام الطفولة على جزيرتها .

ثم إنها لمست ذراع توم بلطف وقالت : « يالك من مسكين ياتوم. إنك تتعلم الآن ما قد تعلمته أنا من فالانتاين منذ سنوات خلت : ألا تثق في أحد ؟!»

«هه !»

« لا... لا أقصدك أنت ... أعتقد أنني أثق فيك ياتوم، غالبا. إن مافعلته معي في تونبريدج وييلز قد أنقذني من العبودية وجعل بيفي يطلق سراحي .... كثير من الناس ماكانوا ليكلفوا أنفسهم عناء مافعلته أنت، خاصة لو كان لشخص مثلي « .

نظر لها توم، ولأول مرة رأى الفتاة اللطيفة الخجول التي تختبئ خلف ذلك القناع المتجهم، فابتسم لها في دفء ومحبة جعلت وجهها يحمر خجلا .

بعـد لحظـات عـاد إليـهم بـيفي وصـاح قـائلا : « تعـالا حـالا أيـها المحبان، وكفا عن التهامس بما لايجدي. اهرعا إليّ» .

***

وعند العصر، أخذت السحب الشرقية في الانقشاع، وظهرت أشعة

الشمس أخيرا تنشر ضوءها على قمم المنحدرات، وتنعكس على أعالي تونبريدج وييلز الهالكة تحت المياه. مضى جريك عبر شوارع الضاحية وهو يلتفت برأسه ذات اليمين وذات اليسار. وفي الغرف الغارقة كانت أجساد الموتى تطفو على الماء وقد صارت أشبه بأكياس الشاي المنتفخة التي تركت طويلا في مياه القِدر، ومن فم أحد القراصنة الموتى كانت سمكة صغيرة تدخل وتخرج.

اختبأ جريك في الظلال لحين رحيل هذين الولدين اللذين جاءا إلى الضاحية الغارقة غوصا لانتزاع مايتيسر لهما من غنائمها، وبالفعل مرت لحظات ثم عادا إلى السطح ومعهما بعض البنادق والآنية وحزام جلدي .

تيقن جريك من أن هيستير ليست موجودة في هذا المكان، فغادر الضاحية وعاد يتتبع أثر الزيت في الماء؛ وفي القاع استقرت حطام الضاحية في حين طفت بعض من جثث أهلها على المياه إلى حيث شواطئ الجزيرة السوداء .

بحلول المساء كان جريك قد وصل إلى الشاطئ وخرج من الماء، فبدأت القطرات المالحة تتسرب من بين ثنايا دروعه، وقام بهز رأسه كي ينفض عن عينه المياه المشوشة للرؤية. ثم بدأ ينظر حوله، فوجد نفسه على شاطئ من الرمال السوداء يقع أسفل منحدرات قاتمة.

استغرق الأمر ساعة كاملة حتى عثر جريك على طوف النجاة، مخبأ أسفل كومة من الصخور الضخمة، فأشهر حريك مخالبه المعدنية ومزق قاع الطوف تماما، وبذلك أتلف وسيلة الفرار

المتاحة لهيستير .... هاهي هيستير قد أمست في قبضته من جديد، وحينما تموت سوف يحمل جثمانها بعناية ولطف ويعود بها عبر الغابات والمستنقعات، وساحة الصيد الشاسعة، إلى حيث كروم؛ سوف يأخذها إلى لندن على ذراعيه كأب يحمل طفله النائم .....

ثم ركع جريك على يديه وركبتيه في الرمال وطفق يتتبع رائحتها .

***

مع اقتراب الشمس من المغيب، وصل بيفي وجماعته إلى قمة المنحدر، وهناك وجدوا أنفسهم ينظرون إلى الأسفل، إلى حيث لب الجزيرة السوداء .

لم يكن توم قد أدرك حتى اللحظة أن هذه الجزيرة ماهي إلا بركان خامد، ولكنه الآن من مكانه استطاع أن يرى بوضوح ذلك التجويف الدائري المحاط بمرتفعات سوداء شديدة الانحدار. كان المكان يقع مباشرة أسفل موضع وقوفهم، وهو عبارة عن قرية صغيرة غير متحركة تقع على ضفاف بحيرة زرقاء، وكان بالجزيرة مرسى ومستودع للمناطيد بجانب المباني الحجرية؛ وهناك في الخلف، فوق الأرض المنبسطة، كانت إيرهيفن تقف فوق مائة من أعمدة الهبوط، وقد بدت كطائر بلا أجنحة .

« البلدة الجوية !» قالها بيفي وهو يضحك في خبث، ثم سحب منظاره وثبته على عبنه، وأخذ ينظر، ويقول : « إنهم يعملون .. يضخون الغاز في الطوافات الهوائية ويجرون أعمال الإصلاح

للبلدة آملين في العودة إلى السماء .. « ثم بدأ يجول بمنظاره عبر الأجواء المحيطة : « ما من إشارة على وجود أي من رجالنا ... أه لو كان قد تبقى لنا أي من مدافعنا. ولكن لابأس، سوف نتدبر أمرنا، أليس كذلك يارجال ؟ ... والآن تعالوا بنا نقترب أكثر».

كانت هناك نبرة غريبة قد بدأت تشوب صوت العمدة، وأدرك توم أن الرجل خائف، لكنه لايستطيع الاعتراف بخوفه، فلو أدرك الرجال ذلك فسوف يفقدون إيمانهم به .

شعر توم بالشفقة على الرجل، ولم يكن يتخيل أبدا أن يشعر بالأسى لكبير القراصنة هذا، لكن هذا ماحدث ! لقد كان بيفي لطيفا معه، ولو على طريقته، وإنه لمن الصعب على توم أن يرى حال الرجل قد تدهور بهذا الشكل، يهيم على وجهه عبر الأرض الرطبة ومن حوله قومه يتهامسون عليه ويلعنونه من وراء ظهره .

بالرغم مما آل إليه الرجل من وضع مزرٍ، إلا أن رجاله ظلوا يتبعون إياه بين الصخور والأحجار، إلى الأسفل حيث فوهة البركان الخامد.

وبمجرد أن لمح أهل الجزيرة المتسللين عبر المنحدرات، هرعت جماعة منهم لاقتناص هؤلاء الناجين من الضاحية الغارقة، في حين كانت إحدى المناطيد تحوم حول مكان تواجدهم؛ أمر بيفي الجميع بالاختباء فورا والبقاء ساكنين تماما، في حين قام هو بإخفاء قرده تحت طيات ردائه ليحجب صوته عن مطارديهم .

ظل المنطاد يدور حول المكان في دورات متعاقبة، لكنه لم

يتمكن من العثور عليهم، ومع الوقت أخذت الشمس في الانحدار أكثر نحو المغيب ولم يتمكن ملاح المنطاد من رصد بيفي ورفاقه الذين أجادوا الاختباء كجرذان تختبئ من بومة عملاقة .

عاد المنطاد أدراجه وهبط إلى الأرض، فتنفس توم الصعداء وخرج من مكمنه، وبدأ الآخرون أيضا يتحركون ويخرجون تباعا. ومن موضعه رأى توم سكان الجزيرة وهم يهرعون إلى الشوارع حاملين المصابيح والكشافات، في حين بدت إيرهيفن مضاءة بالكامل عبر التيار الكهربائي، وقد حمل الهواء إلى مسامع توم ومن معه أصوات الموسيقى والمرح، والأوامر التي تصدر هنا وهناك .

« ياسووتي بيت ! لقد جئنا متأخرين. إنهم على وشك الرحيل « قالها مانجو في صوت كالفحيح، فزجره بيفي : « لايمكن» .

إلا أن الجميع كان بإمكانهم رؤية الطوافات الهوائية وقد تم ملؤها بالكامل، وبعد بضعة دقائق تناهت إلى مسامعهم أصداء صوت محركاتها التي بدأت في الدوران. كانت البلدة الطائرة تستعد للعودة إلى السماء، وقد عادت أعمدة الهبوط والارتكاز الأرضي الخاصة بها إلى مواضعها أسفل البلدة التي كانت قد بدأت في الارتفاع فعلا.

صاح بيفي في لوعة « لاااا» ثم أخذ يعدو إلى الأسفل، فيتعثر ثم ينهض مسرعا، منكفئا على وجهه نحو السفح، وهو يصرخ : « عودي ... أنت صيدي. لقد أغرقت بلدتي لأجل الحصول عليك « .

هرع مانجو وماجس وآميس وراء الرجل، ومن خلفهم هيستير

وتوم. وعند سفح المنحدر كانت الأرض أكثر لينا، وقد امتلأت ببرك المياه التي انعكس عليها ضوء القمر وأضواء البلدة الطائرة.

« عودي... عودي « كان صوت بيفي الصارخ لايزال يتردد في الأجواء من حوله ويصل إلى مسامعهم « عودي ...آآاه ..آآآآآاه ... النجدة!»

هرعوا جميعا نحوه على صوت استغاثته وصراخ القرد، إلى أن توقفوا مرة واحدة، فقد وجدوا أنفسهم عند حافة مستنقع، وأمامهم كان بيفي يصرخ مستغيثا وقد سقط في المستنقع منغمسا فيه حتى الخاصرة، في حين ظل قرده يصرخ وقد تسلق رأس الرجل كملاح على قمة سفينة غارقة .

« فلتساعدوني. أعطوني أيديكم لأخرج من هنا. مازال بإمكاننا اقتناصها. إنها فقط تختبر محركاتها. سوف تهبط ثانية « كان العمدة يتوسل إلى رجاله الذين وقفوا يشاهدونه في صمت تام. لقد أيقنوا أنه ما من فرصة لاصطياد البلدة الطائرة، كما أدركوا أن صوت صراخه ربما يكون قد وصل لمسامع سكان الجزيرة.

همس توم « علينا أن نساعده «، وتقدم نحو الرجل، إلا أن هيستير قد منعته : « بعدرفوات الوقت «.

وفي تلك اللحظة كان بيفي يزداد غوصا إلى الأعماق، تجره إليها القلادة الثقيلة للعمودية المتدلية من عنقه، فصار يردد بصوت مكتوم من فم امتلأ بالوحل : « ساعدوني ياأولاد .. ماجس؟ مانجو؟ أنا عمدتكم. لقد فعلت كل ذلك من أجلكم « ثم التفت إلى توم بعينين يملؤهما الرعب والجزع : « قل لهم ياتومي يابني.

أخبرهم أنني أردت أن أجعل تونبريدج وييلز بلدة عظيمة. أردتها أن تكون محترمة. أخبرهم ...»

هنا أطلق مانجو النار، فأطاحت الرصاصة الأولى بالقرد من فوق رأس الرجل، أما الثانية والثالثة فقد اخترقتا صدره، فسقط رأس الرجل فوق صدره، وتكفل الوحل بابتلاعه إلى الأعماق .

ثم استدار القراصنة نحو توم ..

« ماكنا لنصبح هاهنا لولاك « دمدم مانجو، فوافقته ماجس : « لو لم تملأ رأس عمدتنا بأفكارك عن السلوك الجيد وأخلاقيات المدن إلى آخر هذا الهراء، ماكان قد وقع ما ماوقع «.

وأكمل آميس ساخرا : « لاتتكلموا وفمكم ملئ بالطعام ...!»

بدأ توم في التقهقر إلى الخلف، ولدهشته وقفت هيستير بينه وبينهم تزود عنه : « الذنب ليس ذنب توم « .

« أنت أيضا ما من داعٍ لوجودك لنا. ما من داعٍ لوجود أي منكما، نحن قراصنة، ولاحاجة لنا لتعلم فنون الإيتيكيت واللياقة، كما أننا لانحتاج لفتاة مشوهة « .

ثم رفع مانجو بندقيته تجاههما وتبعته ماجس، حتى آميس أشهر مسدسا صغيرا في وجهيهما .

إلا أن صوتا غريبا خرج من وسط الظلام يقول : « إنهما لي» .

***

21 في مقر عصبة الهندسة

أخذت لندن تسلك طريقا صاعدا نحو سهل مرتفع، ومن خلفها كانت بانزر ستات بايريث تقترب منها، وقد صارت واضحة المعالم، فلم تعد مجرد طيف يلوح في الأفق ويتهدد المدينة، وإنما تبدت ككتلة قاتمة ضخمة من الطبقات والمحركات، وقد باتت الزخارف الذهبية لقمتها جلية أمام الأعين من فوق دخان المحركات .

وعند منصات المتابعة الخلفية، احتشد أهل لندن يراقبون في صمت الفجوة الفاصلة بين مدينتهم والاتحاد وهي آخذة في التقلص ببطء .

وفي عصر ذلك اليوم أعلن عمدة لندن أنه ما من داعٍ للذعر، وأن عصبة الهندسة سوف تعبر بالمدينة من تلك الأزمة إلى بر الأمان .

ومع هذا فقد ساد الاضطراب، وبدأت حالة من التمرد تتفاقم في قلب الطبقات الدنيا، فتم إرسال فرق من الحرس الوطني لإخمادها واستعادة السيطرة.

وبدأ الناس يتهامسون حول ما يحدث، حتى أن أحد عمال محطة المصعد بميدان كويرك كان يهمس لزميله قائلا : « كروم العجوز لايعرف ماالذي يتحدث عنه ... لم أكن أتخيل أن أقولها يوما، لكن الحقيقة أن الرجل أحمق. وقد بلغ به الحمق أن يجر لندن العجوز نحو الشرق بهذا الشكل، يوما بعد يوم، وأسبوعا تلو الأسبوع، في سفر بلا هوادة، إلى أن أوقعنا في قبضة ذلك الاتحاد الضخم. لكم كنت أتمنى لو أن فالانتاين كان موجودا الآن، لعرف كيف يتصرف

حيال ذلك .. »

« اصمت يابيرت، هاهم بعض منهم قادمون « قالها رفيقه وقد لمح اثنين من عصبة الهندسة يتجهان نحوهما، فانحنى العاملان في أدب بمجرد أن دلف الاثنان من الباب. كانا شابا وفتاة، يرتديان النظارات الواقية الخضراء والمعاطف البيضاء المطاطية التقليدية .

أظهرت الفتاة جواز المرور الذهبي، وحينما دخلت ومرافقها إلى المصعد، التفت بيرت إلى صديقه وهمس : « لابد أنه حدث جلل ذلك الذي يحدث في مقر عصبة الهندسة، لدرجة أن يخرج هؤلاء من قاع الأحشاء إلى حيث مقر العصبة. تخيل أن تعقد العصبة اجتماعا في مثل ذلك التوقيت !»

بداخل المصعد جلست كاثرين بجانب بفيز بود، وكانت تشعر بالحرارة وهي ترتدي ذلك المعطف المطاطي الذي أعارها إياه بفيز؛ التفتت إليه، ثم تفحصت انعكاسها في زجاج النافذة بجانبه لتتأكد من أن العجلة الحمراء - علامة عصبة الهندسة- التي قاما برسمها على جبهتيهما سليمة وتبدو كالحقيقية.

كانت تشعر أنهما يبدوان سخيفين في تلك النظارات والأوشحة فوق رأسيهما، إلا أن بفيز طمأنها بأن كثيرا من المهندسين يرتدون كذلك هذه الأيام، كما أن الراكب الآخر الذي كان معهما في المصعد، وهو ملاح بدين، لم يكترث بالنظر إليهما أثناء صعودهما إلى حيث قمة الطبقة .

لقد قضت كاثرين يومها في نفاد صبر وتوتر وهي تنتظر وصول

بيفيز حاملا معه الملابس التي ستتخفى بها. وخلال ذلك الوقت، أخذت تبحث بين كل كتب والدها عن اسم (هيستير شاو)، لكنها لم تعثر عليه، وفي كتاب (الفهرس الكامل لمتحف لندن) وجدت إشارة مقتضبة ل (باندورا شاو)، ولم تذكر تلك الإشارة سوى أنها أحد جامعي المخلفات في العراء، وأنها قد قامت بمد عصبة المؤرخين ببضعة أجزاء صغيرة من آثار التقنيات القديمة، وأنها قد توفيت منذ سبع سنوات .

ثم شرعت كاثرين في البحث عما يدعى (ميدوسا)، إلا أنها لم تجد لها أي ذكر سوى أنها كانت أحد وحوش الأساطير القديمة، لكنها استبعدت أن تكون تلك هي ذات الميدوسا التي تبحث عنها، فــهي لاتظــن أبــدا أن نــاجنوس كــروم ومهندســيه يــؤمنون بالوحوش .

أخيرا وصلا إلى قمة الطبقة، ولم يلتفت إليهما أحد أو يدقق في وجهيهما وهما يدلفان نحو المدخل الرئيس لمقر الهندسة، حيث كان عدد من المهندسين يهرعون عبر الدرج، فانخرطت كاثرين وسطهم ممسكة بجواز مرورها الذهبي، وقد حرصت على أن تبقى بالقرب من بيفيز خشية أن تفقده وسط زحام المعاطف البيضاء المتماثلة .

هذا الأمر لن ينجح !.... ظل هذا الهاجس الممض يعتريها طوال الطريق، إلا أن رجال العصبة العاملين عند البوابات لم يكلفوا أنفسهم عناء تفحص جوازات المرور، فدلفت عبر البوابة دونما مشاكل، وقبل أن تغيب إلى الداخل التفتت لتلقي نظرة أخيرة على شمس المغيب خلف قبة كنيسة القديس بول .

كان داخل المقر أكبر مما كانت تتوقع، وأكثر إضاءة بدت من مصابيح الأرجون المتدلية في وسط البناية ككواكب معلقة في الفضاء .

وقفت كاثرين تجول ببصرها بحثا عن السلم، لكن بفيز أخذها من ذراعها قائلا : « سوف نصعد إلى مقر الاجتماع عبر عربات المسار الأحادي. انظري ..»

فالتفتت إلى حيث أشار لتجد المهندسين يتجهون لركوب العربات الصغيرة؛ التحق الاثنان بالصف للحصول على عربة، وتمنت كاثرين أن يتمكنا من استقلال عربة وحدهما كي يتمكنا من الحديث، لكن الزحام كان كبيرا، ووجدت كاثرين نفسها تجلس في ركن بعيد عن بيفيز في عربة مزدحمة بالمهندسين .

« من أي قسم أنت ؟» سألها أحد المهندسين الجالسين بجوارها .

« آاا... « تلعثمت كاثرين ونظرت في رعب إلى حيث بيفيز، لكنه كان بعيدا عنها كي يساعدها أو حتى يجيب نيابة عنها، لذا لم تجد بدا من أن تتصرف بنفسها، فذكرت أول شئ تبادر إلى ذهنها : « القسم. ك.»

« مع العجوز تويكس؟ أليس كذلك؟ ... لقد سمعت أنها قد توصلت إلى نتائج مبهرة في نماذجها الجديدة « .

« آه ! نعم ... بالفعل ... نتائج مبهرة جدا « أجابت وهي ترتجف .

أخيرا بدأت العربة في التحرك، وانشغل جارها في متابعة الطريق عبر النافذة. كانت كاثرين تتوقع أن تكون تلك العربات مماثلة

للمصعد، إلا أن السرعة الكبيرة والحركة اللولبية كانت مختلفة كثيرا عن حركته، وقد بذلت كاثرين مجهودا كبيرا كيلا تصاب بالغثيان، أما باقي المهندسين فقد بدا وأن السرعة والحركة لاتزعجاهم على الإطلاق .

وعبر الطريق، سمعت كاثرين أحد المهندسين يسأل الآخر : « ما الذي سيحدثنا العمدة به في رأيك ؟» فأجاب الآخر : « لابد أنه سيتكلم عن ميدوسا ... لقد سمعت أنهم يعدون لاختبارها « .

« دعنا نأمل أن تعمل « قالتها امرأة تجلس أمام كاثرين، « لقد كان فالانتاين هو من وجد تلك الآلة، وهو لايعدو كونه مجرد مؤرخ، وبالتالي لايمكن الوثوق كثيرا بما وجد».

فأجابها زميلها : « فالانتاين هو رجل العمدة ... لاتدعي علامة المؤرخين على جبهته تخدعك. إنه وفي ككلب، كما أن عصبتنا تغدق عليه بالكثير من الأموال، وهاهو يجعل من ابنته الأجنبية تلك واحدة من سادة لندن العليا «

ظلت العربات تدور في طريقها اللولبي، مارة بالكثير من المكاتب وورش العمل التي تعج بالمهندسين المنكبين على عملهم، كخلية نحل نشطة .

وصلت العربات إلى وجهتها، وتوقفت أخيرا عند الطابق الخامس، فخرجت كاثرين وهي بعد تتميز غيظا مما سمعته يقال عن والدها. ثم أنها التحقت ببفيز من جديد، فاتخذا طريقهما معا عبر الممرات الباردة الطويلة، البيضاء، ثم مرا عبر ستائر بلاستيكية شفافة، وقد تناهت إلى مسامعهما الأصوات المتداخلة للحضور .

وبعد بضعة استدارات وتحولات عبر الممرات، وصلا أخيرا إلى قاعة شاسعة، فأخذها بيفيز إلى حيث المقاعد القريبة من إحدى المخارج. بدأت كاثرين تتلفت حولها لترى ما إذا كانت سوف تجد الملاحظ نيمو هاهنا أم لا، لكن كان من المستحيل عليها تمييزه وسط كل تلك المعاطف البيضاء والرؤوس الحليقة أو المغطاة بوشاح.

« انظري» همس لها بيفيز « هاهي دكتور تويكس التي حدثتك عنها من قبل « قالها وهو يشير إلى امرأة قصيرة بدينة كانت في تلك اللحظة تتخذ مقعدها في الصفوف الأمامية .

« كل سادة العصبة هنا. تويكس... شاب... جارستانج... وهاهو دكتور فامبراس، رئيس الأمن «.

بدأت كاثرين تشعر بالرعب يتملكها، فلو أنها كان قد جرى اكتشاف هويتها عند الباب لأمكنها حينها ادعاء أن تواجدها بالمقر ليس سوى مشاغبة سخيفة أو ماشابه، أما الآن، وهي تجلس في أعمق نقطة داخل حرم المقر وفي ظل حدث جلل على وشك الوقوع، فلا حجة لديها!

وفي محاولة منها للتغلب على خوفها، أخذت تذكر نفسها بأنها حتى لو تم اكتشاف هويتها فلن يجرؤ أحد منهم على إيذاء ابنة ثاديوس فالانتاين، لكنها في نفس الوقت حاولت ألا تفكر فيما يمكن أن يحدث لبيفيز حينها .

أغلقت الأبواب وخفتت الأضواء، وصدرت إشارة الاستعداد لقرب بدء الاجتماع، فساد الصمت، الذي لم يقطعه سوى صدى أقدام

خمسمائة من المهندسين هبوا وقوفا استعدادا لاستقبال العمدة .

وقفت كاثرين وبيفيز مع الحضور، متطلعين إلى المنصة من فوق أكتاف الواقفين أمامهم .

ثم ظهر ماجنوس كروم، ووقف على المنصة وعيناه الباردتان تمسحان القاعة وتتفقدان الحضور، وللحظة بدا وكأنه يحدق مباشرة في كاثرين، إلا أنها أخذت تطمئن نفسها بأنه لايمكن له أن يميزها، خاصة مع هذا التنكر .

« يمكنكم الجلوس » قالها كروم وانتظر حتى استقروا جميعا في مقاعدهم قبل أن يبدأ، ثم : « إن هذا اليوم ليوم مجيد لعصبتنا ياأصدقائي» .

سرت موجة من الحماسة بين الحضور إزاء كلماته الافتتاحية، حتى كاثرين شعرت بالإثارة تعتريها إزاء كلماته.

ومن السقف بدأت آلة عرض الصور في تسليط الضوء على شاشة عرض كبيرة وراء رأس كروم، فظهرت عليها صورة توضيحية لآلة ضخمة معقدة .

« ميدوسا « قالها كروم، فترددت أصداء الكلمة بين أفواه الحاضرين.

« كما يعلم الكثير منكم، فإن ميدوسا هي سلاح من حقبة حرب الستين دقيقة، وقد علمنا به منذ ان تمكن فالانتاين من اكتشاف الوثائق المتعلقة به خلال رحلته في أمريكا منذ عشرين عاما مضت « .

أثناء حديثه كانت مجموعة من الصور التوضيحية والرسومات والكتابات المعقدة تتدفق على الشاشة وراءه .

وفي ذهن كاثرين تردد الخاطر : [لم يخبرني أبي أي شئ عن هذا الأمر].

« وبالطبع لم تكن تلك الشذرات من المخطوطات والوثائق بكافية لتمكننا من إعادة بناء الميدوسا ... ولكن منذ سبع سنوات - والفضل لفالانتاين مرة ثانية - تمكنا من اقتناء قطعة هامة من التقنيات القديمة، أخذت من موقع حربي قديم في الصحراء الأمريكية، والحقيقة أن تلك القطعة هي أفضل قطعة محفوظة من جهاز حاسب آلي تم اكتشافها؛ والحق أنها ليست مجرد قطعة من حاسب آلي، بل هي أعظم من ذلك، إنها تشكل العقل المحرك للميدوسا، هي الذكاء الاصطناعي الذي تحكم يوما في تلك الآلة. وبفضل العمل الجاد والشاق لدكتور سبلاي وزملائه في القسم .ب.، استطعنا أخيرا إعادة الآلة إلى العمل.

ياأعضاء عصبة المهندسين ... يسعدني أن أعلن لكم أن الأيام التي كانت لندن مضطرة فيها للاختباء والتخفي من المدن الأخرى الجائعة، قد أوشكت على نهايتها. مع امتلاكنا ميدوسا سوف نتمكن من تحويل اي مدينة تطاردنا إلى رماد مابين طرفة عين وارتدادها».

صفق الحضور في حماسة عارمة، ولكز بفيز كاثرين كي تشاركهم التصفيق الحار، إلا أن يديها قد بداتا وكأنهما قد تجمدتا تماما بجانبها على مسندي المقعد، لقد كانت تشعر بصدمة ثقيلة ألجمتها تماما، وتذكرت في حينها كل ما سمعته عن حرب الستين

دقيقة، وكيف أن الأسلحة الرهيبة للقدماء قد تسببت في دمار بلدانهم الساكنة وسممت الأرض والسماء. ... لايمكن أن يكون أباها قد ساعد المهندسين على إعادة بناء ذلك الشئ البشع!

« ولن نحتاج بعد اليوم لمطاردة البلدات الضئيلة كسالت هووك « استرسل كروم، « بعد أسبوع آخر سوف تكون لندن على مرمى حجر من باتمونخ جومبا، الحصن الحصين الذي تختبئ خلفه جماعة مقاومة التحرك منذ ألف عام، في تحد لحركة التاريخ. سوف تدمر ميدوسا ذلك الحصن في لمح البصر، وستصبح الأراضي من خلفه، بكل مافيها من مدن ثابتة، بمزارعهم وغاباتهم وثرواتهم المعدنية البكر، كل ذلك سوف يصبح أرض الصيد الجديدة للندن «.

انطلقت الأصوات الحماسية يتردد صداها في إثارة عارمة طغت على كل شئ، حتى على صوت كروم نفسه، كأمواج ثائرة ترتطم بجدار حجري محدثة صخبا تتردد أصدائه عبر الآفاق .

« ولكن أولا... لدينا عمل علينا إنجازه؛ بالرغم من أنني أردت أن نبقي على سرية الميدوسا إلى ان نصل إلى الحصن، إلا أنه قد بات من الضروري حاليا أن نعبر عن قوتها. وفي حين أتحدث إليكم، يعكف فريق دكتور سبلاي على إجراء اختبار للسلاح الجديد « .

حتى كاثرين كانت تريد سماع المزيد، لكن ذلك قد صار عسيرا مع كل تلك الأحاديث الحماية التي كان المهندسين يتبادلونها فيما بينهم. وفي غضون دقائق، كان بضعة من المهندسين - أغلب الظن أنهم من أعضاء الفريق القائم على مشروع الميدوسا - قد

هرعوا مغادرين القاعة .

وقفت كاثرين وبدأت تتخذ طريقها نحو باب الخروج، وفي لحظات كانت تمر عبر الممرات المعقمة للمقر وتفكر في الخطوة التالية التي يتعين عليها اتخاذها .

« كيت « ناداها بيفيز من خلفها : « إلى أين تذهبين ؟ لقد لاحظ بعض الحضور مغادرتك القاعة، حتى أنتِ لاحظت أن بعضا من رجال أمن العصبة ينظرون إلينا «.

« علينا أن نخرج من هنا. أين طريق المغادرة ؟»

« لاأعرف. فلم آتِ من قبل إلى هذا الطابق ... أظن أن علينا أن نعود أدراجنا إلى حيث العربات ..»

وحينما حاولت كاثرين أن تمسك بيده، أبعدها عنه قائلا : « لا. سوف يلاحظنا أحدهم، ليس مسموحا للمهندسين بملامسة بعضهم البعض» .

هرع الاثنان عبر الممرات الأنبوبية، وفي أثناء سيرهما قالت كاثرين: « كروم كان يكذب. أبي لم يذهب إلى أمريكا منذ سبع سنوات كما يزعم. لقد ذهب فقط في رحلة إلى الجزر في المحيط الغربي، ولم يخبرني أبدا أنه قد وجد أي شئ مهم هناك. ولو أنه قد وجد تلك الميدوسا لحكى لي عنها. ليس لأبي علاقة بأسلحة الحروب القديمة « .

« ولكن، لماذا يكذب العمدة ؟» سألها بيفيز، الذي كان - رغم كل شئ- سعيدا في قرارته أن عصبته قد تمكنت من امتلاك مفاتيح

واحدة من الأسرار القديمة .

« على أية حال هو لم يقل أن والدك قد ذهب إلى أمريكا خصيصا للبحث عن هذا الشئ، فقط قال إنه قد حصل عليه. ربما اشتراه من أحد جامعي المخلفات ... إنني أتساءل الآن حول ماالذي يعنيه كروم بقوله : التعبير عن قوة الميدوسا.. «

ثم توقف بيفيز عن السير، فقد وصلا إلى نهاية الممر ولم تكن ثمة عربات في هذا المكان، وإنما ثلاثة أبواب، اثنان منهما كانا مغلقين تماما، أما الثالث فكان يفضي إلى شرفة ضيقة تطل على ميدان باترنوستر .

« ماذا الآن؟ « سألته كاثرين، وقد بدا صوتها مرعوبا، فأجابها بيفيز بعصبية « لاأعلم « .

خرجت ماثرين إلى الشرفة لالتقاط أنفاسها. كان القمر ساطعا لكنه مغطى بطبقة رقيقة من السحب، في حين كان رذاذ من المطر البارد يتساقط على المدينة. نزعت كاثرين عنها نظارتها الواقية وتركت المطر ينساب على وجهها، وقد شعرت بالراحة لتخلصها أخيرا من الحرارة ورائحة الكيماويات في الداخل. ولم تكف عن التفكير في والدها، هل حقا وجد ميدوسا ؟. لقد كان بيفيز على حق، فما من سبب منطقي يجعل كروم يكذب في هذا الشأن .

بدأت تشعر بالشفقة على والدها، الذي يطير حاليا فوق القمم الثلجية لشان جوو، ولايدري شيئا بما يحدث هنا، وتمنت لو أنها امتلكت وسيلة للتواصل معه وتحذيره مما ينتوون فعله

باكتشافه .

فجأة سمعت صوت قعقعة عبر الميدان، فنظرت إلى الأسفل لكنها لم تميز سبب تلك الضوضاء، ثم أن شيئا ما جعلها تلتفت نحو كاتدرائية القديس بول، فشهقت مما رأته ! « بيفيز..انظر « .

وأمامـهما، كزهـرة عملاقـة تتفتـح ببـطء، بدأت قبة الكاتدرائية القديمة تنفتح!

***

22 جريك

سواء كان قد وصل لتوه، أو أنه كان هنا منذ البداية يراقبهم في صمت وخفاء، تبقى النتيجة واحدة، فها هو المطارد جريك يتقدم نحوهم في ثبات والعشب يحترق مكان موضع خطواته ... « إنهما لي « .

بغت القراصنة، وفي لمح البصر كانت ماجس تمطر الرجل المعدني بوابل من الطلقات، في حين أطلق مانجو زخيرة مدفعه المحمول محدثا فجوات في دروع الرجل، أما آميس فقد أفرغ عليه مسدسه .ومع كل هذا الوابل من الطلقات، وقف جريك يترنح قليلا، ثم، وببطء، كرجل يسير عكس اتجاه الرياح العاتية، بدأ يتقدم من جديد نحوهم. كانت الطلقات قد أمطرت دروعه، ومزقت معطفه تمزيقا، ومن الثقوب التي أحدثتها طلقات المدفع بدا أن مادة ما تسيل منها، ربما كانت دماء، وربما هي زيت. أيا ماكانت، فكل ذلك لم يعق المطارد عن المضي قدما، فمد ذراعيه أمامه وقبض على ماجس التي صدر عنها صوت حشرجة اختناق قبل أن تسقط بين العشب على الأرض. ثم استدار إلى آميس الذي كان قد ألقى بمسدسه وأخذ يعدو هاربا، لكن جريك عدا خلفه مباشرة، إلى أن توقف الرجل فجأة وهو يحدق في تلك الحفنة من المسامير الحمراء التي تبدت من صدره قبل أن يسقط مرديا .

أما مانجو، فقد فرغت بندقيته من ذخيرتها، فألقى بها جانبا وأخرج سيفه، ولكن حتى قبل أن يتمكن من التلويح به كان جريك قد جره من شعره ولوى رأسه بعنف إلى الوراء فانكسر

عنقه دفعة واحدة .

« توم .... اجرِ» قالتها هيستير آمرة توم بالهرب، فألقى جريك بالرجل الميت وتقدم للأمام نحوهما، فأطلق توم ساقيه للريح.

لم يكن توم يريد الهرب، فقد كان يعلم جيدا ألا جدوى من ذلك، كما كان يعلم أنه يجب أن يبقى بجانب هيستير وألا يتخلى عنها، لكن ساقيه قد بدتا وكأنهما تتصرفان من تلقاء ذاتها !

كان جسده يريد أن يفر من وجه الكائن المريع الذي جاء يطارده بغية قتله.

فجأة مادت الأرض تحت قدمي توم، ووجد نفسه ينقلب بين الوحل ويتدحرج إلى أن اصطدم بمجموعة من الأحجار عند طرف البركة التي ابتلعت كريسلر بيفي. ومن رقدته، استدار توم إلى الوراء ليجد جريك واقفا بين جثث قتلاه، ومن ورائه إيرهيفن على مرمى البصر، تختبر محركاتها الواحد تلو الآخر، وأضوائها تنعكس على هيكله المعدني البارد، في حين وقفت هيستير تواجهه بشجاعة وأقدامها مثبتة إلى الأرض.

أدك توم أنها تحاول إنقاذه عبر منحه الوقت الكافي للهرب بعيدا.... [لايمكنني أن أدعه يقتلها. لايمكن].

نهض توم، وعاد أدراجه إليهما، متجاهلا نداء جسده الذي كان يستصرخه أن يفر مبتعدا.

تسلل توم عائدا، وقد سمع جريك يردد : « هيستير شاو» .

« جريك. هل ستقتلني؟»

فأومأ جريك برأسه الكبير : « لفترة مؤقتة « .

« ماذا تقصد؟»

ابتسم الكائن بفمه العريض : « نحن الاثنان من نوع واحد ياهيستير. أنت وأنا. لقد علمت ذلك منذ اللحظة التي وجدتك فيها على الشاطئ في ذلك اليوم. وبعدما تركتني، كانت الوحدة ..... «

« كان عليَّ أن أذهب ياجريك .... أنا لست جزءا من مجموعة ألعابك « .

« لقد كنت حبيبة إلى نفسي ياهيستير «

[هناك شئ ما غير معتاد في هذا الكائن] هكذا حدث توم نفسه وهو يصعد التل نحوهما وقد سمع ماقاله جريك ..[المطاردون لايملكون مشاعر] ... هذا ماتعلمه عن الرجال العائدين ...

« هيستير «، ردد جريك بصوته العجيب، وهو ينزل أمامها على ركبتيه حتى صار وجهه في مستوى وجهها : « كروم قد قطع لي وعدا. لقد عرف رجاله أخيرا كيفية بنائي .....سوف آخذ جسدك إلى لندن، وسوف يقوم رجال كروم بإعادة إحيائك كامرأة معدنية، مثلي. سوف يستبدلون لحمك بالمعدن، وشعيرات جهازك العصبي بالأسلاك، وأفكارك بالمسارات الكهربائية، سوف تصبحين جميلة، وسوف تكونين شريكة حياتي إلى الأبد» .

« جريك « صاحت هيستير « كروم لن يفكر في إعادتي للحياة ..»

« ولماذا لا؟ لن يتعرف عليك أحد في هيئتك المعدنية الجديدة، ولن يكون لك ذكريات أو مشاعر، ولن تشكلي له تهديدا من أي نوع. لكنني سأتذكر كل شئ نيابة عنك يابنيتي، وسوف نقتص من فالانتاين معا».

ضحكت هيستير بصوت غريب، مخيف، ضحكة مجنونة جعلت أسنان توم تصطك؛ كان ذلك حين وصل أخيرا إلى حيث جسد مانجو الملقى على الأرض وسيفه الثقيل لايزال في قبضته، فسعى توم نحوه وشرع يحاول سحبه من يده. وحين نظر لأعلى وجد هيستير تقترب من المطارد وقد أرجعت رأسها للوراء كاشفة عن عنقها وهي تعد نفسها لمخالب جريك : « لابأس .. لكن دع توم يرحل ».

« يجب أن يموت « قالها جريك بحزم « إنه جزء من صفقتي مع كروم .. أنت لن تتذكريه حينما تعودين للحياة في جسدك الجديد» .

« أرجوك ياجريك .لا « توسلت إليه هيستير « أخبر كروم أنه قد فر منك أو أنه غرق، أو أي شئ. مات بشكل أو بآخر في العراء ولم تتمكن من العودة بجثته رجاءً !»

هنا تمكن توم من سحب السيف، وكان مقبضه لايزال رطبا من أثر يد مانجو المتعرقة، لقد أتت لحظة المواجهة، حيث سيقف وحده في وجه المطارد، وهاهو يشعر بخوف عارم وبالكاد يستطيع أن يلتقط أنفاسه .... [لاأستطيع فعل ذلك ... أنا مؤرخ ولست محاربا]... لكنه في نفس الوقت لايستطيع ترك هيستير تواجه الموت، في الوقت الذي تقامر هي بحياتها لإنقاذه.

كان قريبا منهما بما يكفي لير الخوف في عينيها والمخلب المعدني القاطع يقترب ببطء من عنقها .

« حسنا» قال جريك برفق وهو يلمس وجه هيستير بأطراف مخالبه « يمكن للفتى أن يبقى حيا « ثم سحب يده إلى الخلف استعدادا لقتلها .

«جريك!» صاح توم وهو ينطلق قدما نحو المطارد والسيف يتقدمه شاعرا بالضوء الأخضر يتفحص وجهه حيث استدار جريك نحوه، وفجأة طار الفتى إلى الوراء ليسقط على الأرض والألم يمزق صدره، وللحظة شعر بأنه قد تم فصله لقطعتين، قبل أن يدرك أن المطارد قد لطمه بيده المعدنية لطمة قوية، لكنه لم يستخدم مخالبه الحادة معه، فطوحه بعيدا ليسقط متدحرجا والألم يكاد يقتله. توقع توم أن يجد المطارد فوق رأسه ليغمد مخالبه في صدره، لكنه فوجئ به وقد سقط أرضا وهيستير منحنية فوقه، وقد انغمد السيف في صدره حتى المقبض، وانفجر شئ ما من داخله محدثا صوت قعقعة عالية ووميض متقطع، والشرر الأزرق يندلع من موضع السيف، ومن الدرع المعدني تصاعدت خيوط الدخان عاليا.

همست هيستير» آه ياجريك !»، فسحب جريك مخالبه كي تتمكن هيستير من الإمساك بيده؛ وفي لحظة واحدة بدأت الذكريات البائدة تطفو على سطح عقله البشري القديم، حتى تذكر من كان عليه قبل أن يموت ميتته الأولى ويتم سحبه إلى حيث معامل الإحياء وجعله مطاردا معدنيا.

نظر الرجل إلى هيستير للمرة الأخيرة، لقد أراد إخبارها بما تذكر، لكن الموت كان إليه أقرب، فأسلم الروح، ولم تكن ميتته الثانية بأسهل من الأولى .

همدت الجثة المعدنية تماما، وتصاعد الدخان منها إلى حيث الرياح .

في الوادي أسفلهم، كانت الأبواق تدوي، وقد رأى توم مجموعة من أهل الجزيرة يصعدون التل على عجل وقد كانت أصوات إطلاق النيران قد تناهت إلى مسامعهم.

أدرك توم أنهم لن يكونوا ودودين معهم، فحاول أن يقف على قدميه، لكن الألم في صدره كان مريعا، وقد سمعته هيستير يئن من الألم، فالتفتت إليه وصاحت: « لماذا فعلت ذلك؟»

نظر لها توم في ذهول :» لقد كاد أن يقتلك !!»

« لقد كان سيحولني لأكون مثله « صرخت فيه وهي تحتضن جريك « ألم تسمع ماقاله ؟ لقد كان سيحولني إلى كل ما أردته فعلا، بلاذكريات .. بلا مشاعر... فقط أستدعي صورة فالانتاين حينما أكون على وشك اقتناصه. آاااااه .لماذا تصر دوما على إقحام نفسك؟»

فصاح توم وقد تحول كل الألم والخوف بداخله إلى غضب : « لقد كاد أن يحولك إلى وحش !»

« أنا بالفعل وحش».

« لا. أنت لست كذلك. أنت صديقتي « .

« أنا أكرهك..أكرهك».

« حسنا. لكنني أهتم لأمرك، سواء راق لك ذلك أم لم يرق لك ... هل تظنين أنك الشخص الوحيد الذي فقد أمه وأباه؟. إنني أشعر بنفس الغضب والوحدة اللذين تشعران بهما، لكن ها أنا ذا كما ترين لاأسعى لقتل الناس والتحول إلى مطارد، أما أنت فأنانية فظة ...» ثم ماتت باقي الكلمات وكل ماكان ينتوي أن يقوله لها على شفتيه، وقد شهق في ذهول ..

ففي لمح البصر، صارت البلدة أسفل التل وإيرهيفن وأهل البلدة الصاعدون باتجاههم، شديدي السطوع تماما، وكأن الوقت لايزال في منتصف النهار، أما وجه هيستير فقد تجمد في ذهول تام، وقد سال لعابها من جانب فمها الفاغر، في حين امتد ظل توم أمامه على العشب المبتل بالدماء ..... في لحظة واحدة كان ضوء باهر يسطع على الجزيرة من ناحية الشمال، ليحيل الليل نهارا، وتتوارى بجانبه أضواء النجوم، وكأن شمسا جديدة قد أشرقت عليهم من العراء .

***

23 ميدوسا

وقفت كاثرين تحدق مأخوذة بالمشهد العجيب لقبة الكاتدرائية القديمة التي انفتحت أمام عينيها، ومنها إرتفع شئ ما بحركة بطيئة، ثم بدأ هذا الشئ ينفتح بدوره كزهرة أوركيد باردة معدنية بيضاء.

ومن تلك الآلة ترددت أصداء الحركة الميكانيكية لمحركاتها، عبر الميدان، حتى أن مبنى العصبة كان يرتج لقوة الذبذبات .» ميدوسا ! « همس بيفيز بود وقد وقف وراء كاثرين على مدخل الشرفة، « لم تكن أعمال صيانة على الإطلاق تلك التي كانت تجري داخل الكاتدرائية، وإنما كانوا يقومون ببناء الميدوسا بين جدرانها ! «

« أيها المهندسان ! «

سمعا صوتا من خلفهما فاستدارا فورا، فوجدا أحد المهندسين يقف وراءهما : « ماذا تفعلان هنا؟ « .... « هذا المكان غير مسموح بدخوله سوى لأعضاء القسم. ل.»

ثم بدأ الرجل يحدق في وجه كاثرين، وكان بيفيز هو الآخر يحدق فيها بعينين متسعتين ملئهما الرعب. للحظة لم تستوعب كاثرين سبب تلك النظرات، ثم بدأت تدرك الأمر : المطر! لقد نسيت كل شئ عن علامة العصبة المزيفة التي رسمتها على جبهتها بين حاجبيها بحرص، والآن جعلها المطر عبارة عن خطوط حمراء تسيل على وجهها .

« ماهذا بحق كويرك ؟» صاح المهندس .

« كيت ...أجرِ!» صاح بيفيز، دافعا الرجل بكل قوته جانبا، فهرعت كاثرين تعدو، وسمعت الرجل يصيح بغضب حيث أسقطته الدفعة أرضا.

جرها بيفيز من ذراعها وانطلقا يعدوان معا عبر الممرات الفارغة يمينا ويسارا، إلى أن وصلا إلى سلم، فهبطا درجاته مسرعين، ومن ورائهما سمعا أصوات صياح، ثم فجأة دوى صوت جرس الإنذار .

كانا في تلك اللحظة قد وصلا إلى الأسفل، حيث وجدا نفسيهما في قاعة استقبال صغيرة في مكان ما بالطابق الأرضي، حيث كانت بوابات زجاجية كبيرة تفضي إلى قمة الطبقة، وأمام البوابات وقف اثنان من الحراس .

« هناك مقتحم هاهنا « قالها بيفيز بثبات للحارسين اللذين كانا قد انتبها إلى صوت الإنذار، و» إنه في الطابق الثالث، وأظن أنه مسلح «.

فنظر الحارسان لبعضهما البعض في توتر، ثم انطلق أحدهما عبر الدرج وقد سحب مسدسه الغازي من حزامه، فانتهز بيفيز وكاثرين الفرصة وأسرعا نحو البوابة، ثم أنه قال للحارس الآخر : « زميلتي قد أصيبت « مشيرا إلى السائل الأحمر على وجهها : » سآخذها إلى المشفى «، ففتح الحارس الباب، وانسل الاثنان خارجين أخيرا .

انطلق الاثنان بأقصى ماأمكنهما في ظلال الكاتدرائية، ثم توقفا

لينصتا إلى الأصوات في الداخل، فسمعت كاثرين وقع الحركة الثقيلة للآلات، في حين كان وجيب قلبها يخفق بعنف حتى بدا لها وكأن صوته يطغى على صوت الآلات .

ومن الداخل انطلق صوت أحد الرجال مصدرا أوامره بصدد شئ ما، ثم وقع أقدام ثقيلة يقترب منهما .

« الحرس الوطني! « قالت كاثرين « سوف يطلبون تفحص أوراقنا وسوف يسحبون وشاحي ويتعرفون عليّ. بيفيز ... ماكان على أن أطلب منك أن تأخذني إلى داخل مقر العصبة. اهرب واتركني « .

فنظر لها ريفيز ثم هز رأسه أن لا، لقد خان عصبته وغامر بكل شئ لمساعدتها، وهو لن يتخل عنها الآن .

شهقت كاثرين : « ياكليو. ساعدينا »، ثم أن شيئا ما جعلها تنظر ناحية ميدان باتيرنوستر، فرأت شادليغ بوميروي - رئيس المؤرخين بالإنابة - واقفا عند درجات مدخل العصبة ويحمل بين ذراعيه الكثير من الخطابات والملفات وينظر إلى الأعلى. لم تشعر كاثرين بالسعادة لرؤية شخص ما كما شعرت بها حينما رأت الرجل، فانطلقت نحوه ومعها بيفيز بود، وهي تنادي بلطف : « سيد بوميروي ».

فنظر الرجل تجاه مصدر الصوت، ثم شهق من المفاجأة وكاثرين تنزع عنها الوشاح العجيب ليرى أمامه وجهها : « آنسة فالانتاين. ماالذي يجري بحق كويرك ؟. انظري مافعله هؤلاء المهندسون الملاعين بكنيسة القديس بول !»

فـالتفتت كـاثرين نحـو الأعلـى لتـرى تلـك الآلـة المعـدنية وقـد انفتحت على آخر امتداد لها الآن، ملقية بظلال واسعة النطاق على الميدان أسفلها. كانت شيئا يشبه رأس كوبرا ضخمة، وقد توجهت صوب بانزرستات بايريث. فصاحت كاثرين : « ميدوسا . »

« من ؟! » تساءل بوميروي، إلا أن صافرة الأمن قد دوت بقوة، فنظرت كاثرين إلى بوميروي متوسلة : « أرجوك ... إنهم يسعون وراءنا، ولو أمسكوا ببيفيز فلا أعلم ماقد يحدث له ».

لم يطرح بوميروي - باركته الآلهة - أية أسئلة من نوعية « لماذا » أو « ماالخطأ الذي اقترفتماه »، وإنما أخذ كاثرين في ذراعه وبيفيز في الذراع الآخر وهرع بهما تجاه مرأب العصبة، حيث تنتظر مركبته الخاصة.

وبمجرد أن دلفا إلى المركبة، مرت بهما دورية الحرس الوطني، لكنها لم تعر التفاتا لبوميروي ومرافقيه، فقام الرجل بإخفاء معطف كاثرين ووشاحها أسفل مقعده، ثم جعل بيفيز يقبع في أرضية المركبة، ثم أنه ركب بجوار كاثرين في المقعد الخلفي وقال : « اتركا لي مهمة الحديث » ثم انطلقت المركبة خارجة من المرأب تجاه ميدان باترنوستر.

وخارج محطة المصعد وقف حشد من الناس وقد شخصوا بأبصارهم جميعا في ذهول نحو ذلك الشئ الذي خرج من كاتدرائية القديس بول؛ في حين قام الحرس بإيقاف مركبة بوميروي، وأخذ مهندس شاب ينظر بداخلها. فتح بوميروي منفذا في الغطاء البلاستيكي المزجج للمركبة متسائلا : « هل توجد ثمة

مشكلة أيها المهندس؟»

« لقد وقعت عملية اقتحام لمقر عصبة الهندسة. إرهابيون من جماعة مقاومة التحرك..»

« حسنا. لاداعي لتتفقدنا نحن ..» قالها بوميروي ضاحكا « لقد كنت أعمل في مكتبي بمبنى العصبة طوال المساء، وقد تطوعت آنسة فالانتاين مشكورة لمساعدتي على ترتيب بعض الأوراق» .

« أيا كان ياسيدي،عليّ أن أفتش مركبتك «.

« حقا!» صاح بوميروي « هل نبدو كإرهابيين أمامك؟ ألا يوجد لديك شئ أفضل لتفعله ؟... سوف أشكو ماحدث إلى المجلس بأشد العبارات ...ياله من أمر شائن !»

بدا الشاب مضطربا غير واثق مما يتعين عليه فعله، فأومأ وتراجع جانبا ليفسح المجال لسائق مركبة بوميروي للتحرك تجاه مصعد المركبات؛ وبمجرد أن انغلق باب المصعد وراءهم، تنفس بوميروي الصعداء : « يالهؤلاء المهندسين الملاعين ....لاأقصد إهانتك أيها المتدرب بود».

« لابأس « قالها بود، فخرج صوته مكتوما من موضعه في الأسفل .

« شكرا لك» همست كاثرين، « شكرا لمساعدتك إيانا «.

« لاداعي لتشكريني..... إنني أكون سعيدا دائما حينما افعل أي شئ يعكر مزاج كروم وأتباعه. لقد بقيت هذه الكاتدرائية لآلاف السنين، والآن هاهم يحولونها إلى .... إلى ...إلى شئ ما لاندري

كنهه ..» ثم نظر نحو كاثرين فوجد أنها لاتنصت إليه، فسألها برفق « ولكن، ماالذي اقترفته ياآنسة فالانتاين وأثار جنونهم إلى هذا الحد ؟ ... لو أنك لاتريدين إخباري فلا بأس، لست مضطرة إلى ذلك، ولكن إن كنت وصديقك واقعين في مشكلة ما، وإذا كان يمكن لعجوز مثلي أن يفعل شيئا بصدد ذلك، فلا تترددي..»

سالت دموع كاثرين من مقلتيها بلا تحفظ، وقالت : « رجاءً، هلا أخذتنا إلى المنزل ؟»

« بالطبع» .

ثم جلسوا جميعا في صمت مطبق، في حين أخذت المركبة تنهب شوارع الطبقة الأولى إلى أن وصلت إلى حيث المتنزه. كان الليل يعج بالناس، يهرعون في كل اتجاه، ويصيحون وهم يشيرون إلى الأعلى نحو الكاتدرائية؛ وكان هناك آخرون يهرعون أيضا : رجال أمن عصبة الهندسة، ومعهم فرقة من الحرس الوطني.

وصلت المركبة إلى خارج منزل كاثرين، فترجل بوميروي ليصحب كاثرين حتى باب منزلها، فهمست مودعة بيفيز في حرارة، ولحقت بالرجل : « هلا أمكنك أن تصحب المتدرب بود إلى حيث محطة المصعد ؟.... عليه أن يعود إلى الأحشاء «.

فنظر لها بوميروي وقد بدا عليه القلق، ثم قال : « لاأدري ياآنسة فالانتاين. لقد رأينا كيف أن المهندسين في حالة اضطراب شديد. أنا أعرفهم جيدا، لابد أنهم يغلقون جميع مصانعهم ومهاجعهم الآن، وسوف يبدأ الأمن في تمشيط كل شئ، وربما يكونون قد اكتشفوا غيابه بالفعل ومعه اثنان من المعاطف والأوشحة .

« هل تعني أنه لايستطيع العودة ؟ مطلقا؟ « قالتها كاثرين وهي تشعر بالدوار بمجرد أن فكرت فيما تسببت به لبود المسكين .

أومأ بوميرووي إيجابا .

فقالت : « إذن، سوف أبقيه معي في منزلي «.

«لكنه ليس قطًّا ضالا ياعزيزتي « .

« حينما يعود أبي سوف يكون قادرا على حل الأمور، أليس كذلك؟ وسوف يشرح للعمدة أن بيفيز ليس له علاقة بالأمر..»

« ربما» أجاب بوميرووي « أبوك مقرب جدا لعصبة المهندسين ..لكنني لاأرى أن منزلك هو المكان المناسب لإخفاء صديقك. سوف آخذه إلى المتحف، فهناك متسع له به، ولن يكون المهندسون بقادرين على البحث عنه هناك دون إبلاغنا أولا « .

« هل ستفعل ذلك حقا ؟» سألته كاثرين مترددة، فهي لاتريد أن تورط شخصا بريئا آخر معها في المشاكل التي صنعتها بيدها. ولكن، على أية حال لن يستغرق الأمر سوى بضعة أيام، إلى أن يعود والدها، وحينها سيكون كل شئ على مايرام .

« شكرا جزيلا لك» ثم اشرأبت على أطراف أصابعها لتقبل وجنة بوميرووي : « شكرا لك».

فهش بوميرووي لها، وبدأ يقول شيئا ما .... لكنها لم تستطع سماع حرف منه، فقد كان هناك صوت غريب مدوٍ، يعلو أكثر فأكثر، إلى أن أدركت أن الصوت قادم من مكان ما فوقهما، صاح بوميرووي مشيرا إلى الأعلى « انظري».

لقد جعلها خوفها تنسى كل شئ عن كاتدرائية القديس بول وتلك الآلة التي خرجت من قبتها، وحينما نظرت إلى الأعلى نحو قمة الطبقة، وجدت ميدوسا وقد أضيئت باللون البنفسجي، وأخذت تصدر صوت قعقعة مدويا.

وقف شعر ذراعيها، وسرت القشعريرة في مؤخرة عنقها، وحينما حاولت التشبث بيد بوميروي شعرت وكأن شررا من الكهرباء قد سرت بين أطراف أصابعهما ...» سيد بوميروي. ماالذي يحدث بالضبط؟ «

« ياكويرك العظيم! أي وحش عملاق أيقظه هؤلاء الحمقى !!»

ثم بدأت كرات من الضوء تنفصل عن الآلة وتتجه للأسفل فوق ميدان سيركل، وكأنها بالونات من لهب .... كان الصوت يعلو أكثر فأكثر لدرجة غير محتملة حتى أن كاثرين اضطرت لسد أذنيها بيديها، وشعرت بأنها لم تعد تقوى على الاحتمال أكثر من ذلك .

فجأة انطلق تيار من الطاقة الحرارية المركزة، خارجا عن الآلة، ممتدا نحو الشمال صوب الطبقات العليا من بانزرستات بايريث مباشرة.

انشق الليل، حتى بدا وكأن الظلام ينسحب هاربا إلى أطراف السماء، التي استحالت نهارا ساطعا، صاعقا نوره، ولثانية رأت ماثرين طبقات الاتحاد البعيد وهي تتوهج بالنيران.

تلاشى الضوء الباهر، تاركا ميدان سيركل يغرق في الظلام من جديد، وصمت مطبق لم يقطعه سوى صوت (كلب) يعوي في

جنون من داخل المنزل.

« يـاكويرك العظـيم ! « همـس بومـيروي فـي جزع « كـل هـؤلاء المساكين ...»

« لاا...» صــاحت كــاثرين « لا..لا.. لا....» ثــم أخــذت تعـدو نحـو المتنزه وهي تشخص ببصرها نحو سحابة الضوء المتصاعد من الحطام المحترقة للاتحاد .

ومـن ميـدان سـيركل وكـل منصـات المتابعـة، جـاءت الأصـوات الصاخبة، والتي حسبتها كاثرين في البداية أصوات هلع وصراخ، أو ربما هذا ماتمنته كاثرين في قرارتها، ولكن...لا، لم تكن أصوات رعب، وإنما أصوات فرح وحماسة عارمة، وبهجة....بهجة.

***

24 عميلة الجماعة

اختفى الضوء الغريب القادم من الشمال، وانتهى القصف الرعدي الرهيب، ولم يتبق منه سوى صدى يتردد بين جنبات البركان القديم. وتمكن رجال الجزيرة السوداء من استعادة السيطرة على خيولهم المذعورة، فاستأنفوا طريقهم عبر التل حتى وصلوا إلى حافة المستنقع، فلوح توم بذراعيه صائحا « نحن أصدقاء ولسنا قراصنة. مسافران من لندن»

لكن الرجال لم يكونوا على استعداد لسماع أي شئ، وحتى القليلين منهم ممن أدركوا ماقاله الفتى، لم يكونوا مستعدين لأي تفاهم، فقد ظلوا طوال اليوم يطاردون الناجين من الضاحية الغارقة، كما رأوا مافعله قراصنة بيفي في قرى الصيد التي اجتاحوها على طول الشاطئ الغربي. والآن هاهم يقتربون من توم وهيستير ويتحدثون إلى بعضهم البعض بلغتهم الخاصة، وقد رفعوا أقواسهم وسهامهم في وجه الغربيين، ومن أحد الأقواس انطلق سهم رمادي ذو ريشة في نهايته، فانغرس في الأرض بالقرب من قدم توم، مما جعله يرتد سريعا إلى الوراء: « نحن أصدقاء».

سحب قائد المجموعة سيفه من غمده، إلا أن شخصا آخر منهم تقدم مسرعا بفرسه ثم وقف أمام الرجل وأخذ يصيح بشئ ما بلسان أهل الجزيرة، ثم أنه قال باللسان الإنجليكاني : « أريدهم أحياء» .

كان ذلك الشخص هو آنا فانج بذاتها !

تـرجلت فـانج عـن فرسـها وأسـرعت نحـو تـوم وهيسـتير. كـان معطفها يتطاير وراءها كعلم أحمر، ومن خلفها تدلى سيف في غمده، وعلى صدرها رأى توم شارة برونزية على شكل عجلة مكسورة : علامة جماعة مقاومة التحرك .

هرعت فانج تجاههما واحتضنتهما الواحد تلو الآخر وهي تبتسم بعذوبة : « توم .. هيستير ... لقد حسبتكما ميتين. لقد أرسلت ليندستورم وياسمينا بحثا عنكما صباح اليوم التالي بعد معركة إيرهيفن، إلا أنهما وجدا بالونكما محطما بين الأحراش الرهيبة فخمنـا أنكمـا لابـد وقـد لقيتمـا حتفكمـا .لقـد أردت البحـث عـن جثتيكمـا، لكـن الجيني هانيفر كانت تالفة تماما، وانشغلت في إرشـاد البلدة إلـى هنـا لـيتم إصـلاحها...لكننا قد تلونـا الصلوات لروحيكما وقدمنا أضحيات جنائزية لآلهة السماء ...هل تظنان أنه يمكننا أن نطالبهم بردها؟! «

ظـل تـوم صـامتا وصـدره يشـتعل مـن الألم لـدرجة انـه بـالكاد يستطيع التنفس. كان يستمع إليها وهي تتحدث، وقد أدرك من الشـارة علـى صـدرها أن مـاذكره بـيفي عنها كـان صـحيحا : إنها عميلة لجماعة مقاومة التحرك .. لن ينخدع بلطفها وابتسامتها بعد اليوم.

ثـم أنـها صـاحت بشـئ مـا مـن وراء كتفها للرجـال الممتطـين لخيولهم، فترجل اثنان منهما وقاما بجر فرسيهما نحوها، ثم وقفا يحدقان في تعجب في جثة جريك المعدنية .

« عليّ أن أترككما قليلا .... حيث سأطير بالجيني هانيفر نحو الشمال لاستكشاف كنه ذلك الضوء العجيب الذي أنار السماء

فجأة ثم اختفى ...سوف أترككما في رعاية سكان الجزيرة. ..هل يمكنكما ركوب الخيل ؟»

لم يكن توم قد رأى حصانا في حياته، فضلا عن أن يركبه، لكنه كان منهكا بشدة، والآلام تمزق صدره، والصدمة لاتزال تسيطر عليه، بحيث لم يقو حتى على مجرد الاعتراض وهم يحملونه ويضعونه على سرج الفرس الصغير، وحينما نظر خلفه وجد هيستير على ظهر الفرس الثاني. تحرك الركب حتى وصلوا إلى الشوارع الضيقة للجزيرة، حيث كانت أسر بأكملها قد غادرت منازلها ووقفت ترنو إلى السماء نحو الشمال .

وجد الرجال مكانا لتوم في إحدى المنازل الحجرية الصغيرة، وفي الداخل جاءه رجل يرتدي زيا أسود وعمامة كبيرة بيضاء وقام بتفحص صدره .

« إنه مكسور « قالها الرجل ذو العمامة، ثم قدم نفسه إلى توم: « أنا إبراهيم نازغول، طبيب؛ لقد انكسرت أربعة من ضلوعك !»

أومأ توم في إعياء شديد، وقد بدأ يشعر أنه محظوظ لكونه لايزال حيا رغم كل مامر به، كما كان سعيدا لكون هؤلاء القوم ليسوا على الهمجية والوحشية التي توقعها .

قام دكتور نازغول بتطبيبه ووضع الضمادات حول صدره، كما جاءته زوجة الطبيب بصحن من لحم الضأن تتصاعد منه الأبخرة، وقامت بمساعدته على تناول طعامه .

كانت الغرفة مضاءة بالمصابيح الموزعة في الأركان، وعند المدخل وقف أبناء الطبيب يحدقون في توم بعيون سوداء

كبيرة .

« أنت بطل» قال الطبيب « إنهم يقولون إنك حاربت جنيا حديديا كان يمكن أن يقتلنا جميعا « .

نظر توم إلى الرجل في نعاس وإرهاق. لقد نسي كل شئ تقريبا عن تلك المعركة التي دارت رحاها على أطراف المستنقع، حتى أن تفاصيلها تكاد تكون قد اختفت من ذهنه، كأنها كانت حلما .

وأخذ توم يفكر [أنا قتلت جريك .... حسنا. إنه ميت من البداية... إكلينيكيا. ومع هذا فقد كان لايزال شخص له آماله وخططه وأحلامه، وقد وضعت أنا نهاية لها جميعا].

لم يشعر توم بأنه بطل على الإطلاق، وإنما قاتل، وتفاقم الشعور بالذنب والعار في داخله، وحينما سقط رأسه فوق صحن الطعام وراح في النوم أخيرا، ظل هذا الشعور ملازما له وقد تجسد في أحلامه .

تم نقل توم إلى غرفة أخرى ذات سرير مريح ونافذة تتبدى من ورائها السماء الزرقاء ذات السحب البيضاء، وضوء الشمس يفترش الحائط .

« كيف أصبح قاتل المطارد الآن؟ « فتح توم عينيه على صوت محدثه فوجدها آنا فانج وقد وقفت أمامه وعلى شفتيه ابتسامتها العذبة، كابتسامة الملائكة في الصور القديمة .

« كل شئ يؤلمني» أجابها توم في إرهاق .

« أيمكنك السفر إذن؟ إن الجيني هانيفر تنتظر، وإني أريد أن

نغادر قبل مغيب الشمس. يمكنك تناول الطعام بمجرد أن نصير في الجو. لقد طهوت طبقا من لحم العلجوم «.

« أين هيستير؟» سألها توم .

« آه. إنها آتية «.

اتخذ توم وضع الجلوس على سريره، وهو لايزال يرتجف من الألم في صدره مع كل حركة يتخذها؛ ولكن ليست آلام صدره فقط هي ماكانت توجعه، بل الذكريات ... ذكرى كل ما حدث وما مر به ..

« لن أذهب إلى أي مكان معك « .

ضحكت فانج وقد ظنته يمازحها، ثم مالبثت أن أدركت أنه إنما يتحدث بجدية، فجلست على طرف الفراش وقد بدا عليها القلق : « توم؟ هل فعلت أي شئ أثار حفيظتك أو استياءك؟»

فانفجر توم غاضبا : « أنت تعملين لصالح جماعة مقاومة التحرك ...أنت جاسوسة، والحقيقة أنك لست أفضل من فالانتاين. لقد ساعدتنا فقط لأنك كنت تأملين أن ندلي إليك بمعلومات عن لندن» .

تلاشت ابتسامة فانج تماما، ثم تمالكت نفسها وقالت بلطف : « توم..لقد ساعدتك لأنني أحبك. ولو أنك مثلي شاهدت عائلتك تلقى في أغلال العبودية حتى الموت على متن مدينة متحركة لاترحم، فهل كنت سترفض مساعدة جماعة تناضل ضد القوانين الداروينية ؟ «

ثم أنها مدت يدها وأزاحت الشعر المنسدل على جبينه في حنان، فتذكر توم إحدى تلك الأيام البعيدة حينما كان طفلا صغيرا، وكان مريضا بشدة، وكانت أمه تجلس بجانبه وتداعب شعره بنفس الطريقة.

إلا أن شارة جماعة مقاومة التحرك المتدلية على صدر فانج، وخيانة فالانتاين المريرة التي كانت لاتزال ماثلة أمامه، قد وقفا حائلا بينه وبينها. لن يسمح لنفسه بأن ينخدع بابتسامتها ومودتها مرة ثانية، فقال وهو يزيح وجهها عن جبينه : « أنت تقتلين البشر ....لقد أغرقت مارسيليز « .

« لو أنني لم أفعل ذلك لهاجموا بلاد المائة جزيرة وقتلوا أو استعبدوا المئات من البشر الذين يفوق عددهم عدد الذين غرقوا جراء قنبلتي».

« وشنقت ...عنبة في مكان ما ..!»

« عاهلة بالاوبينانج؟ .... السلطانة؟ « ولم تستطع فانج أن تخفي ابتسامتها، « لم أشنقها ...يالها من اتهام مريع ! ...لقد قمت بكسر عنقها ببساطة. لقد كانت تسمح للمدن البرمائية بالتزود بالوقود على جزيرتها، ولهذا كان يجب الخلاص منها « .

لم يجد توم مايدعو للتبسم على الإطلاق فيما قال، وتذكر توا رجال ريلاند الذين كانوا راقدين على رصيف المرفأ في ستاينز بلا حراك، وكيف أن فانج حينها ادعت أنهم فاقدو الوعي .

« ربما لاأكون أفضل من فالانتاين ياتوم ... لكن يبقى هناك فارق بيننا. فالانتاين حاول قتلك وأنا أريد إنقاذك....إذن. هل ستأتي

معي؟»

« إلى أين؟ « سألها توم والشك يفوح من نبراته.

« إلى شان جوو... إنني أراهن على أن الشئ الذي أضاء السماء ليلة أمس بهذا الشكل له علاقة بذلك الشئ الذي استحوذ عليه فالانتاين من والدة هيستير. لقد علمت أن لندن تتجه رأسا إلى منطقة الحصن « .

نظـر إليـها تـوم متعجبا، هل يمكن أن يكون العمدة قد اكتشف طريقة ما يستطيع بها اختراق حدود جماعة مقاومة التحرك ؟ لو أن الأمر كذلك فلا شك أنها أعظم أخبار يسمعها منذ سنوات!

أما بالنسبة للذهاب إلى شان جوو، معقل جماعة مقاومة التحرك، فإنه آخر مكان في العالم يمكن لشاب لندني متحضر أن يذهب إليه .

« لـن أفعـل أي شـئ يسـاعدك علـى إيـذاء لنـدن .... إنـها لاتزال موطني « .

« نعم، بالتأكيد. ولكن إن كان وطنك على وشك مهاجمة الحصون، ألا تظن أن هؤلاء البشر الذين يحيون خلفها يستحقون فرصة للنجاة؟ ... إنني ذاهبة لتحذيرهم من الخطر المحدق بهم، وأريد أن تأتي هيستير معي لتحكي قصتها هناك، وهيستير لن تأتي إلا إذا أتيت أنت أيضا « .

ضحك توم، حتى آلمه صدره من الضحك، وقال : « لاأظن ذلك ... هيستير تكرهني «.

« هراء! .. إنها تحبك كثيرا. لقد قضت الليل تحكي لي مدى لطفك معها، وإلى أي مدى كنت شجاعاً وأنت تقتل ذلك الرجل المعدني . »

« هل فعلت ذلك حقا؟ « قالها شاعرا بالفخر والسعادة وقد علت وجهه الحمرة .

ماكان يظن أبدا أنه قد يصبح مقربا يوما من هيستير شاو ذات المزاج المتقلب، لقد صارت هي الأخرى أقرب صديق له في هذا العالم الشاسع المضطرب، ولن ينس ما حيي كيف وقفت تتوسل لجريك كي لا يقتله. اتخذ توم قراره، وأدرك أنه أينما ذهبت هيستير فسوف يذهب معها ! حتى لو قررت الذهاب إلى معقل جماعة مقاومة التحرك الهمجيين : شان جوو.

« حسنا ....سوف آت معكم « .

***

25 المؤرخون

ظلت السماء تمطر بشكل متواصل، مطر غزير كان كافيا لإزالة الآثار الموحلة على مسار لندن. إلا أن كل هذا المطر لم يكن كافيا لإطفاء نيران بانزرستات بايريث، التي ظلت تتوهج باللهب بعيدا ناحية الشمال الغربي.

وفوق سطح مقر الهندسة، وقف ماجنوس كروم يطالع الدخان المتصاعد من حطام الاتحاد، ومن خلفه وقفت إحدى المتدربات تحمل عنه مظلة تظلل رأسه، ومن ورائها كان ستة من الرجال طوال القامة جامدي الملامح يقفون في أردية تماثل الرداء التقليدي لعصبة المهندسين، لكنها كانت سوداء .

حتى اللحظة الراهنة لم يتمكن الأمن من إلقاء القبض على الإرهابيين اللذان اقتحما مقر العصبة في الليلة السابقة، وقد تم تعزيز الأمن في المقر إلى أقصى درجة، واتخذت العديد من الإجراءات، أهمها أن ماجنوس كروم منذ الآن فصاعدا لن يتحرك إلى أي مكان دون حرسه الجدد : الدفعة الأولى من المطاردين الذين نجحت دكتور تويكس في تصميمهم.

وفي السماء، كانت إحدى مركبات الاستطلاع تدور في الأفق، ثم حطت إلى أرض المدينة، ومنها ترجل دكتور فامبراس، رئيس امن عصبة الهندسة، الذي هرع إلى حيث يقف العمدة .

« حسنا يادكتور ؟ ماذا رأيت حيثما استطعت الهبوط ؟ « سأله كروم في لهفة، فهز فامبراس رأسه : « النيران لازالت مشتعلة في الحطام من كل ناحية، لكننا هبطنا إلى أقصى ماأمكننا وقمنا

بالتقاط بعض الصور الفوتوغرافية. لقد ذابت الطبقات العليا وانهارت تماما إلى الأسفل، كما بدا وأن كافة الغلايات وخزانات الوقود قد انفجرت بمجرد أن مسها شعاع الطاقة من سلاحنا « .

فأومأ كروم : « هل كان هناك أية ناجين ؟»

« لقد رصدنا إشارات بسيطة بوجود أحياء بين الطبقات، لكن فيما عدا ذلك...»

كانت عينا رئيس الأمن مفتوحتين عن آخرهما خلف العوينات السميكة، حتى بدتا كقنديلي بحر في حوض للأسماك. إن عصبته تتفنن دوما في ابتكار طرق جديدة لقتل البشر، وهو لايزال مذهولا حتى الآن مما رآه من منظر الجثث المتفحمة والجافة التي امتلأت بها شوارع بانزرستات بايريث، حتى أن بعضهم تفحم وهو واقف كتمثال وقد أخذته الصاعقة بالضوء الباهر لشعاع الميدوسا .

« هل تنوي العودة لالتهام الحطام ياسيدي العمدة؟ ... النيران سوف تلتهم نفسها وتفنى في غضون يوم أو اثنين « .

« بالطبع لا... علينا أن نتجه رأسا نحو الحصن» .

« ولكن أهل لندن لن يحبوا ذلك ولن يكونوا راضين... لقد حازوا النصر، وهم الآن يريدون الغنائم، سوف يرغبون في انتزاع الألواح المعدنية وبقايا الاتحاد...»

« لم آت إلى لندن كل تلك المسافة كي ننتزع بضعة ألواح معدنية « قاطعه كروم في حزم وهو واقف عند الإفريز المعدني لسطح

المقر وهو يرنو ببصره نحو الشرق، إلى حيث قمم الجبال البيضاء في الأفق، التي تصطف كأسنان بيضاء نضيدة : « علينا أن نمضي قدما. بضعة أيام أخرى وسوف نبلغ الحصن. لقد أعلنت اليوم عطلة عامة، وسيقام حفل في الردهة احتفاءً بالحدث العظيم. فكر في الأمر جيدا يافامبراس، سوف يكون لدينا ساحة صيد جديدة « .

« لكن جماعة مقاومة التحرك قد صاروا على علم بأننا نتحرك نحوهم الآن. سوف يحاولون منعنا ياسيدي «.

فأجابه كروم وعيناه الباردتان تلمعان وهو يتطلع نحو المستقبل الواعد : « فالانتاين لديه تعليمات للتعامل مع الأمر « .

***

أخذت لندن تمضي قدما تجاه الشرق، مخلفة وراءها الاتحاد الهالك وسحب الدخان تتصاعد منه .وعبر بقايا الأجواء الاحتفالية في الشوارع، مضت كاثرين إلى حيث محطة المصعد، ومن حولها رجال قسم إعادة التدوير في بزاتهم الحمراء يجمعون بقايا قبعات الاحتفال واللافتات الملونة التي كانت العبارات المكتوبة عليها لاتزال ظاهرة : نحن نحب ماجنوس كريوم.. فلتحيا لندن « .

سارت كاثرين وهي تزجر ذئبها وتناديه في حدة، حيث كان يلهو بقطعة من السلاسل الورقية ملقاة في إهمال .

أخيرا وصلت إلى المتحف، حيث ما من لافتات ولا أجواء احتفالية صاخبة. لم تكن عصبة المؤرخين أبدا تسارع كالآخرين

للاحتفاء بمنجزات عصبة المهندسين، ولم تغير نهجها هذا مع أحدث المنجزات : ميدوسا.

وبين أروقة المعارض في المتحف، ساد الصمت، وهو صمت ملائم لصباح يوم جاء بعد موت مدينة بأكملها .

وقد بدا صوت الشوارع مكتوما، وكأن الزمن قد أسدل ستائره بين الخارج وبين قاعات المتحف .

ساعد الهدوء في الداخل كاثرين على استجماع شتات أفكارها، ومع وصولها إلى مكتب شالديغ بوميروي كانت قد تمكنت من إعادة ترتيب أفكارها وتحديد ما يتعين عليها قوله .

ولم تكن قد أخبرت السيد بوميروي بعد بما عرفته في مقر الهندسة، لكن لابد أنه على يقين بوجود خطب ما، خاصة مع حالة الصدمة التي تركها عليها عند منزلها في الليلة الماضية، ولهذا لم يبد متفاجئا حينما وجدها على بابه تقول له بصوت خفيض : « سيد بوميروي علي أن أتحدث معك. هل بيفيز هنا ؟ هل هو بخير؟ »

« بالطبع. ادخلي».

وكان بيفيز ينتظرها بالداخل، جالسا إلى مكتب خشبي صغير، وقد ارتدى رداء عصبة المؤرخين، أعاره إياه السيد بوميروي، وقد بدا رأسه الحليق كقشرة بيضة هشة في الضوء الأصفر الخافت.

ودت كاثرين لو عانقته وقدمت له اعتذارها عما سببته له من

متاعب، لكنها ما إن دلفت إلى المكتب حتى فوجئت بعدد من المؤرخين في الداخل، وقد اعتراها خوف مفاجئ من أن يكون بوميروي قد خانها .

« لاتقلقي» قالها بوميروي في لطف» طالما أن بود سيحل ضيفا على المتحف، فكان لابد أن أعرفه بزملائي. لايوجد بيننا أصدقاء للعمدة. لقد اتفقنا جميعا على أن المتدرب بود يمكنه أن يظل هنا طالما اقتضت الضرورة «.

أفسح المؤرخون مكانا لكاثرين كي تجلس بجانب بيفيز، فسألته : « هل أنت بخير ؟» وقد تنفست الصعداء بمجرد أن أومأ لها مبتسما في عصبية وقال : « لست في حال سيئة. المكان غريب علي هنا، كل تلك الأخشاب في كل مكان، والحاجيات القديمة. إلا أن المؤرخين ودودون جدا ..»

نظرت كاثرين حولها إلى المؤرخين الحاضرين معهم، وكانت تعرف الكثيرين منهم : دكتور أركينجارز... دكتور كارونا... البروفسور بوترتايد .... الآنسة بوتس ... نورمان ناكارو من قسم الطباعة والرسم، والآنسة بليم التي كانت تمسح أنفها بمنديل حينها .

« لقد كنا نتحدث حول تدمير بانزر ستات بايريث « قال بوميروي وهو يناول كاثرين كوبا من الكاكاو « تلك الآلة الرهيبة ميدوسا» .

فقالت كاثرين بمرارة « الآخرون جميعا يرونها آلة رائعة .... لقد سمعتهم طوال الليلة الماضية يضحكون في جذل ويصيحون : يالكروم الرائع. أعلم أنهم قد شعروا بالارتياح لكوننا لم يتم

التهامنا، ولكن... حسنا. لا أرى في إحراق مدينة أخرى شئ يدعو للسعادة « .

« إنها مصيبة « قالها دكتور أركينجارز « إن الذبذبات الصادرة عن تلك الألة اللعينة كادت تحطم الأواني الخزفية لدي!»

« آه. اللعنة على آنياتك الخزفية يا أركينجارز « قالها بوميروي في حدة وقد لاحظ معالم الانزعاج على وجه كاثرين، « ماذا عن بانزر ستات بايريث؟ ! لقد احترقت المدينة حتى صارت كجمرة نار « .

« هذا ماجنيناه من هوس عصبة المهندسين بالتقنيات القديمة « قالها بروفسور بوترتايد، « لدينا عدد لايحصى من القرون الغابرة كي نتعلم منها أمورا شتى، لكن كل ما أثار اهتمامهم من التاريخ المديد هو بضعة آلات قديمة !»

« ومالذي جناه الأقدمون من تلك الآلات أصلا؟! « ردد أرمينجارز « فقط تسببوا في فوضى رهيبة في عالمهم، ثم دمروا أنفسهم « .

فأومأ الآخرون مؤيدين لكلامه .

أما دكتور كارونا فقال في حسرة : « لقد كان لديهم متحف عظيم في بانزرستات بايريث «.

ووافقه نانكارو : « وأظن أنه كان لديهم لوحات بديعة «.

« وكان لديهم نماذج نادرة لمنحوتات خشبية رائعة « قالتها الآنسة بليم، ثم انخرطت في البكاء على كتف أركينجارز .

« اعذري مويرا بليم ياكاثرين، فقد جاءتها أخبار سيئة هذا

الصباح، حيث أمر كروم بأن يتم تكسير الأثاث والمشغولات الخشبية لدينا في المتحف وتلقيم الأفران إياها. لدينا أزمة وقود كما ترين، جراء تلك الرحلة المجنونة نحو الشرق « .

كانت كاثرين تهتم بالطبع بالأعمال الخشبية والخزفية وما إلى ذلك، لكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من الشعور بالرضا لأن هناك آخرين يشاركونها الارتياع مما يفعله كروم ومما أطلقه من سلاح مدمر. ثم أنها أخذت نفسا عميقا، وشرعت تسرد ما سمعته وبيفيز في مقر الهندسة عن الميدوسا، وخطة كروم الكبرى التي ينتوي تنفيذها : مهاجمة حصن جماعة مقاومة التحرك .

« لكن ذلك أمر مريع « تصاعدت الهمسات فيما بين الحاضرين، معبرين عن صدمتهم مما سمعوا .

« شان جوو حضارة قديمة وعظيمة، وسواء أكانت ضد التحرك أو معه، لاينبغي بأي حال تدمير بوتمانوخ جومبا «.

« فكروا في كل تلك المعابد بها.. «

« الخزف..»

« اللوحات الأنيقة..»

« الأثاث..»

« فكروا في البشر!» صاحت كاثرين في غضب.

« نعم. نعم « وافقها الجميع الرأي ! ثم أنهم نظروا إلى بعضهم البعض ثم إليها في غباء !، فبعد عشرين عاما من حكم كروم،

لاتوجد لديهم أية فكرة عن كيف يمكن الوقوف في وجه عصبة المهندسين، فسألها بوميروي : « ولكن ماذا يمكننا أن نفعل؟ «

« علينا أن نخبر الناس بما يحدث « أجابته كاثرين: « أنت الآن كبير المؤرخين، اطلب عقد اجتماع لمجلس المدينة وأطلعهم على كل شئ واشرح لهم مدى بشاعة الأمر « .

إلا أن بوميروي هز رأسه رافضا الفكرة : « لن ينصتوا، لقد سمعت بنفسك أصوات الهتافات الحماسية والمرح ليلة أمس» .

« لكن هذا فقط لأن بانزرستات بايريث أرادت أن تأكلنا، لكن الناس لو علموا أن كروم ينتوي توجيه سلاحه لمدينة أخرى... «

« سوف يصيحون في حماسة أكبر « قاطعها بوميروي وهو يتنهد في حزن .

« لقد استطاع حشد الجميع كحلفاء له «قال دكتور كارونا، « لقد رحل كل رجال العصبات العظماء، منهم من مات ومنهم من تقاعد ... حتى متدربينا صاروا مسحورين بفكرة التقنيات القديمة، تماما كعصبة المهندسين، خاصة منذ أن وضع كروم رجله فالانتاين فوق رؤوسنا كرئيس لعصبة المؤرخين ...آه...آ... لم أقصد أي إساءة ياآنسة كاثرين».

« أبي ليس رجل كروم، أنا واثقة من ذلك « ردت كاثرين والغضب يعتريها، « لو أنه قد درى بما يخطط له كروم لما ساعده قط. ربما لهذا تم إرسال أبي في تلك المهمة الاستطلاعية لإزاحته. وحينما يعود إلى الوطن ويكتشف ما يحدث سوف يجد طريقة لإيقاف كل ذلك. فكما ترون، لقد كان أبي هو من وجد الميدوسا في

البداية، ولو كان قد خطر بباله أنها سوف تؤدي لقتل كل هؤلاء البشر لارتعد خوفا. أنا على يقين من أنه سوف يفعل شيئا « .

كانت كاثرين تتكلم بحرارة شديدة، حتى أن بعض من المؤرخين قد بدأ يميل لوجهة نظرها، حتى دكتور كارونا الذي تم تجاوزه في الترقية يوم قام كروم بتنصيب فالانتاين كرئيس للعصبة .

كان بوميروي أول من تحدث : « أتمنى أن تكوني على صواب؛ لأن والدك هو الشخص الوحيد الذي يمكن أن نأمل أن يقف في وجه العمدة. علينا أن ننتظر عودته» .

« ولكن...»

« وفي غضون ذلك قد اتفقنا على أن نبقي السيد بود في أمان هنا في المتحف، يمكنه أن ينام في معرض النقل القديم، ويساعد دكتور نانكارو على فهرسة المجموعات الفنية. وإذا أتى المهندسون للتفتيش عنه، فسوف نجد له مخبأ. أعلم أننا بهذا لانقدم الكثير للوقوف في وجه كروم، لكن .. رجاءً ياكاثرين، حاولي أن تتفهمي أننا لسنا سوى عجائز خائفين، وأنه ليس في أيدينا الكثير لنقدمه « .

***

26 باتمونخ جومبا

كان العالم يتغير. بالطبع هذا أمر ليس جديدا، خاصة على متدرب في التاريخ تعلم منذ البدء أن العالم يتغير دوما، إلا أن الأمر كان مختلفا هذه المرة، فالعالم صار يتغير بسرعة كبيرة جدا، وبوتيرة أعلى من أن يتمكن أحد من متابعتها.

ومن موقعه على متن الجيني هانيفر، رأى توم ساحة الصيد الشرقية وهي تعج بالبلدات التي تهرع بالفرار بسرعة بالغة من ذلك الضوء الصاعق، أيا ماكان، والذي أضاء السماء الشمالية بضوء يأخذ الأبصار.

كانت البلدات تهرول بأقصى سرعة ممكنة لها، لدرجة شغلتهم عن افتراس بعضهم البعض .

« ميدوسا»، سمع توم الآنسة فانج تردد لنفسها الاسم، وهي تنظر نحو دخان الحريق المتصاعد في الأفق.

« ماهي ميدوسا؟» سألتها هيستير « أنت تعلمين شيئا ما، أليس كذلك؟ لديك معلومات عن ذلك الشئ الذي تسبب في مقتل أمي وأبي ؟»

« إنني لا أعرف شيئا. ليتني كنت أعرف. ولكن كل ما في الأمر أنني قد سمعت هذا الاسم يوما. منذ ست سنوات كان للجماعة عميل اعتاد دخول لندن كأحد أفراد طاقم الملاحة على متن منطاد مرخص، وقد سمع يوما شيئا ما أثار اهتمامه، لكننا لم نعرف أبدا ماهية هذا الشئ، فقط تلقت الجماعة رسالة من عميلها

مكونة من كلمتين: احذروا ميدوسا. فقط لاغير، وكان ذلك آخر ماتلقته الجماعة منه، فقد أمسكت به عصبة المهندسين وقتلوه» .

« وكيف علمت؟» سألها توم.

« لأنهم أرسلوا لنا رأسه».

وفي تلك الليلة، هبطت فانج بالجيني هانيفر إلى واحدة من تلك البلدات الفارة، وتدعى بيريباتيتيا بوليس، حيث كانت في طريقها للفرار نحو الجنوب لتتخذ من الجبال وراء بحر خازاك مخبأ لها.

في الميناء الجوي للبلدة، سمعوا المزيد من الأخبار حول ماحدث لبانزرستات بايريث، حيث قال أحد الملاحين : « لقد رأيتها ... كنت على مسافة مائة ميل لكنني استطعت أن أراها. رأيت ذلك اللسان من النار وهو يمتد مندلعا من قمة الطبقة العليا في لنجن، حاملا الموت لكل شئ يمسه» .

وقال عالم للآثار : « لقد اكتشفت لندن شيئا ما من حرب الستين دقيقة.... لقد أصيبت الإمبراطورية الأمريكية بالجنون في أواخر عهدها، ولقد سمعت العديد من القصص حول الأسلحة المرعبة التي توصلت إليها .... منها أسلحة تعتمد على الطاقة الكمية التي تستمد قوتها من أماكن خارج حدود الكون «.

وردد أحد التجار من البلدة، وكان مرعوبا لأقصى حد : « من سيجرؤ على تحديهم الآن ؟ بعدما امتلك ماجنوس كروم سلاحا كهذا يمكنه به حرق أي مدينة لاتنصاع له .... سوف تأمرنا لندن : كروم هنا، وعليكم أن تتركونا نأكل بلادكم لن يكون أمامنا حينها

سوى الطاعة .... إنها نهاية الحضارة كما نعلمها «.

أما الشئ الوحيد الجيد وسط كل هذا، فهو أن أهل البلدة تقبلوا نقود توم اللندنية!، حيث قام بشراء وشاح حريري أحمر لهيستير، بدلا من ذلك الوشاح الذي فقدته في تلك الليلة أثناء مطاردتهما في الأحشاء .

« لأجلي أنا؟ « قالتها هيستير غير مصدقة، وهو يعطيه إياها. إنها لاتتذكر أن أي شخص قد سبق وأعطاها هدية من قبل، كما أنها لم تتحدث إليه منذ أن غادرا الجزيرة السوداء إلا لماما، شاعرة بالخجل من صياحها في وجهه ليلة أن قتل جريك. أما الآن فقد رددت : «شكرا لك. وأظن أن عليَّ أن أشكرك أيضا على إنقاذك لحياتي، وإن كنت لاأعلم حقا لماذا اهتممت بإنقاذي « .

« لأنني أعلم أنك لاتريدين حقا أن ينتهي بك الحال كمطارد « .

« لا، لقد أردت ذلك. إن ذلك كان ليجعل الأمور أيسر ... لكنك فعلت الصواب « .

ثم أشاحت ببصرها عنه، وهي تشعر بالإحراج، وطفقت تنظر إلى الوشاح في يدها : « إنني أحاول أن أكون لطيفة ... لم يشعرني أحد من قبل أنه يحبني كما فعلت أنت، لذا فأنا أحاول أن أكون ودودة باسمة، كما تريدني أن أكون، إلا أنني وبمجرد أن أرى انعكاس وجهي، أو أتذكر فالانتاين، فإن كل شئ ينقلب، فلا أقوى إلا على التفكير في أسوأ الأمور والصراخ في وجهك وتجريحك ....أنا آسفة» .

« لابأس ... أنا أتفهم كل شئ»، ثم أنه تناول الوشاح من يدها

وقام بلفه بعناية حول عنقها، لكنه شعر بالحزن بمجرد أن تذكر أنها سوف تقوم بالتأكيد بسحب الوشاح إلى وجهها لتداري فمها المعوج وأنفها، فقد اعتاد هذا الوجه وتلك الابتسامة الملتوية.

عاد الجمع إلى جيني هانيفر وبدأوا التحليق ثانية قبل الفجر، عابرين سلسلة من التلال الشبيهة بالورق البني المجعد .

وعلى مدار اليوم كانت الأرض أسفلهم تزداد ارتفاعا، إلى أن أدرك توم أنهم يغادرون ساحة الصيد برمتها .

وبحلول المساء، كان جيني هانيفر يحلق فوق أرض شديدة الوعورة بحيث لاتستطيع غالبية البلدات السفر عبرها. ومن الأعلى شاهد توم غابات كثيفة من أشجار الصنوبر وغيرها من النباتات، ثم قرية صغيرة ثابتة، تتموضع وسط أراضٍ زراعية، كما رأى مستعمرة صغيرة فوق قمة أحد الجبال، ذات طرق حقيقية وعربات تتحرك عبرها ذهابا وإيابا. لقد قرأ في دروس التاريخ عن الطرق، إلا أنه لم يتخيل أنه سيراها يوما .

في اليوم التالي قامت فانج بإعطاء توم وهيستير كرات من معجون أحمر اللون، وأخبرتهم أنه : « مسحوق نبات التنبول » وقالت مفسرة: « إنه مصنوع من الأوراق المجففة لهذا النبات، وهي وصفة من بلاد المايا الجديدة. إنها تساعد على تحمل الطيران على ارتفاعات شاهقة كهذه، ولكن لاتعتادا عليها وإلا ستصبح أسنانكما حمراء كأسناني « .

جعلت الذرات الصلبة للمسحوق فك توم يؤلمه، إلا أنه كان قوي المفعول حقا، حيث ساعدته على تجاوز حالة الغثيان وخفة

الرأس التي شعر بها كلما ارتفع المنطاد للأعلى، كما لطف كثيرا من آلام ضلوعه .

في تلك اللحظة كان ظل الجيني هانيفر يرتفع عاليا فوق قمم الجبال الثلجية، وأمامهم كانت مجموعة أخرى من القمم الثلجية أكثر ارتفاعا حتى أنها كانت تشق السحب، ومن ورائها قمم أعلى، فأعلى ..

فتح توم عينيه عن آخرهما وحدق في الأسفل عله يرى قمة كومولونجوما، أو إيفريست عند القدماء، إلا أن العواصف كانت تحيط بأعالي الهيمالايا، والسحب تغطيها تماما .

ظل المنطاد يحلق عاليا، عبر عالم من الأبيض والأسود، من الجليد الناصع والصخور القاتمة اللون للجبال الصغيرة؛ وكان توم وهيستير يتناوبان على متابعة دفة القيادة في حين كانت فانج تغفو قليلا في المقعد المجاور، خشية أن تترك كابينة القيادة تماما.

استمروا في رحلتهم، حتى عبروا أخيرا الجانب الأكثر انخفاضا من جبل زان شان العظيم، أعلى الجبال الحديثة على الأرض، والتي تمتد قمته الثلجية إلى مالانهاية لتشق السماء، ومن بعده كانت القمم أكثر انخفاضا، بيضاء ناصعة جميلة، وأحيانا كانوا يرون بعض الأودية الخضراء بينها حيث ترعى قطعان من الحيوانات، التي أخذت تفر مذعورة جراء صوت محركات المنطاد .

كانت تلك هي جبال السماء، وقد داروا حولها متجهين نحو

الشمال إلى الشرق، إلى حيث السهول .

« تلك هي شان جوو ... لكم تمنيت أن أتقاعد هاهنا حينما ينتهي عملي لصالح الجماعة، لكنني الآن أعتقد أن كل هذا ستقوم لندن بالتهامه... سوف يتم تفجير الحصن بواسطة الميدوسا، ثم سيلتهمون القرى والتلال الخضراء، وسيضطر أهلها لتسليم ثرواتهم المعدنية وخيولهم الأصيلة. تماما كما سيحدث لباقي العالم « .

لم يكن توم يرى أن تلك الفكرة سيئة على الإطلاق، فالطبيعة إنما تحتم أن المدن المتحركة هي التي تسود العالم في النهاية، لكنه في نفس الوقت لم يستطع أن يمنع نفسه من الإعجاب بفانج، حتى لو كانت جاسوسة ومناهضة للتحرك .

ولطمأنتها قليلا، قال توم : « حتى لو أن ميدوسا بتلك القوة، فإن الأمر سوف يستغرق من لندن سنوات عدة حتى تقطع كل تلك المسافة والجبال الوعرة كي تأتي إلى هنا « .

« لن تحتاج لذلك ... انظر « .

نظر توم إلى حيث أشارت فوجد فرجة في سلسلة الجبال، عبارة عن ممر واسع يمكن لمدينة أن تمر عبره.

ثم تبدى إليهم أخيرا جدار الحصن، وقد بدا وكأنه جدار من الليل المدلهم، أسود تماما، تم بناؤه من كتل سوداء ضخمة من الأحجار البركانية، وتدعيمه بمجموعة من الصفائح المعدنية الصدئة من بقايا المدن التي جرؤت على تحدي الجماعة، فتم تدميرها عبر مئات من الصواريخ المثبتة على الجانب الغربي .

وفوق مجموعة من القمم الثلجية على ارتفاع أربعة آلاف قدم فوق أرض الوادي، كان علم شان جوو، ذو شعار العجلة المكسورة، يرفرف عاليا في الرياح، والشمس تنعكس لامعة على بنادق وخوذات جنود وحرس الجماعة .

تنهدت فانج قائلة : « لو أنها تكون قوية حقا كما تبدو من مظهرها !»، ثم بدأت تهبط بالمنطاد عبر منحنى طويل، فجاءت نحوه مركبة هوائية صغيرة جدا، أشبه ماتكون بطائرة ورقية ذات محرك، فتبادلت فانج محادثة قصيرة مع قائد المركبة عبر المذياع، ثم دارت المركبة حول المنطاد دورة واحدة، ثم تقدمته لإرشاده عبر قمة الحصن .

نظر توم إلى الأسفل، إلى حيث الجنود والعتاد العسكري. كانت وجوه الجنود من كل لون، صفراء ... بنية... سوداء ... بيضاء ...، وجوه من كل أمة بربرية ساكنة تصر على تحدي القوانين الداروينية البلدية .

ثم هبط المنطاد إلى حيث الجانب الشرقي من الجدار، فوجد توم المكان عبارة عن مدينة، مدينة رأسية، تعج بالشرفات والنوافذ والطبقات المتدرجة، جميعها منحوتة في الصخور السوداء، طبقة فوق طبقة من المنازل والمتاجر، والبالونات والطائرات الصغيرة الملونة تدور بينها صعودا وهبوطا .

« باتمونخ جومبا « قالت فانج « المدينة ذات القوة الأبدية. من أطلقوا عليها هذا اللقب لم يسمعوا بالميدوسا بكل تأكيد !»

كانت المدينة جميلة حقا، حتى أن توم، الذي تعلم منذ الصغر أن

المدن الثابتة هي مكان موحش قذر، قد انتابه العجب، وأخذ يحدق عبر النافذة، وقد اقتربت هيستير إلى جانبه وألصقت وجهها إلى الزجاج : « إنها كجزيرة السنديان تماما ! حيث المنحدرات الصخرية وأعشاش طيور البحر ....انظر « قالتها هيستير بلهفة وهي تشير إلى الأسفل عند قاعدة الحصن، حيث امتدت أمامهما بحيرة زرقاء سماوية مماثلة بالقوارب ....» توم. سوف نذهب للسباحة ...سوف أعلمك السباحة ...»

حط الجيني هانيفر بين مجموعة من المناطيد التجارية في أسفل جدار الحصن، ووقف ثلاثتهم في انتظار باللون ليقلهم صعودا عبر المقاهي والمحلات والمتنزهات إلى حيث قصر الحاكم، وهو عبارة عن دير قديم منحوت في الجانب المستقيم من الجبل عند نهاية الجدار، وقد أخذت باتمونخ جومبا اسمها عنه.

كانت البالونات تتجمع عند أماكن الهبوط أسفل حدائق القصر، تلتمع أغلفتها في الشمس، وفي واحدة من تلك البالونات كان كابتن خورا يلوح بيديه، حيث هبط الملاح الشاب أمامهم وهرع نحوهم، ثم عانق فانج في حرارة .

لقد جاء خورا إلى هنا صبيحة ماوقع في إيرهيفن عقب هجوم جريك عليهم؛ وقد بدا مندهشا لكنه سعيد في نفس الوقت بكون توم وهيستير لايزالان على قيد الحياة، ثم استدار إلى فانج قائلا:» الحاكم ورجاله متشوقون لسماع تقريرك يازهرة الرياح، فهناك شائعات مريعة قد بلغتنا عن لندن ...»

كان أمرا جيدا لتوم أن يرى وجوها مألوفة في تلك المدينة

الغريبة عليه، وقد تقدم إلى جانب خورا وهم يصعدون الدرج المؤدي لمدخل القصر. تذكر توم ذلك المنطاد الصغير من طراز ٢١٠٠ الذي سبق ورآه على إحدى منصات الهبوط، فسأل Achebe خورا وهو يصعد بجانبه : « هل تلك الآلة الطائرة ذات الحبال المصنوعة من جلد الثور لك؟ «

فضحك خورا ثم قال: « تلك الآلة البالية ؟ بالطبع لا .... شكرا للآلهة ... منطادي من نوع أخر تماما ياتوم، إنه منطاد حربي. كل حليف يعمل لدى جماعة مقاومة التحرك يتم إمداده بمنطاد حربي من الأسطول الجوي الشمالي، وكلهم يرسون هناك في الأعلى « ثم توقف وأشار للأعلى، فرفع توم رأسه عاليا حيث أشار له خورا، فوجد مجموعة من المناطيد ذات الأبواب البرونزية اللامعة بالقرب من قمة الجدار ..

« يسمون ذلك المكان في الأعلى(عش النسر)».

« سوف نأخذك يوما ما إلى هناك ياتوم « قالتها فانج بنبرة من يقطع وعدا على نفسه، ثم بدأت تقود المجموعة إلى الداخل، مرورا بمجموعة من الرهبان المحاربين الذين يقفون في حراسة المدخل، ثم عبر متاهة من الممرات الحجرية : « إن المدمرات الجوية العظيمة التي تمتلكها الجماعة لتعد واحدة من عجائب السماء .... والآن، وقبل أي شئ، حان الوقت كي يستمع الحاكم خان إلى قصة هيستير « .

***

إرمان خان، الحاكم، رجل مهذب هو، عجوز، ذو وجه طويل

حزين، من النوع المحبب إلى النفس؛ قام الحاكم بالترحيب بهم جميعا في مق ه الخاص، ثم دعاهم إلى الشاي مع بعض من كعكات العسل، في غرفة تطل نوافذها المستديرة على بحيرة باتمونخ.

على مدار ألف عام، عملت عائلة خان على حماية الحصن والزود

عنه، والآن يبدو الرجل مشوشا تماما جراء الأخبار التي بلغته عن لندن، والتي يتضح منها لكل لبيب أن كافة أسلحته وبنادقه ومدافعه وصواريخه و... ماعاد لها أي جدوى .

امتلأت الحجرة بمجموعة من الضباط ورجال الحصن الذين جاءوا جميعا على عجل متلهفين لسماع ماتحمله إليهم فانج من أنباء .

« ما من مدينة يمكنها اقتحام باتمونخ جومبا .... عزيزتي زهرة الرياح، لو أن لندن جرؤت على الاقتراب منا فسوف ندمرها بمجرد أن تدخل إلى مرمى صواريخنا « .

« لكن هذا ما أتحدث عنه تحديدا ياسيدي الحاكم « صاحت فانج في نفاد صبر « لندن ليست في حاجة للاقتراب من الحصن إلى هذا الحد الذي تتكون فيه تحت مرمى أسلحتك. سوف يتوقف كروم بمدينته على بعد مائة ميل ثم يوجه سلاحه محولا أسوار مدينتك إلى رماد .... لقد سمعت قصة هيستير بنفسك، وإنني أعتقد أن تلك الآلة التي سرقها فالانتاين من والدتها إنما هي قطعة من سلاح قديم. إن ما قد وقع لبانزرستات بايريث يدل على أن عصبة المهندسين قد تمكنت بالفعل من إعادة ذلك

السلاح إلى العمل مرة ثانية « .

« نعم. نعم « قالها ضابط بسلاح المدفعية « هذا ماتقولينه، ولكن... كيف لنا أن نقتنع بأن كروم قد وجد طريقة لإعادة إحياء آلة قد دفنت منذ أيام حرب الستين دقيقة ؟ ... ربما احترقت بانزرستات بايريث جراء حادث غامض ما !»

« نعم « ردد الحاكم وقد راق له ذلك التفسير كثيرا فاستمسك به، وزاد عليه قائلا: « ربما ربما هو نيزك قد ضربها ... أو تسريب غاز وقع بها ... ربما لن تأتي مدينة كروم إلى هنا أصلا .... ربما تلوح له فريسة ما يسعى ورائها ؟»

إلا أن باقي الضباط الحاضرين قد بدا أنهم أكثر استعدادا لتصديق ماترويه فانج .

« حسنا ...إنه قادم إلى هنا « قالتها ملاحة شابة من كيرالا، وهي تكبر توم ببضعة سنوات ليس أكثر، « لقد أخذت منطاد استطلاع وقمت بالتحليق نحو الغرب أمس الأول، وقد وجدت المدينة المتوحشة على بعد أقل من خمسمائة ميل عنا، وهي تقترب سريعا، وبحلول مساء الغد سوف تكون الميدوسا في حدودنا « .

تدخل كابتن خورا في الحديث: « كما أنه قد تم رصد مركبة سوداء تحلق عند الجبال، وقد تم إرسال بضعة مركبات لقطع الطريق عليها، إلا أنها جميعا لم تعد ... تخميني الخاص أن تلك المركبة ليست سوى منطاد فالانتاين، وأنه قد تم إرساله للتجسس على مدننا كي تتمكن لندن من التهامها « .

فالانتاين! ما إن سمع توم الاسم، حتى انتابه شعور عجيب، هو

مزيج من الخوف والفخر، فرئيس عصبة المؤرخين ذاته هاهنا، في قلب شان جوو، وبالقرب منه .

أما هيستير فقد تحفزت بشدة بمجرد سماعها للاسم، وحينما نظر توم نحوها كانت هي تتطلع نحو النافذة المطلة على الجبال، وكأنها تتطلع بشكل أو بآخر أن ترى المنطاد يحلق أمامها .

« لايمكن لمدينة أن تقتحم الحصن « قالها الحاكم في إصرار، وقد بدا أنه ما من سبيل لإقناعه.

« عليك أن تطلق الأسطول الجوي أيها الحاكم» قالتها فانج بإصرار هي الأخرى، وهي تميل نحوه من مقعدها : « سارع بتفجير لندن قبل أن يقوموا بتصويب الميدوسا نحونا. إنها الطريقة الوحيدة أمامنا « .

« لا « صرخ توم وهب واقفا مرة واحدة، حتى ان مقعده قد سقط إلى الخلف محدثا جلبة، ونظر إلى فانج غير مصدق : « لقد قلت إننا سوف نأتي إلى هنا لتحذير الناس. لايمكنك أن تهاجمي لندن، سوف يتأذى أهلها الأبرياء « .

كان تفكيره حينها منصبا على كاثرين، وصار يتخيل الطوربيدات وهي تسقط فوق منزلها، وفوق المتحف أيضا، « لقد وعدتني !»

« زهرة الرياح لاتقطع وعودا مع الهمجيين « .

قالتها الملاحة من كيرالا بحدة، إلا أن فانج قد أسكتتها، ثم توجهت إليه بالحديث: « توم، نحن فقط سنتلف الأحشاء والمحركات، ثم القمة، حيث الميدوسا. نحن لانسعى لإيذاء

الأبرياء، ولكن ماذا بأيدينا أن نفعل غير ذلك طالما أن مدينة وحشية تهددنا ؟»

« لندن ليست مدينة وحشية ... وإنما انتم الهمج المتوحشين « صاح توم في غضب « ولماذا لاتأكل لندن باتمونخ جومبا طالما هي في حاجة إلى ذلك ؟ إن كانت الفكرة لاتروق لك، إذن كان عليك أن تجعلي لمدنك محركات وعجلات منذ زمن بعيد ككل المدن المتحضرة».

هبت مجموعة من الضباط في وجه الفتى صائحين في غضب محاولين إسكاته، أما الملاحة من ميرالا فقد سحبت سيفها من غمده، إلا أن فانج قد هدأت من غضبهم ببضعة كلمات، ثم عادت تلتفت نحو توم وعلى وجهها ابتسامة صبور : « ربما عليك أن تتركنا الآن ياتوماس، سوف أعود إليك لاحقا « .

تجمدت الدموع في عيني توم، فقد كان بالفعل يشعر بالأسف تجاه هؤلاء القوم الذين لمس بنفسه أنهم ليسوا بهمجيين، وفي الحقيقة فإنه لم يعد يؤمن من داخله أنهم يستحقون هذا المصير حقا : أن يتم إلتهام مدنهم، لكنه في نفس الوقت لايمكنه الجلوس هكذا بأريحية والاستماع إليهم وهم يخططون لمهاجمة موطنه .

التفت توم ناحية هيستير على أمل أن تتخذ صفه أمامهم، لكنها كانت غارقة تماما في أفكارها، وقد أخذت أناملها تتحسس الجرح في وجهها أسفل الوشاح، كانت هيستير في تلك اللحظات تشعر بالذنب والغباء في آن معا، كانت تشعر بالذنب لأنها سمحت لنفسها بأن تشعر بالسعادة أثناء تحليقها وتوم في السماء على متن الجيني هانيفر، في الوقت الذي لايزال فيه فالانتاين يسعى

في الأرض دون عقاب على مااقترفه. أما شعورها بالغباء فكان بسبب أن ذلك الوشاح الذي أهداها إياه توم كان قد منحها الأمل في أن توم ربما يحبها، والآن جاءت سيرة فالانتاين لتذكرها من جديد بأن أحدا لايمكن أن يحبها، أبدا.

وحينما شعرت أن توم ينظر إليها، قالت : « بإمكانهم قتل كل شخص في لندن إن أرادوا، طالما أنهم سيبقون على فالانتاين من أجلي ».

فأدار توم ظهره لها وللجمع الحانق، وانطلق خارجا من الغرفة، وبمجرد ان انغلق الباب من خلفه سمع الفتاة من كيرالا تنعته ب « همجي» .

خرج توم إلى الهواء، حيث كانت البالونات المستأجرة تنتظر زبائنها، فجلس على مقعد حجري هناك، شاعرا بالغضب والخيانة، وطفق يفكر فيما كان عليه أن يقوله لفانج، فقط لو كان عقله قد أسعفه حينها .

وفي الأسفل، كانت درجات باتمونخ جومبا تمتد تحته شاسعة لتختفي في ظلال الجبال البيضاء .

نظر إلى المشهد من حوله، ووجد نفسه يفكر فيما يمكن أن تكون عليه الحياة هاهنا، حيث يستيقظ المرء كل يوم على نفس المنظر وذات المشاهد التي لاتتغير أبدا .... ترى، ألا يتوق الناس هنا للتحرك وتغيير كل تلك الموجودات من حولهم ؟ وكيف لهم أن يحلموا ليلا دون أن تكون هناك محركات تهزهم ذبذباتها القوية أثناء نومهم ؟ ... هل يحبون هذا المكان حقا؟

أخذ توم يفكر في تلك الأسئلة، إلى أن أفاق على شعور ممض بحزن عميق، حينما تذكر أن كل تلك الألوان من حوله وهذه المدينة القديمة بكل مافيها قد تنسحق قريبا أسفل محركات لندن .

شعر توم برغبة في رؤية المزيد من هذه المدينة عن قرب، فاتجه نحو أقرب البالونات، وأوضح لقائد البالون أنه ضيف الآنسة فانج وانه يريد أن ينزل إلى المدينة. وافق الرجل مبتسما له، وشرع يعد البالون للتحرك. وبعد هنيهة وجد توم نفسه يهبط إلى الأسفل عبر العديد من المستويات المتدرجة للمدينة، إلى أن توقف البالون، فترجل توم ليجد نفسه فيما يبدو أنه ميدان رئيسي، حيث كانت العديد من البالونات الأخرى تأتي وتذهب، ومن هذا الميدان تتفرع مجموعة من السلالم عبر واجهة جدار الحصن، متجهة إلى الأعلى حيث (عش النسر)، وإلى الأسفل نحو المحلات والأسواق والمستويات الأدنى بالمدينة.

كانت أنباء الميدوسا قد انتشرت سريعا في أرجاء باتمونخ جومبا، مما دفع العديد من السكان وأصحاب المحلات لإغلاق منازلهم ومتاجرهم والفرار إلى المدن الأقصى نحو الجنوب، أما المستويات السفلى بالمدينة فقد ظلت مكتظة بأهلها، بالرغم من الأنباء المخيفة.

غابت الشمس خلف الجدار، وكان توم لايزال يتجول بين المتاجر، ويهبط الجراجات عبر مستويات المدينة .

وكانت الشوارع مليئة بأكواخ العرافين وقارئي البخت، والمعابد المخصصة لإلهة السماء، المفعمة بالغبار الرمادي لأعواد البخور

المحترقة. وفي الميدان الرئيس كان بهلوان من الإيغور يؤدي فقراته.

وكان توم كلما جال ببصره في مكان وجد أفرادا من الجنود ورجال الدفاع الجوي، من كل شكل ولون : رجال ونساء ذوي وجوه شقراء من سبيتزبيرجن.... وسوداء مائل لونها إلى الزرقة من جبال القمر ....وسمراء من بلاد الأنديان الثابتة .... ووجه أخر محمرة كضوء اللهب من غابات لاوث وآنام .

حاول توم أن يتناسى أن كل هؤلاء الرجال والنساء من كل لون وشكل، قد يشرعون بين ليلة وضحاها في إطلاق الصواريخ على لندن، وبدأ يحاول الاستمتاع بتنوعات الوجوه واللغات من حوله ..

أثناء تجواله، كان يسمع أحيانا من يناديه : توم ...أو توماز.... توما.... وحينما يلتفت كان يرى أفراد ينظرون إليه ويشيرون نحوه لأصدقائهم! لقد انتشرت قصة معركته مع جريك انتشارا واسعا عبر الجبال، من محطة تجارية إلى أخرى، حتى وصلت إلاى باتمونخ جومبا؛ كان يرى نظراتهم ويسمع حديثهم عنه وكأنهم يتحدثون عن توماس آخر، شجاع، قوي، واثق من نفسه، يعرف ماينبغي فعله .

مع مرور الوقت بدأ توم يتساءل في قرارته حول ما إذا كان يتعين عليه العودة إلى قصر الحاكم ومحاولة إيجاد هيستير، ذلك حين لاحظ شخص طويل القامة يعتلي السلالم القريبة .

كان الرجل يرتدي معطفا أحمر بال ذا غطاء رأس يداري معظم

وجهه، ويحمل شيئا ما في يده وصرة معلقة على إحدى كتفيه. لقد رأى توم خلال جولته العديد من هؤلاء الرجال المباركين الجوالين في أرجاء باتمونخ جومبا، الذين قد وهبوا حياتهم لخدمة آلهة الجبال، يسافرون من مدينة إلى مدينة عبر الطرق العالية الوعرة. بل إنه قد رأى فانج وهي تقبل قدم أحدهم هناك عند منصة الهبوط، وقد منحته ست قطع برونزية ليبارك الجيني هانيفر .

لكن... ذلك الرجل الذي يعتلي السلم هناك كان مختلفا، هناك شئ ما فيه قد اجتذب انتباه توم اجتذابا .

شرع توم يتتبع الرجل، فذهب في إثره عبر سوق البهارات، وإلى الأسفل عبر شارع ويفرز الضيق، حيث مئات السلال معلقة على أعمدة قصيرة خارج المحال ... ثم، أسفل إحدى المصابيح المعلقة في الميدان الرئيس، جاءت فتاة صغيرة لتوقف الرجل الغامض، طالبة منه المباركة، هنا لاحظ توم الوجه ذو اللحية أسفل غطاء الرأس، إنه يعرف ذلك الأنف البارز والعينين الزرقاوين المائلتين للرمادي، بل ويعرف تلك التميمة المتدلية على جبينه بين الحاجبين لتخفي ورائها العلامة المميزة لعصبة مؤرخي لندن ...إنه يعرف الرجل ....إنه فالانتاين !

***

27 دكتور أركينجارز يتذكر

في تلك الأيام، حيث كانت لندن ماضية قدما نحو الجبال، كانت كاثرين تمضي المثير من وقتها في المتحف. وفي الداخل، كانت في منأى عن أن تسمع صوت آلات النشر الكهربائية التي كانت لاتكف عن قطع الأشجار في ميدان سيركل ليتم استخدامها كـوقود للمحركـات، أو سماع الأصوات الحماسية للجماهير المتحلقة حول شاشات المتابعة كل يوم والتي كانت لاتكف عن إذاعة تفاصيل الخطة الكبرى لكروم .

ومع مرور الأيام بها في المتحف، بدأت تنسى تدريجيا رجال أمن عصبة المهندسين الذين باتوا منتشرين في كل حدب وصوب، ليس فقط هؤلاء من ذوي المعاطف البيضاء المعتادة، وإنما أيضا تلـك المجموعـة الجديدة غريبـة الـهيئة مـن الرجـال الصامتين متخشبي الحركة ذوي المعاطف وأغطية الرأس السوداء، الذين يلمع الضـوء الأخضر البـاهت من موضع أعينهم : إنهم الرجال العائدون، صنيعة دكتور تويكس .

فـي حقيقـة الأمر، لم يكن الشعور بالسكينة والسلام هما فقط مايدفعاها للنزول إلى المتحف، ولكن أيضا .... بيفيز .

كـان بـيفيز يبـيت فـي معرض النقل القديم، على الأرض أسفل المجسمات والنماذج المعلقة للآلات والماكينات الطائرة وغيرها؛ وكانت حاجة كاثرين إلى رفقته تزداد يوما بعد يوم، مع تقدم المدينة نحو الشرق. كانت تحب فكرة كونه بات سرها الخاص، وتسعد بسماع صوته الهادئ وضحكته الغريبة....حتى نظراته

إليـها كـانت تـروق لـها، بعينيـه الـداكنتين وتفرسـه فـي وجـهها، وخصوصا شعرها .

« لم أعرف شخصا يملك شعرا من قبل» قال ذلك لها في إحدى الأيام « في العصبة، يستخدمون المركبات الكيميائية على كل متدرب جديد لمنع نمو شعر رأسه مرة ثانية « .

وحينما كانت تفكر في صلعته الملساء، كانت تشعر أنها تحبها هي أيضا، وأنها تليق به كثيرا ...

تـرى، أهـذا هـو الحـب؟ إنـه ليس شيئا كبيرا تستطيع أن تـدركه بشكل مباشر، كما في القصص، وإنما هو موجات هادئة ناعمة من المشاعر العذبة، تتسلل إليك تدريجيا، إلى أن تستفيق يوما لتجد نفسك غارقا في حب شخص غير متوقع، كمتدرب في عصبة الهندسة مثلا.

تمنـت حينـها لـو أن والـدها كـان حاضرا بجانبها، لتسأله وتأخذ مشورته.

في أوقات ما بعد الظهيرة كان بيفيز يرتدي ملابس المؤرخين ويـداري صـلعته بغطـاء رأس، ثـم يـذهب إلى الأسفل لمساعدة دكتـور نـانكارو والـذي كـان منشـغلا تمـاما بـإعادة فهرسـة كافـة اللوحـــات والرســومات المـوجودة بـالمتحف، والتقـاط الصـور الفوتوغرافية لحفظها من الضياع التام، في حال طالب العمدة بأخذها وإطعامها لمحركاته ككل شئ آخر .

وفي تلك الأوقات كانت كاثرين تتجول في المتحف برفقة (كلب) لتتفقد الأشياء التي اكتشفها والدها من بقايا العصور القديمة:

غسالات ملابس ... قطعا من حاسب آلي ...ضلعا صدئا من دروع أحد المطاردين ...

وأسفل تلك الأشياء جميعا كانت علامة تقول أنها : اكتشفت بواسطة السيد ت. فالانتاين - عالم آثار.

وقفت كاثرين تتأمل تلك المكتشفات، وتتخيل والدها وهو ينتشلها من التربة وينظفها بعناية، ثم يلفها جيدا تمهيدا لإرسالها إلى لندن .

[لابد أنه قد فعل نفس الشئ حينما اكتشف الميدوسا] جالت تلك الفكرة في ذهنها، فبدأت في تلاوة الصلوات إلى كليو : لندن في حاجة إليه، وأنا أيضا أحتاجه. رجاءً ياكليو، أعيديه إليَّ سالما، قريبا..

لكنه كان ذئبها، وليس كليو، الذي قادها نحو قسم التاريخ الطبيعي في تلك الليلة، حيث لاحظ تلك المجموعة من مجسمات الحيوانات الموجودة في آخر الممر، فهرع نحوها وهو يزوم، في تلك اللحظة كان دكتور أركينجارز يمر عبر القسم في طريقه إلى منزله، حين فوجئ بالذئب أمامه، فارتد إلى الوراء في توتر، إلا أن كاثرين قالت مطمئنة إياه :

« لابأس يادكتور. إنه أليف»، ثم ركعت على ركبتها بجانب ذئبها تنظر إلى الأعلى حيث الدلافين والقروش والحيتان، التي تم تثبيتها بدعامات إلى الحائط المقابل حتى لاتتسبب ذبذبات المحركات المتواصلة في تحطيمها .

« مذهلة، أليس كذلك!» قالها أركينجارز، والذي كان يحب إلقاء

المحاضرات دوما، « الحوت الأزرق... الذي تعرض للانقراض في النصف الأول من القرن الحادي والعشرين، أو ربما العشرين، لاتوجد تسجيلات واضحة في تلك النقطة، وما كنا لنعرف شكله حتى، لو لم تكن السيدة شاو قد اكتشفت حفرياته ...»

كانت كاثرين منشغلة بالتفكير في أمر آخر، إلا أن الاسم الذي ذكره استرعى انتباهها: شاو، فنظرت إلى حيث كان أركينجارز يشير، فوجدت هيكلا عظميا مائل لونه إلى البني، وأسفله لافتة صغيرة كتب عليها : عظام الحوت الأزرق. تم اكتشافها بواسطة السيدة ب. شاو - باحثة حرة في مجال الآثار .

[باندورا شاو] تردد الاسم في عقل كاثرين، وتذكرت يوم قرأته في فهرس المتحف، إنها باندورا وليس هيستير...

ثم أنها التفتت نحو أركينجارز وقد قررت إخراجه من حالة المحاضرة التي تلبسته كالعادة، فسألته : « هل كنت تعرفها؟ باندورا شاو؟»

« السيدة شاو، نعم، نعم ... كانت سيدة لطيفة وجميلة، كانت من الباحثين في الآثار من العراء، وصديقة لوالدك ...كان اسمها باندورا راي في تلك الأيام « .

« باندورا راي؟» سألته كاثرين وقد وجدت أن الاسم مألوف لها، إنها تعرفه : « لقد كانت مساعدة والدي في رحلته إلى أمريكا، وقد رأيت صورتها في ألبومه « .

« هذا صحيح .... كانت عالمة آثار كما قلت لك، وكانت متخصصة تحديدا في مجال التقنيات القديمة، لكنها قد جلبت لنا العديد من

الأشياء الأخرى التي وجدتها، كتلك العظام للحوت الأزرق. ثم أنها تزوجت من السيد شاو وذهبت لتحيا في إحدى الجزر الصغيرة في المحيط الغربي. ياللفتاة المسكينة ...لقد كانت مأساة فظيعة بكل المقاييس» .

« هل ماتت؟»

« قتلت ... منذ ست أو سبع سنوات مضت. لقد سمعنا نبأ مقتلها من عالم آثار آخر. قتلت هي وزوجها في منزلهما. ياله من عمل شنيع....آ.... عزيزتي، هل أنت بخير ؟ تبدين وكأنك قد رأيت شبحا !»

لكن كاثرين لم تكن بخير على الإطلاق، ففي رأسها، بدأت الأمور تتجمع كقطع الأحجيات، مكونة صورة أكثر وضوحا .... [باندورا شاو قتلت منذ سبع سنوات، وهو نفس الوقت الذي وجد فيه والدها الميدوسا ...باندورا كانت ملاحة وعالمة آثار، وهي نفس المرأة التي كانت معه في رحلته في أمريكا حينما وجد مخطوطات ووثائق الميدوسا. والآن تأتي فتاة تدعى شاو تبغي قتل والدي ...] كانت بالكاد تستطيع التحدث، لكنها استجمعت نفسها وسألته : « هل كان لديها أطفال؟»

« أظن أنها كان لديها طفل ...نعم، إنني أتذكر أن السيدة شاو قد أطلعتني يوما على صورة، حينما أتت ومعها مجموعة من الأواني الخزفية لقسمي. كانت مجموعة من القطع الجميلة، قارورة مزخرفة من حقبة الإمبراطورية الكهربائية. ...»

« هل تتذكر اسمها؟»

« آه .نعم، أظنه كان EE27190 « .

« لاأتحدث عن القارورة، أتحدث عن الطفل!» قالتها كاثرين في نفاد صبر بالغ وقد تردد صوتها عبر أرجاء المعرض والممرات خارجه، لدرجة جعلت أركينجارز يجفل وقد بدا مصدوما من حدتها، ثم بدت على ملامحه الاستياء وهو يقول : « حسنا، ما من داع للصياح ياآنسة كاثرين، فكيف لي أن أتذكر اسم طفل ؟ لقد كان هذا منذ خمسة عشر أو ستة عشر عام مضت، كما أنني لاأحب الأطفال أبدا .... كائنات مزعجة ... لكنني أعتقد أن اسمها كان شيئا ما من قبيل هاتي ...أو هولي أو ...»

« هيستير؟» صاحت بها كاثرين في لوعة، ثم أدارت ظهرها للرجل تعدو، وتعدو، وذئبها يعدو في إثرها ....كانت تعدو وهي لا تلوي على شئ، ولا تعرف لماذا ولا لأين، فما من مكان يمكن أن تهرب إليه من الحقيقة المروعة.

لقد أدركت الآن كيف أتى والدها بالميدوسا، ولماذا لم يأت على ذكرها في أي يوم أمامها، بل وصارت تعرف الآن ماالذي دفع هيستير المسكينة لمحاولة قتله .

***

28 غريب في جبال السماء

شرع فالانتاين يرسم بيده علامات غريبة فوق رأس الفتاة، والتي أحنت رأسها في خشوع، وقد تبسمت في هدوء وسكينة، دون أن تدري أنها إنما تتم مباركتها بواسطة ألد وأسوأ أعداء الجماعة.

وقف توم يراقب المشهد من خلف أحد أضرحة إلهة السماء، وقد بدأ عقله يستجمع الصورة كاملة، فقد سبق وقال كابتن خورا إنه قد تم رصد منطاد فالانتاين يحلق فوق الجبال؛ لابد إذن أن فالانتاين قد حط بالقرب من منطقة المنحدرات بالقرب من الحصن، ثم قطع باقي الطريق إل هنا سيرا على الأقدام متسللا كاللصوص .

السؤال هنا : لماذا؟ ولأي غرض؟ وماهي طبيعة المهمة السرية التي يمكن أن تأتي به إلى هنا؟

كانت مشاعر توم مختلطة تماما، فقد أحس بخوف شديد - بالطبع - حينما وجد نفسه بالقرب من الرجل الذي حاول قتله، لكنه في نفس الوقت كان مأخوذا بجرأة الرجل وشجاعته العارمة، لدرجة أن يأتي إلى هنا ويتسلل إلى قلب معقل الجماعة، تحت أنوف أكبر أعداء لندن ! إنها نوعية المغامرة التي كتب عنها في مؤلفاته ولايزال توم يقرأها مرارا وتكرارا في مهجعه بالعصبة .

انتهى فالانتاين من مباركته للطفلة ثم بدأ يستأنف المسير من جديد. وللحظات فقد توم أثر الرجل بين الزحام في الميدان، ثم سرعان ما رصد الرداء الأحمر من جديد، وصاحبه يعتلي جرجات

السلم الرئيس، فأخذ يتبعه على مسافة آمنة بحيث لا يلاحظه فالانتاين، عبر الطرقات والحرس والشحاذين وبائعي الطعام، الذين لم يشك أي منهم ولو للحظة أن صاحب الرداء الأحمر هذا هو أبعد مايكون عن هؤلاء الرهبان الجوالين .

أخذ فالانتاين يسرع من خطاه عبر السلالم وقد أحنى رأسه للأسفل قليلا، ومن ورائه ظل توم يتبعه على بعد عشرين أو ثلاثين خطوة كي لايشعر به، لكنه كان في حيرة من أمره بصدد مايتعين عليه فعله؛ فهيستير تستحق بالتأكيد أن تعرف أن قاتل أبويها هاهنا، فهل يجب عليه أن يعود إليها ويخبرها ؟ !؛ ولكن، من ناحية أخرى، لابد أن فالانتاين هاهنا في مهمة شديدة الأهمية من أجل لندن، ربما هو يجمع معلومات حتى يتمكن المهندسون من معرفة الوجهة الصحيحة للميدوسا، أما لو قتلته هيستير فبذلك يكون توم قد هان وطنه بأكمله.

تابع توم الرجل إلى الأعلى، متجاهلا آلام ضلوعه المكسورة، ومن حوله كانت طبقات باتمونخ جومبا ساطعة بمصابيح الإضاءة المتناثرة في جوانبها، وأغلفة البالونات المستأجرة تلمع ألوانها وهي تصعد وتهبط .

مع الوقت صار جليا لتوم أنه في قرارة نفسه لايريد لفالانتاين أن ينجح في مساعيه أيا كانت، فلندن ليست أفضل حالا من تونبريدج ويلز المتوحشة، أما هذا المكان الجميل القديم، بكل المشاهد الخلابة من حوله، فلا يريد له أن ينسحق تحت عجلات لندن .

اتخذ توم قراره، فصرخ عاليا بين المارة وهو ينهب درجات السلم

صعودا نحو الرجل ويشير إليه :» إنه فالانتاين «، في محاولة منه لتنبيه الجموع للخطر المحدق بهم، لكنهم التفتوا نحو توم في تعجب وهم لايفهمون ما يريد قوله بالضبط!، إلى أن بلغ توم الرجل ذا الرداء الأحمر، وبسرعة نزع غطاء الرأس عنه، حينها فوجئ بالوجه المستدير المذهول يلتفت إليه في وجل ويحدق فيه ! .... لم يكن الرجل الذي طارده توم كل تلك المسافة هو فالانتاين، وإنما مجرد راهب حاج .

تلفت توم من حوله في توتر وقد بدأ يفهم ماحدث، لقد اتخذ فالانتاين سلما صاعدا آخر عبر الميدان الرئيس، في حين اقتفى توم أثر رجل آخر يرتدي نفس الرداء، ظنا منه أنه فالانتاين .

عاد توم أدراجه سريعا إلى حيث فقد فالانتاين الحقيقي، وطفق يجول بعينيه، إلى أن استطاع بالكاد أن يجد الرجل، حيث كان لايزال يتخذ طريقه صاعدا إلى أعلى المدينة و(عش النسر) .

أخذ توم يصيح من جديد في القوم علهم ينتبهون للخطر هذه المرة : « إنه فالانتاين «، لكن ما من أحد حوله كان يتحدث الإنجليكانية حتى يفهم مايقوله، حتى أنه قد بدا في أعين البعض أنهم إنما يحسبونه مجرد شخص مجنون، في حين ظن البعض الآخر أنه يحاول تحذيرهم من أن ميدوسا على وشك مهاجمتهم، فبدأت حالة من الذعر تنتشر عبر الميدان، وانطلقت أجراس الإنذار مدوية من بعض المحال والنزل في الطبقة السفلى .

كانت الفكرة الأولى التي تستحوذ على توم في تلك اللحظة هي أنه عليه أن يجد هيستير بأي كريقة، لكنه لم يكن يدري أين يمكن

أن يبحث عنها الآن، ثم أنه هرع نحو إحدى البالونات الأجرة وطلب من قائدتها أن : « اتبعي ذلك الراهب « إلا أن المرأة هزت رأسها مبتسمة، حيث لم تفهم ماقاله بطبيعة الحال، فصاح قائلا: « فنج هوا - زهرة الرياح « وقد تذكر اللقب الذي تشتهر به فانج بين أهل الجماعة، هنا أومأت المرأة وقد فهمته هذه المرة، فركب الاثنان البالون الذي بدأ يرتفع ببطء، وشرع توم يحاول تهدئة روعه قليلا، وهو يفكر في ضرورة إيجاد فانج، فهي تعرف جيدا ماينبغي عليها فعله. وتذكر حينها كيف أن فانج قد وثقت به أثناء رحلتهم على متن الجيني هانيفر عبر الجبال، فبدأ يشعر بالخجل من نفسه بسبب انقلابه ضدها أثناء اجتماع المجلس في قصر الحاكم .

كان توم يتوقع أن تأخذه قائدة البالون إلى حيث قصر الحاكم، ولكن بدلا من ذلك، فقد هبطت به بالقرب من المكان الذي رسا به الجيني هانيفر، ثم أشارت إلى نزل يقع بجواره يشبه عش طائر السنونو، وأخذت تردد: « فنج هوا» .

للحظة تملك الذعر من توم، وقد حسب أن المرأة قد أخذته إلى نزل يحمل نفس الاسم الذي تحمله فانج هنا، إلا أنه مالبث أن لمح معطف معطف فانج الأحمر في إحدى شرفات النزل، فأخرج من جيبه كل الأموال التي في حوزته ودسها في يد المرأة قائلا، وهو يعدو تجاه النزل، : « احتفظي لنفسك بالباقي «، تاركا إياها تحدق في العملة الغريبة عليها التي تحمل وجهي كويرك وكروم .

كانت فانج تجلس في إحدى شرفات النزل مع كابتن خورا والفتاة المتجهمة من كيرالا، حيث كانوا يحتسون الشاي

وينخرطون في النقاش؛ وقد وثبوا جميعا من مقاعدهم بمجرد أن اقتحم توم الشرفة عليهم وهو بالكاد يستطيع التقاط أنفاسه : « أين هيستير ؟»

« إنها هناك عند منصات الهبوط، في حالة من حالاتها المزاجية المتقلبة « أجابته فانج، « ولكن، لماذا؟ «

« فالانتاين ! إنه هنا ... متنكرا في ثياب الرهبان « .

أثناء ذلك كان العازفين في النزل قد كفوا عن العزف، في حين كانت أصوات الإنذار تدوي في الطبقات السفلى من المدينة وتصلهم في النزل عبر النوافذ المفتوحة .

« فالانتاين هنا « قالتها الفتاة الغاضبة من كيرالا ساخرة « إنها كذبة .. هذا الهمجي يحسب أن باستطاعته إصابتنا بالرعب» .

« اهدئي ياساذيا « قالتها فانج ثم اتجهت إلى توم وقد أمسكته من ذراعه « هل هو وحده؟»

وبأسرع ما أمكنه شرع توم يحكي لها كل مارآه منذ البداية .

وبعد أن استمعت إليه، قالت فانج في صوت كالفحيح : « لقد جاء قاصدا أسطولنا الجوي، إنه يبغي تعطيله وشلنا تماما « .

فاعترض خورا قائلا : « ولكن لايمكن لرجل واحد أن يدمر أسطولا جويا بأكمله» .

« أنت لم تر فالانتاين حينما يعمل أبدا «، وفي ثوان معدودات كانت تخف الخطى في حماسة وقد أثارتها فكرة أنها على وشك

مجابهة أكبر عملاء لندن وأعظمهم خطرا؛ وقد صاحت وهي في طريقها : « ساذيا ؟ اذهبي وتأكدي من أن الحرس على أهبة الاستعداد، أخبريهم أن عش النسر في خطر « .

ثم توجهت لتوم بالكلام : « شكرا لك على تحذيرنا «، قالتها برفق، وكأنها تدرك تماما مدى المعاناة التي كابدها ليتخذ قراره بتحذيرهم من العميل التابع لوطنه .

« عليَّ أن أذهب لأخبر هيستير « .

« لاياتوم. بالتأكيد لا ... سوف يودي بها ذلك موارد التهلكة، ولن تجني شيئا سوى تعريض نفسها للقتل، أو أنها ستنجح في قتل فالانتاين، لكنني أريده ان يبقى حيا لاستجوابه .... انتظر هنا حتى ينتهي كل شئ «، ثم هرعت إلى الدرج المؤدي إلى خارج النزل وخورا في إثرها .

في تلك اللحظات، تبدى الوجه شديد الخطورة والصرامة، والجمال، لآنا فانج، حتى شعر توم أنه قد صار مأخوذا بها تماما، مثله في ذلك مثل خورا وساذيا وكل أعضاء الجماعة .

ثم تحول تفكيره إلى هيستير، وما سيكون عليه رد فعلها حينما تعلم أنه قد رأى فالانتاين ولم يخبرها ....» ياكويرك العظيم ! عليَّ أن أجدها « صاح توم محدثا نفسه دون أن يشعر، فنظرت إليه ساذيا، ولكن ليس بغضب هذه المرة أو تجهم، وإنما بدت كفتاة صغيرة خائفة؛ وبينما كان يهرع متجها نحو الدرج، صاح بها : « لقد سمعت ماقالته آنسة فانج ... اذهبي وأنذري الجميع « .

وفي الخارج، حيث الظلام من جديد، هرع توم نحو منصة

الهبوط التي يرسو بها الجيني هانيفر، وأخذ يصيح « هيستير .. هيستير»، إلى أن رآه تخف الخطى نحوه على ضوء المصابيح، ووشاحها الأحمر يداري وجهها، وبمجرد أن اقتربت منه أخبرها بكل شئ، وقد استقبلت الأخبار بنفس النظرات الباردة الصامتة المعتادة - كما توقع- ثم وبدون كلمة واحدة أخذت تعدو وتوم من خلفها، عبر الدرج الممتد بلانهاية على جدار الحصن.

بمجرد أن وصلا إلى قمة الجدار، استقبلهما الهواء البارد، وندف الثلوج تلفح وجهيهما.

وعلى الضوء المنبعث من المصابيح على إحدى المنصات، شاهدا أحد خزانات الغاز وهي ترتفع من عش النسر فارغة تماما، وحينما وجها نظريهما صوبه فوجئا بالمشهد المخيف ... كانت النيران تنتشر من منطاد إلى آخر، وكأن المناطيد تحولت لمجموعة من التنانين التي وقفت تبخ اللهب من أفواهها؛ وبمجرد أن أمسك اللهب في غلاف خزان الوقود، انفجر تماما في السماء .

وقفت هيستير للحظة وهي تنظر إلى الخلف، واللهب ينعكس في عينيها وقالت « لقد فعلها ..جئنا متأخرين، لقد أحرق الأسطول الجوي».

ثم هرعا من جديد نحو الأمام، وكان الألم يمزق صدر توم مع كل نفس يتنفسه، لكنه ظل يعدو خلف هيستير بأقصى ما يمكنه عبر ممر ضيق يقود إلى المنصة خارج عش النسر المحترق .

كانت البوابات البرونزية للمناطيد الحربية مشرعة، ومنها تدفق الرجال إلى الخارج في حالة إعياء وقد غطوا وجوههم لحمايتها

من لفح اللهب المستعر، في حين كان بعضهم يجرون زملاءهم المصابين سريعا لإنقاذهم، وبالقرب منهم لمح توم خورا واثنين من الحرس يحملونه، فلما رأى الاثنين وهما يجريان نحوه أخبرهما من بين أنينه: « فالانتاين هنا .... لقد دخل إلى هنا مدعيا أمام الحرس أنه قد جاء ليبارك الأسطول، ثم شرع يزرع متفجراته، ذلك حينما وصلت وفانج إلى هنا ....آاه! ....ما كنا لنتخيل أن يقدم أي شخص حتى لو كان همجيا على مثل تلك الفعلة ...لم نكن مستعدين... لقد دمر أسطولنا كله « ثم دخل في نوبة من السعال الدموي، حيث كان سيف فالانتاين قد أصاب رئتيه .

« وماذا عن فانج؟» سأله توم، فهز خورا رأسه بأنه لايعلم عنها شيئا الآن.

في تلك اللحظة انطلقت هيستير تسابق الريح بين المناطيد المحترقة، متجاهلة صياح الرجال من حولها الذين حاولوا منعها وإعادتها، فانطلق توم هو الآخر يتبعها .

كان الأمر أشبه بالجري داخل فرن. « هيستير «أخذ توم يصيح مناديا عليها، إلا أن صوته ضاع تماما بين جلبة النيران، في حين أخذت هيستير تتقدمه عبر نفق ضيق يقود إلى عمق الجدار .

[لن أتبعها إلى هناك .. إن كانت تريد أن تشوى في ذلك الجحيم فهذا شأنها ..] ثم استدار عائدا، لكن في تلك اللحظة كانت النيران قد بلغت أماكن الذخيرة في المناطيد المحترقة، فانطلق وابل من الصواريخ والطلقات النارية في كل حدب وصوب، لتصطدم بالجدار وتنفجر من حول توم، فلم يجد أمامه أي سبيل سوى

الدخول إلى النفق الذي كان هو الأقرب إليه، فاستدار يعدو تجاهه وهو يتلو الصلوات ويتضرع لكل الآلهة التي خطرت على باله حينها .

وفي داخل النفق، كان تيار من الهواء القوي يأتي إليه من مكان ما أمامه، فأدرك أن هذا النفق لابد أنه يقود إلى حيث المدفعية في الجانب الغربي من الجدار .

« هيستير « صاح من جديد، ومن جديد لم يجبه سوى الصدى، فاستمر يتقدم في طريقه عبر النفق، إلى أن وجده وقد تفرع إلى طريقين، وعند مفترقهما رقدت جثة ملاح شاب بدا أن فالانتاين قد قتله بسيفه، وقد تنفس توم الصعداء حينما تأكد من أنها ليست جثة هيستير أو فانج، ثم مالبث أن شعر بالخجل من نفسه لأجل الرجل الميت.

وقف توم يحدق في الطريقين المتفرعين أمامه غير قادر على اتخاذ قرار، ثم صاح في عصبية من جديد « هيستير «، وما من إجابة .

وفي الخارج انطلقت الطلقات لتصطدم بعنف في الأحجار بجانب رأسه، فماكان منه إلا أن اتخذ القرار سريعا وانطلق عبر الممر الأيمن.

ومع تقدمه، بدأ توم أخيرا يسمع أصواتا بدت له اقرب وأكثر حدة من أن تكون أصوات قعقعة النيران في الخارج. كانت الأصوات أقرب لقرع المعدن بالمعدن، فزاد توم من سرعته، إلى أن وجد ضوءا يلوح في الأمام، فهرع نحوه، حتى خرج من الطرف الآخر

للنفق، حيث البرد والثلوج، فوجد نفسه فوق منصة واسعة، تتمركز عليها إحدى بطاريات الصواريخ المحترقة، ومن حوله تناثرت جثث طاقم مدفعية الصواريخ بين الثلوج على الأرض .

ومن بعيد، بدا له وميض السيوف المتقارعة لفانج وفالانتاين، حيث كانا في تلك اللحظة وجها لوجه في مبارزة عنيفة، فاختبأ توم في ظلال فتحة النفق وأخذ يرقب المشهد المرعب وهو يضع يده على صدره والألم يكاد يقتله .

كان فالانتاين يقاتل بضراوة، وقد مزق عنه رداء الرهبان ليكشف عن قميص أبيض وبنطال أسود وحذاء أسود عالي الرقبة. لقد أبدى الرجل براعة عجيبة في المبارزة وفنونها، من كر وفر وهجوم وتفادٍ، إلا أن فانج قد بدا أنها لاتقل براعة عنه، بل كانت الند له، قادرة هي الأخرى على المراوغة والدوران والهجوم، حتى تمكنت من جعله يتقهقر راجعا نحو بطارية الصواريخ وجثث الجنود، وظلت تبارزه ببسالة إلى أن أطاحت بالسيف من يده، فانحنى سريعا ليلتقط سيفه إلا أن سيف فانج كان أقرب لعنقه .

في تلك اللحظة رأى توم بعينيه سيف فانج وهو يتموضع فوق حنجرة فالانتاين مسببا جرحا في عنقه أخذ خيط من الدماء يسيل منه ليلوث ياقة قميصه البيضاء .

« أحسنت!» قالها فالانتاين وهو بعد راكعا وسيف فانج على عنقه، وقد ابتسم نفس الابتسامة التي ظلت عالقة في ذاكرة توم منذ تلك الليلة في الأحشاء، الابتسامة الودود الصادقة !

« أحسنت يازهرة الرياح «.

« صمتا « صاحت فيه فانج « إنها ليست لعبة « .

فضحك فالانتاين قائلا : « لا. العكس هو الصحيح ياعزيزتي، إنها أعظم لعبة على الإطلاق، ومما يبدو أن فريقي هو من سيفوز بها، ألم تلحظي أن أسطولكم الجوي قد احترق ؟ كان عليكم أن تتثبتوا من إجراءات الأمن لديكم، لكن لأن جماعتك ظلت تدير الأمور هاهنا على طريقتها لألف عام، وبنفس الوتيرة، فقد ظنت أن الأمور ستبقى على حالها، لكن العالم يتغير ...»

[إنه يحاول كسب الوقت] هذا ماخطر على ذهن توم وهو يسترق السمع لحوارهما، لكنه لم يستطع أن يستنتج لأي غرض يفعل فالانتاين ذلك وهو في هذا الوضع، محاصر في تلك المنصة، أعزل من السلاح، دون أي فرصة للهرب، فماالذي يأمل أن يجنيه من إضاعة الوقت؟ !

وأخذ توم يسائل نفسه ما إذا كان عليه التقدم نحوهما والتقاط سيف فالانتاين ومساندة فانج لحين وصول إمدادات لهما. ولكن .... كان هناك شئ ما شديد القوة والخطورة في فالانتاين، حتى وهو في حالة الهزيمة ..

ظل توم في مكمنه يستمع إليهما، وهو يتمنى أن تأتي الإمدادات سريعا، ويتساءل في قرارة نفسه عما حل بهيستير .

« عليك أن تأتي لتعملي لصالح لندن ياعزيزتي، ففي مثل هذا الوقت غدا سوف ينسحق هذا الحصن، وسيكون عليك البحث عن رب عمل آخر. جماعتك قد انتهت ...»

فجأة سطع ضوء مبهر من الأعلى، قاطما من كشافات البحث في

منطاد فالانتاين الذي وصل أخيرا، فتراجعت فانج للخلف قليلا وهي تخفي عينيها وقد أعماها الضوء، هنا جاءت فرصة فالانتاين، فهب على قدميه ملتقطا سيفه في خفة، ثم سحب فانج إليه بقوة، وفي لحظة واحدة رأى توم السيف وهو ينغرس في عنقها ليخرج من الخلف أسفل رأسها، وسمع صوت حشرجة الموت وهي تخرج من حنجرتها، وهي تردد : « هيستير شاو سوف تجدك .. سوف تجدك، ولسوف ...» هنا سحب فالانتاين سيفه بعنف من عنقها وتركها لتسقط جثة هامدة وانطلق هو ليتمسك بالحبال التي ألقاها إليه مساعدوه، حتى وصل إلى متن منطاده .

***

29 العودة

ارتفع المنطاد الأسود في صمت ليمطتي الرياح عائدا أدراجه، في حين انخرط جنود باتمونخ جومبا في إطفاء الحرائق والانفجارات. لقد عادت محركات المنطاد إلى الحياة ونفضت عنها ندف الثلج، فانطلق المنطاد الأسود الأنيق يحلق في الأعالي بمجرد أن بلغ فالانتاين متنه، ومن وسط الظلام كانت الصواريخ تنطلق من المنصات العليا محاولة إصابة المنطاد، إلا أنها لم تصب منه سوى زجاج إحدى نوافذه، إلى أن صار المنطاد بعيدا تماما عن مرماها .

انطلق توم في لهفة إلى حيث ترقد فانج، فأخذ يهزها بعنف آملا أن تكون لاتزال على قيد الحياة، ولكن ... دون جدوى .

فجلس بجانبها وسط الثلوج في ألم ... « هذا ليس بعدل! « قالها توم منتحبا للجثة شاخصة البصر، « لقد انتظر حتى سهوت للحظة واقتنص هو الفرصة، لكنك أنت من هزمته «.

ثم أنه بدأ يحاول استجماع شتات أفكاره، فوجد انه ينبغي عليه مغادرة باتمونخ جومبا فورا، قبل أن تأتي لندن، لكنه صار أكثر إعياءً ووهنا من أن يفر من جديد، لقد مل اعتلاء مركبات الآخرين وقطع المسافات عبر العالم .

لكن بمجرد أن عادت صورة فالانتاين تتبدى في مخيلته، حتى بدأت موجة حارة من الغضب تعتريه ... إنه فالانتاين، الذي يحلق الآن عائدا إلى الوطن ليتم استقباله استقبال الأبطال، هو السبب في كل ما يمر به الآن، هو الذي دمر حياته وحياة هيستير، وقتل

الكثير من البشر، وهو أيضا الذي جلب الميدوسا إلى عصبة المهندسين ... لقد كانت هيستير على صواب، وما كان عليه أن يمنعها عن قتله حينما كانت الفرصة متاحة لها .

وفي جلسته المنهكة تلك سمع صوت جلبة من الأعلى، فنظر ليجد شخصا ما يعدو مسرعا ومعطفه يتطاير من خلفه، إنها هيستير، لقد اتخذت مسارا خاطئا وهي تطارد فالانتاين، والآن هاهي تعود أدراجها مسرعة، إلى أن توقفت وقد تجمدت عيناها على جثة فانج لبرهة، ثم استدارت وأخذت تحدق في الظلام اللامتناهي أمامها : « كان يجب أن تكون أنا .... على الأقل كنت سأعمل على أن يموت معي « .

نظر توم إليها، لكنه لم يكن قادرا على الحركة، بل يشعر أن الحزن والغضب بداخله قد قيداه وأعجزاه تماما، وكان يدرك جيدا أن هذا هو شعور هيستير أيضا .... إنه نفس الشعور الذي ظل يلازمها منذ أن قتل فالانتاين أبويها، إنه إحساس بشع، وقد صار توم يفكر في أنه ما من سبيل للخلاص من هذا الإحساس الممض، سوى أمر واحد فقط ...

تحرك توم أخيرا، فانحنى فوق جثة فانج وأخذ يبحث تحت ياقة معطفها، إلى أن وجد ماكان يبحث عنه فانتزعه، ثم وقف على قدميه أخيرا وتحرك نحو هيستير ثم وضع ذراعيه حول كتفيها وكأنها يحتضنها. كانت جامدة متخشبة جدا، لكنه كان في حاجة للتمسك بأي شئ.

كانت البنادق والمدفعيات لاتزال تصوب طلقاتها نحو المنطاد في محاولة يائسة لإسقاطه لكن دون أي جدوى بالطبع، وفي وسط

كل ذلك الصخب اقترب توم من أذن هيستير وصاح كي تسمعه : « هيا بنا لنعد إلى لندن « فالتفتت نحوه في اندهاش وشئ من الانزعاج : « هل تمزح ؟ «

فضحك وهو يتخيل الفكرة المجنونة التي خطرت إليه للتو وصاح: « لابد له أن يدفع الثمن، لقد كنت على حق، وما كان عليَّ أن أمنعك يومها، لكنني سعيد أنني فعلت، فلولا ذلك لكانت الشرطة قد قتلتك وما كنا تقابلنا. أما الآن فأنا أستطيع أن أساعدك على النيل منه وأن أساعدك على الفرار بعدها. الآن سوف نعود إلى لندن، معا «.

« لقد صرت مرحا جدا على مايبدو « قالتها هيستير، لكنها سارت معه على أية حال، وقد ساعدته على إيجاد طريق العودة عبر الجدار، فمضوا في طريقهم والجنود من حولهم يهرعون مذعورين .

كانت الفوضى تعم كل شئ، وقد غطت سحب الدخان سماء الليل فوق باتمونخ جومبا، في حين امتلأ الحصن نفسه ببقايا المناطيد واللهب الذي كان لايزال مشتعلا في أكثر من موضع في عش النسر .

أما الطرقات فقد عجت بأسراب من المهاجرين الذين انسلوا فارين نحو الجبال كمياه تنسرب من سد متصدع .

مع دمار الأسطول الجوي، انتهى الحصن تماما، ولم يعد أمام أهله سوى الفرار بأسرع ما أمكنهم، سواء سيرا على الأقدام أو عبر العربات أو البالونات ..

وفي الأسفل على منصة الهبوط، كانت المناطيد تغادر الواحد تلو الآخر نحو السماء المفعمة بالدخان، لتتجه جنوبا.

و على بعد كانت الفتاة من كيرالا تقف في وجه الجنود المرعوبين تحاول استثارة عزيمتهم وإثنائهم عن الفرار، حيث كانت تصرخ فيهم: « قفوا ودافعوا عن الحصن ... الأسطول الجوي الجنوبي سوف يأتي ليعزز دفاعاتنا .... سوف يكون هنا في أقل من أسبوع « .

إلا أن الجميع باتوا يدركون الآن أن باتمونخ جومبا على وشك أن تقضي نحبها ولن تبقى موجودة إلى هذا الوقت .

« قفوا ودافعوا عن الحصن « ظلت تصيح في استجداء دون جدوى، والجنود يهرعون أمامها دون أن تحين منهم التفاتة إليها .

كان الجيني هانيفر لايزال في مكانه، فهرع توم وهيستير نحوه، فأخرج توم المفتاح الذي أخذه من حول عنق فانج، وأداره في القفل، فانفتح الباب، وفي دقيقة كان توم يتخذ موضعه في مقعد القيادة ويتأمل لوحة التحكم .

« هل أنت متأكد أننا قادران على فعل ذلك ؟» سألته هيستير برفق .

« بالتأكيد» ثم طفق يجرب مجموعة من المفاتيح، فانفتح باب المنطاد ثانية، ثم أضيئت مصابيح كابينة القيادة، وبدأت آلة القهوة في إصدار أصوات ...

« هل أنت متأكد ؟ «

فأومأ توم « لقد اعتدت على بناء نماذج للمناطيد وأنا بعد صغير، لذا فأنا أعرف الأساسيات جيدا، كما أن فانج قد استعرضت أمامي لوحة التحكم تلك حينما كنا على الجبال.... فقط أتمنى أن يكون كل شئ هنا مكتوب باللغة الإنجليكانية «.

ثم توقف قليلا، وبدأ يحرك إحدى الرافعات، هنا بدأت المحركات في العمل .

وفي الخارج على منصة الهبوط كان البعض يقف وهو ينظر في ذهول إلى الجيني هانيفر يلوحون بعلامات درء الشرور، فقد سمعوا بنبأ موت زهرة الرياح، وحينما بدأ المنطاد في التحرك ظنوا أن شبحها قد عاد وأنه الآن يعتلي منطادها !

أما ساذيا فقد شاهدت توم وهيستير داخل المنطاد، فهرعت مسرعة نحوهما. خشي توم أن تحاول الفتاة منعهما من المغادرة، فأخذ يسرع بتحريك الرافعات، وبدأ المنطاد يأخذ وضع الإقلاع، فضحك في سعادة وهو يسمع أخيرا صوت تدفق الغاز .

وفي الخارج كان لايزال البعض يشيرون بأيديهم نحو المنطاد ويصيحون، في حين صوبت ساذيا بندقيتها نحوهما وهمت أن تضرب المنطاد، إلا أن خورا كان قد وصل إلى منصة الهبوط مستندا على كتف أحد أفراد طاقمه، وقد وصل إلى الفتاة في اللحظة المناسبة، فسحب البندقية من يدها برفق، ثم نظر إلى توم ورفع ذراعه ملوحا له متمنيا التوفيق .

أخذ المنطاد يعلو إلى السماء عبر سحب الدخان الكثيف المتصاعد، فألقى توم نظرة أخيرة على باتمونخ جومبا، ثم حول

دفة المنطاد نحو الغرب ....عائدا إلى الوطن .

***

30 استقبال البطل

كانت الأجواء المطيرة تعم لندن، ويبدو أن السحب التي ألقت بثلوجها على باتمونخ جومبا قد قررت أن تكتفي بالأمطار المتواصلة على لندن.

وقد كانت لاتزال تفيض بالمياه فوق المدينة، حينما عاد منطاد فالانتاين أخيرا إلى الوطن، في عصر اليوم التالي للأحداث الجسام في الحصن .

هذه المرة لم تكن ثمة حشود جماهيرية متحمسة في استقباله، وإنما الفراغ والمطر فقط، فقد بدا وكأن ميدان سيركل المبتل قد بات مهجورا تماما، إلا من بضعة عمال من قسم إعادة التدوير يواصلون قطع ماتبقى من الأشجار .

إلا أن عصبة المهندسين قد علموا بنبأ وصول فالانتاين، وبمجرد أن تناهت إلى مسامعهم ضوضاء محركات منطاده، حتى هرعوا جميعا إلى الخارج، ووقفوا والأمطار تضرب رؤوسهم الحليقة وأضواء المنطاد تنعكس على معاطفهم .

ومن نافذة غرفتها، وقفت كاثرين تراقب الطاقم الأرضي وهو يجر المركبة إلى الأسفل ويجري كافة استعدادات الهبوط التام لها، في حين تجمع المهندسون في حماسة ولهفة، وفي مقدمتهم ماجنوس كروم .

انفتح باب المنطاد فتقدم كروم صوبه ومن خلفه خادمه يحمل عنه مظلته المطاطية البيضاء، ثم ظهر فالانتاين عند الباب، وقد

كان من السهل على كاثرين أن تراه جيدا من تلك المسافة البعيدة، بطوله الفارع ووقفته الواثقة .

بمجرد أن لمحت كاثرين والدها من بعيد، اعتراها شعور ممض اعتصر أعماقها اعتصارا، وقد بدا لها وكأن قلبها على وشك الانفجار فعليا من الحزن والغضب. وتذكرت في وقفتها تلك، كيف كانت تتطلع ليوم عودته كي تكون أول من يستقبله لحظة وصوله .

وعبر زجاج النافذة الذي غطاه المطر، شاهدت والدها وهو يتحدث إلى كروم، فيومئ ويضحك ..

ثم دنا منه حشد من المعاطف البيضاء متحلقين حوله، فحجبوه عن ناظريها للحظات، قبل أن يحرر نفسه من بينهم جميعا وينطلق عبر الميدان المبتل متجها نحو المنزل، ولربما كان يتسائل في داخله حينها لماذا لم تكن ابنته العزيزة في انتظاره عند المرفأ .

للحظة، شعرت كاثرين بحالة من الاضطراب والذعر، ورغبة عارمة في الاختباء، لكن (كلب) كان برفقتها، وقد منحها هذا شعورا بالقوة تحتاجه بشدة الآن .

قامت كاثرين بإغلاق خصاص النافذة، ووقفت تنتظر حتى سمعت وقع أقدام والدها على درجات السلم، وهو يصيح : « كيت؟ هل أنت هنا؟ أريد أن أحكي لك عن مغامرتي. لقد عدت إليك من ثلوج شان جوو محمل بالعديد من الحكايات التي أريد أن ألقيها على مسامعك...كيت ؟ هل أنت بخير ؟ «

قامت كاثرين بفتح باب غرفتها فوجدت والدها واقفا أمامها، وعلى وجهه ابتسامة سرعان ما تلاشت حينما رأى العينين الدامعتين والوجه المنهك من عدم النوم .

« كيت. كل شئ على مايرام. هاقد عدت إلى المنزل « .

« أعلم، لكن ما من شئ على مايرام. ليتك قد مت هناك في الجبال ».

«ماذا؟!»

« لقد عرفت كل شئ عنك .. عرفت ما فعلته بهيستير شاو « .

قالت ذلك، ثم أفسحت الطريق ليدخل إلى غرفتها ثم أغلقت الباب، وهي تصيح في ذئبها الذي هرع نحو فالانتاين ليرحب به .

كانت الغرفة مظلمة الآن، لكنها استطاعت أن ترى والدها وهو واقف يحدق في كومة من الكتب واقعة على الأرض في ركن الغرفة، ثم بدأ ينظر إليها .

كان هناك جرح حديث في عنقه، ودماء على قميصه .

جلس فالانتاين على حافة سريرها غير المرتب، وقد ترددت في ذهنه آخر كلمات آنا فانج قبل أن تفيض روحها : « هيستير شاو سوف تجدك. والآن نفس الاسم يتردد أمامه من جديد هاهنا، على لسان ابنته كاثرين، كسكين ينغرس في سويداء قلبه .

« لاداعي للقلق « قالتها كاثرين بمرارة « مامن أحد آخر يعرف بما اقترفت... لقد عرفت اسم الفتاة كما ترى، وقد تكفل دكتور

أركينجارز بإخباري بما يعرفه عن مقتل باندورا شاو، وعرفت منه أنها قد ماتت منذ سبع سنوات، أي في نفس الوقت تقريبا الذي عدت فيه من إحدى إحدى بعثاتك الاستكشافية وكان العمدة سعيدا جدا بك ....لقد أعدت ترتيب كل شئ في ذهني وبدأت الصورة تتضح لي و... «

ثم أنها تناولت أحد كتبه (مغامرات في القارة البائدة) وهو عبارة عن سرد لرحلته إلى أمريكا، ففتحته على صفحة بعينها بها صورة فوتوغرافية، فأشارت إلى وجه بعينه في إحدى الصور الجماعية التي تجمع المشاركين في البعثة، وكان الوجه لملاحة شابة تقف بجواره وتبتسم» لم أربط بين الصورة والاسم في البداية، لأن اسمها قد تغير بعد الزواج ....هل قتلتها بنفسك أم أمرت بيوسي وجينيش بقتلها ؟» كان فالانتاين في تلك اللحظة يضع رأسه بين كفيه وقد استحوذ عليه الغضب واليأس، وشعور بالعار في آن واحد، أما كاثرين فقد ظل جزء منها يأمل أن تكون مخطئة تماما، وأن ينكر والدها كل ذلك ويثبت لها بالدليل أنه ليس هو قاتل شاو، لكن حينما رأته وقد أحنى رأسه إلى الأرض، عرفت أنها بكل أسف على صواب، وأنه لايوجد لديه مايدافع به عن نفسه .

ثم بدأ يتكلم أخيرا : « عليك أن تفهمي أنني إنما فعلت كل ذلك لأجلك أنت ...»

« لي أنا ؟»

فرفع رأسه، لكنه لم ينظر إليها وإنما إلى الجدار المقابل ورائها، وقال : « لقد أردت ان يصبح لديك كل شئ. أردتك ان تنشأي كفتاة راقية من الطبقة العليا، وليس كجامعة مخلفات في العراء،

مثلي. لهذا كان عليَّ أن أجد شئ ما يحتاجه كروم .. كانت باندورا رفيقة قديمة، من بعثتي في أمريكا كما قلت أنت، وبالفعل كانت معـي حينمـا عثـرت علـى المخططـات والرسـومات الخاصـة بالميدوسا وشفرتها، ولم نكن نتخيل أبدا أنه يمكن إعادة بناء تلك الآلة. بعدها مضيت أنا وباندورا كل منا في طريقه، كانت هي من من مناهضي التحرك، وتزوجت من مزارع قعيد الهمة واستقرت في مكان يدعي جزيرة السنديان. لم أكن أعرف أنها لاتزال تفكر في الميدوسا، ولابد أنها قد قامت برحلة أخرى إلى أمريكا ولكن وحدها هذه المرة، ولابد أيضا أنها قد وجدت منطقة ما هناك فاتنا استكشافها والتنقيب بها في رحلتنا الأولى، وهناك تمكنت هي من إيجاد ....» عقل اصطناعي « قالتها كاثرين في نفاد صبر « صلب الميدوسا « .

« نعم « دمدم فالانتاين، وقد بدا مأخوذا بحجم المعلومات التي عرفتها ابنته، ثم استرسل : « أرسلت باندورا بخطاب إليَّ تخبرني فيـه بمـا قـد وجـدته. كـانت تـدرك جيـدا أنـه لاقيمـة للآلـة دون مخططاتها وشفرتها، وهي الأشياء التي صارت في لندن حينها. وقد فكرت باندورا حينها في أنه يمكننا بيع الآلة معا، وفي نفس الوقت كنت أدرك أنا أنني إن منحت كروم شئ ثمين كتلك الآلة، فإن ذلك من شأنه أن يجعلني ثريا ويؤمن مستقبلك « .

« ولهذا قمت بقتلها ؟ «

« ماكانت لتوافق على بيعها لكروم ....لقد كانت مناهضة للتحرك كما قلت لك، ولهذا أرادت أن تبيعها لجماعة مقاومة التحرك. كان عليَّ أن أقتلها « .

« وماذا عن هيستير ؟ ... لماذا آذيتها ؟»

« لم أكن اقصد ذلك ... لقد استيقظت من نومها، ولابد أنها سمعت أصواتنا .... كانت طفلة جميلة .. في عمر مقارب لعمرك تقريبا، وكانت تشبهك كثيرا وكأنها أختك ... ربما هي أختك فعلا، لقد كنت وباندورا قريبين جدا من بعضنا البعض في فترة ما. «

« أختي ؟!.... ابنتك! «

« حينما فوجئت بها تحدق في بعد موت أمها ...كان علي أن أسكتها، فاندفعت نحوها بقوة .... لقد ظننت أنها قد ماتت، لكنني لم أقو على التأكد من ذلك، ثم أنها هربت واختبأت في قارب، وقد حسبت أنها لابد وقد غرقت، إلى أن مرت السنوات وعادت هي وحاولت طعني في تلك الليلة في الأحشاء « .

« وتوم ... لقد عرف اسمها، لقد عرف اسمها ولهذا قمت بقتله هو أيضا. لأنه لو ذكر الاسم أمام المؤرخين فقد تنكشف الحقيقة، أليس كذلك ؟»

« أنت لاتفهمين ياكيت. لو أن الناس اكتشفوا هويتها وماقترفته أنا، فلن يقو حتى كروم ذاته على حمايتي. سوف أنتهي تماما وسوف تنتهين معي أنت أيضا « .

« لكن كروم يعرف بكل هذا أليس كذلك ؟... ولهذا أنت شديد الولاء له ....وفي ككل، تحصل على أموال طائلة منه وتجعل من ابنتك الأجنبية فتاة لندنية راقية « .

كانت السماء لاتزال تمطر، ولندن لاتزال تتحرك فوق الأرض

المبتلة والغرفة تهتز من حركتها، في حين يقبع (كلب) في ركن منها، وبين الحين والآخر يرفع عيناه نحو فالانتاين، فهو لم يشهد أبدا مثل ذلك الجدال العنيف بينهما ولم يحب ذلك.

« لقد اعتدت أن أراك رجلا رائعا ... أفضل واشجع الناس وأكثرهم حكمة في العالم كله. لكنك في حقيقة الأمر لست كذلك، بل إنك حتى لست بالذكاء الكافي. ألم يخطر ببالك قط ماالذي سوف يفعله كروم بتلك الآلة؟»

فنظر فالانتاين إليها بحدة وقال: « بالطبع أعرف ..... هذا عالم يحب أن تأكل فيه مدينة الأخرى ياكيت ...إنه من العار أن يتم تدمير بانزرستات بايريث بتلك الطريقة بكل تأكيد، أما حصن جماعة مقاومة التحرك فيجب اختراقه حتى يتسنى للندن أن تحيا ....نحن بحاجة إلى ساحة صيد جديدة» .

« ولكن هناك بشر يحيون هناك. »

« إنهم شرذمة من مقاومي التحرك ياكيت، وغالبا قد فر معظمهم. »

« سوف يوقفوننا، فهم لديهم مدفعيات ومناطيد ...»

« لا» وعلى الرغم من اللحظات العصيبة التي يمر بها إلا أنه قد لاحت على وجهه ابتسامة فخر بنفسه « لماذا تظنين أن كروم أرسلني جهة الشرق إذن؟ لقد صار الأسطول الجوي الشمالي للجماعة رمادا تذروه الرياح، واليوم سوف تصنع لنا الميدوسا ممر عبر جدارهم الشهير « .

ثم أنه قام من جلسته واتجه نحو كاثرين مبتسما، وكأن هذا النصر الذي حققه سوف يمحو مااقترفه : « لقد أخبرني كروم أن موعد الهجوم سوف يكون في الساعة التاسعة، وسوف يكون هناك احتفال في مقر العصبة للاحتفال بفجر حقبة جديدة. هل ستأتين معي ياكيت؟ إنني أريدك أن....»

لقد كان أملها الأخير أن يكون والدها لايدري شيئا عن خطة كروم المجنونة، والآن قد تبخر هذا الأمل .. صرخت في وجهه : « أنت أحمق... ألا تفهم أن مايفعله هو خطأ فادح ؟ كان عليك أن توقفه ..كان عليك أن تتخلص من آلته الرهيبة تلك « .

« لكن هذا كان ليترك لندن قليلة الحيلة دونما دفاعات في وسط ساحة الصيد « .

« ثم ماذا؟ سيكون علينا أن نستمر في التحرك، نطارد لنأكل، وإن قابلنا مدينة أكبر فسوف يتم التهامنا نحن ... حسنا، على الأقل سيكون هذا أفضل من أن نتحول إلى قتلة « .

ثم أنها لم تعد تحتمل أن تبقى معه في نفس الغرفة لثانية أخرى، فاندفعت إلى خارج الغرفة، ولم يحاول هو منعها أو حتى أن يناديها، فقط ظل واقفا في مكانه وقد اعتراه الشحوب.

خرجت كاثرين إلى خارج المنزل تماما، ومضت تنتحب عبر المتنزه الغارق في الأمطار وقد تبعها ذئبها. ظلت تمشي وتمشي، حتى صارت على الطرف الآخر من لندن العليا، وكان كل ماتفكر فيه حينها أن عليها أن تفعل شيئا، عليها أن توقف الميدوسا.

ثم أنها هرعت نحو محطة المصعد، في الوقت الذي كانت

شاشات المتابعة تعلن النبأ السعيد بعودة فالانتاين .

***

31 المتنصت

أخذت لندن تسرع في طريقها نحو الجبال، واستفاقت المدن النصف متحركة، المختبئة خلف تلك الجبال لأعوام، على الخطر المهلك الذي بات يقترب منهم، فأسرعت تفر من أمام لندن، تاركة ورائها الأراضي الزراعية والمراعي الخضراء. إلا أن لندن لم تكن تعبأ بتلك المدن الصغيرة، ولم يكن أي منها يمثل هدفا لها .

والآن باتت لندن بأكملها على علم بخطة كروم، وبالرغم من الطقس القاسي، احتشد أهل لندن على منصات المتابعة، وطفق البعض منهم يراقبون المشهد عبر المناظير المقربة، ويوجهونها صوب شان جوو متطلعين لمشاهدة الجدار الأسطوري للمرة الأولى. وكانوا يهنئون بعضه البعض بالصيد المنتظر، ويتعجلونه ...

« قريبا» .

« لا بل الليلة» .

« سوف يصبح لدينا ساحة صيد جديدة « .

***

صار غالبية من بالمتحف يألفون وجود كاثرين وذئبها الآن، وما عاد أحد يلتفت إن وجدها تهرول بين ممرات المعارض. ومع ذلك، فقد لاحظ بعضهم منظرها الغريب ووجهها الباكي في ذلك اليوم، وقبل أن يتمكن أحد من سؤالها عما أصابها أو حتى يناولها منديلا ورقيا لتجفف دموعها، كانت هي قد انطلقت رأسا إلى حيث

مكتب السيد نانكارو بحثا عن بود، إلا انها لم تجد بود ولا نانكارو ذاته، فعادت أدراجها سريعا إلى البهو، حيث كان متدرب بدين من الدرجة الثالثة يقوم بمسح الأرضيات، فأخبرها أن : « السيد نانكارو في المخازن ياآنسة وقد اصطحب معه ذلك المتدرب الجديد المضحك « .

وفي المخزن كان المتدرب الجديد المضحك - بود - يساعد نانكارو على جر لوحة ضخمة إلى الخارج، وهي لوحة (كويرك يشرف على إعادة بناء لندن) للرسام والمارت سترينج، ذلك حين اقتحمت كاثرين المكان عليهما، وبمجرد أن رآها بود على هذه الحال، سقط طرف اللوحة الضخمة من يده على الأرض محدثا ضجة عالية، فصاح فيه نانكارو، إلا أنه فوجئ هو الآخر بوجه كاثرين والدموع على وجنتيها، فأعرض عن الفتى، ثم قال لها بصوت خفيض : « أظنك في حاجة إلى فنجان من الشاي ياآنسة فالانتاين « ثم خرج مسرعا .

« كيت ؟» قالها بيفيز في قلق وهو يتقدم نحوها « ماذا جرى؟»

لم يكن بيفيز معتادا على تهدئة روع الآخرين أو مواساتهم أو أي شئ من هذا القبيل، فهي أمور لايألفها المتدربون في عصبة الهندسة، إلا أنه رفع يده وأخذ يربت على كتفها، وكانت مفاجأة عظيمة لها حينما ألقت بنفسها على صدره وأخذت تبكي .

« بيفيز .. صار الأمر متوقفا علينا الآن .. علينا أن نفعل شيئا الليلة «.

« الليلة؟... ولكن هل تعنين بنحن أنا وأنت فقط ؟ لقد حسبت أن

والدك سوف يساعدنا ..»

« هو لم يعد والدي بعد اليوم « قالتها كاثرين بمرارة وقد ازدادت تشبثا ببيفيز وكأنه صار الملاذ الوحيد لها وقارب النجاة الذي سيحملها عبر مستنقع الآثام والمآسي إلى بر الأمان .

« أبي هو رجل كروم، ولهذا عليَّ أن أتخلص من الميدوسا، على أن أصلح ما أفسده هو « .

عاد نانكارو حاملا في يديه كوبين من الشاي، إلا أنه فوجئ بهما وهما متعانقان، فشعر بحرج شديد وأخذ يتمتم متلعثما « آاا... آام... حسنا .. لدي بعض الأوراق التي علي أن انتهي منها ...سوف أعود خلال ساعة أو اثنتين ...»

ثم خرج مسرعا، ولابد انه قد تعثر بالمتدرب البدين الذي كان لايزال يمسح الأرضيات في الخارج، حيث سمعاه يصيح فيه: « بحق كويرك ياميليفانت، ألا يمكنك أن تفسح الطريق !»

إلا أن هربرت ميليفانت ماكان له أن ينتحي جانبا أو يبتعد، فمنذ تخفيض رتبته وهو يبحث عن أي وسيلة يعود بها إلى مرتبته السابقة كمتدرب من الدرجة الأولى؛ ومنذ أن جاء بود إلى المتحف استرعى انتباه ميليفانت كثيرا، فهذا الفتى الجديد الغريب يبدو على علاقة ود قوية مع كبار رجال العصبة، كما أنه على علاقة بابنة كبير العصبة ذاته، وهو يرتدي نفس زي المتدربين، لكنه لاينام في نفس المهاجع معهم، وإنما في مكان آخر، كما أنه لايحضر دروسهم .

ومنذ وقت وجيز سمع ميليفانت عبر شاشات المتابعة أن عصبة

الهندسة لاتزال تبحث عن هؤلاء الذين اقتحموا اجتماعها السري .

لقد بدأ ميليفانت يشعر بأن أحوال هذا الفتى غريب الأطوار قد تثير اهتمام دكتور فامبراس رئيس أمن عصبة الهندسة .

وبمجرد أن غادر نانكارو المكان، ترك ميليفانت أدوات التنظيف من يده واقترب قليلا نحو الباب ...

« .... جماعة مقاومة التحرك لايمكنهم الدفاع عن أنفسهم « كانت كاثرين تقول ذلك بصوت مبلل بالدموع، « هذا ماكان أبي يفعله. لقد تجسس على المدن هناك وقام بتفجير أسطولهم الجوي، ولهذا أقول لك إن الأمر برمته قد صار على عاتقنا نحن « .

« وماذا عن باقي المؤرخين؟ «

« إنهم يرتعدون خوفا ولن يساعدوننا، لكنني استطيع أن افعل ذلك وحدي، لقد دعاني أبي لحضور الحفل الذي سيقيمه العمدة الليلة، وسوف أذهب ... سوف أعود لوالدي وأقول له أنني قد غفرت له وأنني سوف أذهب بصحبته إلى حفل العمدة .ثم سأتسلل إلى حيث النيدوسا وأدمرها. هل تظن أن المطرقة سوف تؤدي الغرض؟ أم أن العتلة ستكون أفضل ؟ «

ثم ضحكت في توتر وعصبية، وقد لاحظت كيف أجفل بيفيز من ضحكتها التي بدت على شئ من الجنون، وللحظة خشيت أن يبدأ في ترديد كلمات من نوعية : اهدئي، أو... هذا الأمر لن ينجح على هذا المنوال...

ثم أنها مدت أناملها تتحسس وجهه وأذنيه المحمرتين، وشعرت بالنبض المتسارع داخله... ثم

« قنبلة «

« ماذا؟ « تساءلت كاثرين في عدم فهم.

« لابد أن الميدوسا ضخمة جدا، ربما هي تحتل نصف الكاتدرائية، فلو أردت تدميرها فسوف تحتاجين لمتفجرات ... أدوات التنظيف المستخدمة في المتحف تحتوي على مادة النيتروجين، فلو أخذنا بعضا منها وقمنا بخلطه ببعض السوائل الحافظة التي يستخدمها دكتور نانكارو على اللوحات، وصنعنا عدادا ميقاتيا فقد ....»

«كيف عرفت كل هذا ؟» سألته كاثرين وقد انتابها الذهول.

« إنها من أساسيات الكيمياء ... لقد تلقيت دروسا في الكيمياء من قبل» .

« أهذا كل ماتهتم به عصبتك ؟ صناعة القنابل وتفجير الأشياء؟»

« لا لا، لكن هذه هي العلوم، يمكنك أن تستخدميها كيفما شئت .... كيت، لو أنك حقا تريدين القيام بالأمر فسوف أصنع لك قنبلة تستخدمينها، ولو استطعت الوصول إلى الميدوسا فكل ماعليك فعله هو ترك القنبلة بجانب العقل الاصطناعي المتحكم بها وتأكدي من تشغيل عداد الوقت ! ثم ابتعدي بسرعة، وبعد نصف ساعة ....»

وفي الخارج، كانت أذنا ميليفانت ملتصقتين تماما بالباب

الخشبي وقد سمع كل شئ.

***

كانت سرعة المدينة تزداد أكثر فأكثر، وكأن لهفة كروم وحماسته قد انتقلت عدواها إلى المحركات التي كانت ترتج كوجيب قلبه المتواثب، والعجلات التي كانت تدور بسرعة كسرعة دوران أفكاره، متجهة نحو الجدار، وإلى حقبة جديدة من تاريخ لندن .

طوال فترة مابعد الظهيرة، أخذ فالانتاين يبحث عن كاثرين في كل مكان، في المتنزه، لدى أصدقائه، الذين فوجئوا به يغلق عليهم أبوابهم ونوافذهم وقميصه متلوث بالدماء، متسائلا: « هل ابنتي عندكم ؟ ...هل رأيتم ابنتي؟»

وبعد أن استنفذ محاولاته جميعا للعثور عليها، عاد إلى المنزل من جديد وطفق يدور جيئة وذهابا في قلق عارم، والماء يقطر من حذائه المبتل بفعل الأمطار.

أخيرا سمع صوت خطوات تدخل المنزل، ثم رأى بيوسي يقترب وهو في حال لاتقل سوءا عن حال سيده « لقد تتبعتها ياسيدي .. إنها في المتحف. لقد صارت تمضي الكثير من الوقت هناك مؤخرا، وفقا لما قاله لي موظف عجوز هناك ... «

« خذني إلى هناك «.

« هل أنت متأكد ياسيدي ؟ « ثم خفض الرجل عينيه وقال: « أظن أنه سيكون من الأفضل أن تتركها قليلا وحدها. إنها في أمان داخل المتحف، أظن أنها بحاجة إلى وقت للتفكير واستعادة

صفاء ذهنها، ولسوف تعود من تلقاء ذاتها « .

فتـهاوى فـالانتاين فـوق مقعده، فـي حـين دار بيوسـي يشـعل مصابيح الغرف في هدوء.

« لقد قمت بتلميع سيفك وتحضير أفضل رداء لك في غرفة الملابس ياسيدي .... لاتنس الحفل لدى العمدة « .

أومأ فالانتاين وهو يحدق في كفيه وأنامله الطويلة .... « لماذا انسـقت وراء مخططاتـه يابيوسـي ؟ لمـاذا منحتـه الميدوسـا بنفسي؟!»

« لاأجد ما أقوله ياسيدي « .

فقام فالانتاين وهو يتنهد، واتخذ طريقه إلى غرفة ملابسه، وفي داخله كان يتمنى لو أنه امتلك حدة كاثرين، لأمكنه حينها تحديد الصواب من الخطأ ... وتمنى أيضا لو أنه امتلك الشجاع ليقف في وجه كروم كما تريده ابنته أن يفعل، لكن....قد فات أوان ذلك منذ زمن .

فـي تلك الأثناء كان كروم يجلس إلى مائدة عشائه ينظر إلى متحف التاريخ المرتعدة فرائصه الواقف أمامه، والذي أحضره فامبراس إليه .... « والآن أيها المتدرب ميليفانت، أرى أن لديك شيئا تريد إخبارنا إياه « .

***

32 شادليغ بوميروي

أدركت كاثرين أخيرا أن بإمكانها تجاوز كل ذلك، ففي لبداية كانت تشعر بالرغبة في الموت، أما الآن فقد صارت بخير، وقد جعلها ذلك تتذكر كيف كان حزنها وألمها عظيما حينما توفيت والدتها، حيث كاد الأسى يعصف بها، ثم تجاوزت أحزانها ومضت بها الحياة بشكل أدهشها؛ أما الآن فالوضع افضل قليلا، فعلى الأقل لديها (كلب) سوف يساعدها على المرور من تلك الفترة العصيبة، كما ان بيفيز معها وبجانبها .

« كيت، أعطني مسمارا آخر كهذا، لكن أكبر قليلا ..»

في ذلك اليوم، أثناء ساعات مابعد الظهيرة، وقفت كاثرين تساعد بيفيز وهو يصنع القنبلة كما اتفقا، وقد بدا لها أنه أكثر مهارة بكثير مما كانت تحسبه، إنه ليس ذلك الشخص المرتبك الذي يحتاج لمن يعتني به، وإنما قد بدا لها انه يفوقها براعة وحنكة بمراحل .

« كاثرين، أعطني مسمارا كهذا لكن أكبر قليلا « .

إنه لطيف .. مهذب، وقد أخذت تراقبه وهو منهمك فيما يصنع، تحت مصباح الأرجون في ركن معرض النقل القديم، حيث أخذ يقيس نسب مسحوق النيتروجين وسائل الحفظ بدقة وبراعة، ثم شرع يصنع جهاز التوقيت ويركب أجزاءه ..

« المسمار ياكيت..!»

« أه..نعم « ثم أخذت تعبث بين مجموعة من المعدات على

الأرض بجانبه حتى وجدت ما أراد فناولته إياه، ثم أخذت تنظر لساعتها .

كانت الساعة قد بلغت الثامنة، وقد أدركت أنها سوف يكون عليها العودة إلى المنزل وعلى وجهها ابتسامة لتقول لوالدها : آسفة، لقد كنت سخيفة جدا اليوم ... عود محمود ياأبي.... رجاءً، هل يمكنني أن آتي معك إلى حفل العمدة ؟

« هاهي ذي « .

قالها بيفيز وهو يرفع الحقيبة التي يوجد بها القنبلة بين يديه .

« إنها لاتبدو كقنبلة على الإطلاق « .

« تلك هي الفكرة، انظري « ثم فتحها لتجد بداخلها القنبلة وزرا أحمر سيكون عليها أن تضغط عليه لتفعيل القنبلة وربطها بجهاز عداد الوقت .

« إنها لن تحدث انفجارا كبيرا، ولكن إن تمكنت من وضعها بالقرب من العقل الاصطناعي للميدوسا...»

« سوف أجد طريقة « قالتها وهي تأخذ القنبلة منه :» أنا ابنة فالانتاين، ولو أن لأي شخص أن يدخل إلى حيث الميدوسا فسوف يكون أنا».

بدا عليه الأسى، وقد تساءلت في قرارتها عما إذا كان حزينا . إن تلك القوة القادمة من العالم القديم على وشك أن يتم تدميرها ...

« عليَّ أن أفعل ذلك يابيفيز « .

« أعلم .. كنت أتمنى لو أنني استطعت المجئ معك « .

فما كان منها إلا أن احتضنته، ثم بدأت تقبله من شفتيه، وشعرت بيديه المرتجفتين تمسدان شعرها. هنا أخذ (كلب) يزمجر زمجرة خفيفة، ربما بدافع الغيرة، والخوف من أن يفقد حب كاثرين له، وينتهي به الحال إلى ماانتهت إليه ألعابها القديمة والدمى الموضوعة على الأرفف في غرفتها .

ثم أنها سحبت نفسها بعيدا عنه وهمست « ماالذي حدث لنا «

فجأة دنا إلى مسامعهم صوت صياح، يتردد صداه عبر الدرج، فأجفلا، وقد أدركا أن شيئا ما ليس على مايرام، فالصياح لم يكن أبدا مألوفا داخل المتحف .

بدأ الذئب يزمجر بشكل أعنف هذه المرة، ثم هرع عبر الباب وهما وراءه، وفي طريقهما سمعا المزيد من الصياح ثم دوى صوت ارتطام شئ ما بقوة، وجاءهما صوت بوميروي الغاضب وهو يصيح : « هذا انتهاك. أنتم تنتهكون حرمة عصبة المؤرخين « .

ومن الأسفل كان فريق من أمن عصبة الهندسة يصعد سلم المتحف سريعا بأحذيتهم المطاطية وكشافات الإضاءة تتدلى من معاطفهم، في حين كانوا يحملون بنادقهم الآلية اللامعة المعقدة التركيب .

ثم أنهم أبطؤوا من سرعتهم قليلا حينما وجدوا أمامهم (كلب) واقفا وعيناه تلمعان وأذناه منتصبتان إلى الخلف ويزمجر في توتر، فارتفعت البنادق صوبه مباشرة، فصرخت كاثرين وهي تجره من مقوده : « إنه لن يؤذيكم. إنه خائف لاأكثر. لاتضربوا «

إلا أنهم كانوا قد أطلقوا طلقاتهم بالفعل، فأطاحت قوة الطلقات بالذئب من يد كاثرين ليصطدم بالحائط ويسقط وهو يعوي، ثم صمت تماما. وفي ضوء الكشافات بدت الدماء المتدفقة من جسده سوداء. شهقت كاثرين وقد صارت ترتعش بعنف، وتجمدت في مكانها فلم تعد تقوى على أي حركة. ومن بين فرقة الأمن أمامهما انطلق صوت حاد يقول: « قفي حيث انت ياآنسة فالانتاين «

« ك..كلب ...»

« قفي حيث أنت، الوحش مات على أية حال « .

ثم ظهر دكتور فامبراس عبر الدرج، إلى أن وصل إليهم : « وأنت أيضا يابود « .

كان بيفيز حينها يهم نحو الذئب لتفقده.

وقف فامبراس على قمة الدرج مبتسما في هدوء قبل أن يقول : « لقد كنا نبحث عنك في كل مكان أيها المتدرب. ألا تشعر بالعار مما فعلت ؟ أعطني الحقيبة « .

فناوله بيفيز إياها، فأخذها الرجل وقام بفتحها، ثم قال : « تماما كما أخبرنا ميليفانت. قنبلة « .

ثم تقدم اثنان من أفراد الأمن وقاما بجر كاثرين وبيفبز نحو الدرج، فأخذت كاثرين تصرخ وتقاوم حينما حاولا فصله لا عن بيفيز

« إلى أين تأخذوننا؟ «

« سوف تأتين معنا إلى القمة ياآنسة فالانتاين « قالها فامبراس « أما حبيبك فسوف يتم الإلقاء به إلى قاع الأحشاء « ثم نظر إلى بيفيز مبتسما في وحشية « نعم أيها المتدرب، هناك خبرات مثيرة تنتظرك هناك « .

« لكن الذنب ليس ذنبه هو ..»

لقد خرجت خطتها الحمقاء عن السيطرة، وها هي وبيفيز و(كلب) يذهبون جميعا ضحية تلك الخطة .

« أنا من ورَّطه في الأمر. أنا من جعلته يساعدني ... ليس لبيفيز علاقة بالأمر « .

إلا أن فامبراس كان قد ابتعد عنهم، فقام أحد رجاله بوضع كمامة على فمها ليسكتها.

توقفت مركبة فالانتاين أمام مقر العصبة، حيث وقفت معظم مركبات رؤساء العصبات. ترجل جينيش مسرعا ثم فتح لسيده غطاء المركبة، فترجل فالانتاين متجها نحو المدخل وجيتيش يعيد هندمته ويزيح خصلات الشعر عن وجهه ويعدل من وضع سيفه .

نظر فالانتاين عاليا نحو السماء، حيث كانت الشمس لي طريقها سريعا نحو الغروب.

كانت رياح الشرق لاتزال تهب بقوة، حاملة معها رائحة الثلوج لتقطع انشغال عقله بكاثرين وتعيده للتفكير ثانية في شان جوو وما دار بها .. « هيستير شاو سوف تجدك « ظلت الجملة الأخيرة

لزهرة الرياح تتردد صداها في عقله، ولكن ... كيف تسنى لها أن تعرف شيئا عن هيستير؟ ! لا يمكن أن تكون قد قابلت الفتاة، أم تراها قابلتها؟ أيمكن أن يكون ذلك قد حدث؟ وهل هيستير لاتزال على قيد الحياة ؟ أيمكن أن تكون قد وصلت بشكل او بآخر إلى باتمونخ جومبا؟ ... أيمكن أن تكون موجودة حاليا في تلك الجبال وتستعد لدخول لندن ثانية لقتله، أو ربما تنتوي ماهو أسوأ : إيذاء ابنته .

أزاح يد جينيش جانبا ثم قال : « إن كنتما لاتمانعان من تفويت الحفل، فإني أريد منكما أن تستقلا المنطاد وتذهبا في جولة للتأكد من أن أحدا من هؤلاء الحمقى من جماعة مقاومة التحرك لايحاول الإتيان بأي فعل ما».

« رأي صائب ياسيدي « وانطلق الرجلان نحو المركبة، وسرعان ماكانت تتحرك بهما من جديد لتنفيذ الأوامر .

وقف فالانتاين هنيهة ليعدل من هندامه مرة أخيرة، ثم اعتلى الدرج المؤدي لردهة المقر.

***

أخذ رجال عصبة المهندسين يتحركون ومعهم كاثرين وبيفيز، عبر قاعات العرض في الطابق الأسفل من المتحف متجهين نحو الردهة الرئيسية، وكان المكان خاليا تماما، وهو أمر لم تعتده كاثرين التي لم تر المتحف يوما خاويا على عروشه كتلك اللحظة ... أين المؤرخون؟!

كانت تعلم جيدا انهم لن يقدروا على مساعدتها او انقاذها من

أمن العصبة، لكنها فقط أرادت ان تراهم وأن تتأكد من ان هناك من يعلم بما وقع لها .

ثم أنها أخذت تحاول الإصغاء علها تسمع وقع أقدام ذئبها من خلفها، لكنها لم تجد لخطواته أثر، إلى أن تذكرت ماحل بذئبها المسكين .

وبجانبها كان بيفيز يسير وهو يحدق أمامه دون أن ينظر إليها، وكأنه يرى أعماق الأحشاء من مكانه ويفكر فيما سوف يلاقيه هناك .

وما إن وصلوا إلى السلم المؤدي إلى المدخل الرئيس حتى توقفت قوات الأمن دفعة واحدة .

ففي ردهة المدخل وقف المؤرخون جميعا يسدون الطريق ويحولون بين قوات فامبراس والباب الرئيس، وفي أيديهم كانت الأسلحة والمعدات الحربية القديمة يتسلحون بها في وجه رجال أمن الهندسة. لقد استغل المؤرخون انشغال الأمن في القبض على كاثرين وبيفيز، وانطلقوا إلى حيث قاعة الأسلحة القديمة، فخذوا ما بها من أسلحة، سيوف وخوذات ودروع واقية.... حتى أن أحدهم قد ارتدى درعا معدنيا فوق ردائه الأسود، وقرروا أن يقفوا في وجه هؤلاء .صاح بهم فامبراس : « ومامعنى هذا ؟»

فتقدم شادليغ بوميروي وهو ممسك ببندقية قصيرة عتيقة ذات فوهة نحاسية، وفي تلك اللحظة أدركت كاثرين أن باقي المؤرخين يتخفون في الظلال عند أطراف الردهة ويراقبون الوضع من وراء نوافذ العرض وقد تسلحوا هم أيضا بأسلحة

بدائية .

« أيها السادة » صاح بوميروي في عصبية وغضب « أنتم الآن في أحد مباني عصبة المؤرخين، وإني أقترح عليكم أن تطلقوا سراح الشابين فورا «.

« فورا» رددت دكتور كارونا وهي تصوب بندقية صدئة نحو العجلة الحمراء بين حاجبي فامبراس، الذي شرع يضحك في سخرية : «أنتم جماعة من العجائز الحمقى. هل تظنون أن بإمكانكم هزيمتنا؟ لسوف يتم حل عصبتكم تلك بسبب ماتفعلونه الآن، أما أسلحتكم السخيفة فسوف يتم إلقاؤها للأفران، ولسوف تتحطم أجسادكم من العمل في عنابر المحركات بالأحشاء. سوف نجعلكم تاريخا، طالما أن التاريخ هو كل ماتهتمون به .... نحن عصبة المهندسون، نحن المستقبل « .

مرت فترة صمت، لايقطعها سوى صدى كلمات فامبراس التي ترددت في الأجواء، وأصوات أصابع المؤرخين وهي تتقلص على أسلحتهم البالية، ثم فجأة، غرق المكان كله في سحابة من الدخان، وانطلقت أصوات طلقات وضوضاء وفرقعات، وقعقعة الأسلحة القديمة وهي تطلق ذخيرتها، ومن خزانة قديمة للمعروضات انطلقت طلقات مدفع صغير كان مخبأ بها خلف مكتب التذاكر، بمجرد أن مس دكتور نانكارو فوهته بقداحته، فأطاحت الطلقات بفامبراس واثنين من رجاله، أما دكتور اركينجارز فقد هوى على ظهره بعدما أطلق قذيفة من سلاحه، انطلقت لتصيب فرد الأمن الذي كان يقبض على ذراع كاثرين ليسقط أرضا بجانبها، فركعت بدورها على ركبتيها محاولة

الاختباء .

سقط معظم رجال فامبراس أرضا، أما من تبقى منهم فقط أمطروا المدخل بالطلقات من أسلحتهم المتطورة، فتحطمت مجسمات الديناصور العملاقة، واستحال زجاج نوافذ العرض إلى غبار، في حين هرع المؤرخون للمخابئ، فسقط منهم من سقط، وفي سقف الردهة تحطمت مصابيح الأرجون بفعل الطلقات، الواحد وراء الآخر، إلى أن أظلم المكان، فاندفع من تبقى من أمن عصبة المهندسين نحو الباب تاركين وراءهم كاثرين وبيفيز .

ولكن من مكانها فوجئت كاثرين ببيفيز يمد يده ليلتقط أحد أسلحة رجال العصبة التي كانت ملقاة على الأرض، ويرفعها عاليا ... كان الهواء ثقيلا والدخان يفعم كل شئ، لكنها لم تستطع أن تبعد عينيها وعقلها عن بيفيز الذي وقف في ثبات وقد أراح البندقية على زنده ووضع اصابعه على زنادها، وفي لمح البصر انطلقت الطلقات لتصيب الجنود الفارين، فيتساقطون أمام الباب الواحد تلو الآخر والثقوب الزرقاء تمزق معاطفهم. كانوا يتساقطون، ومن ورائهم وقف بفيز في هدوء وقوة يقتلهم دون أن يهتز له طرف .

إنه لم يعد ذلك الشاب الرقيق الذي عرفته، لقد صار شخصا آخر يمكنه أن يقتل بهدوء ودم بارد، وكأن المهندس بداخله لايقيم وزنا أو احتراما للحياة الإنسانية، أو ربما لأنه قد رأى الكثير من الموت هناك في قاع الأحشاء، فلم يعد يمثل له شيئا كبيرا .

وحينما توقف عن القتل ساد الصمت التام، فيما عدا صوت قعقعة عظام، أدركت كاثرين فيما بعد أنه صوت أسنانها التي تصطك

ببعضها البعض .

ومن أركان الردهة بدأ المؤرخون يخرجون من مخابئهم، في حين كانت كاثرين تحسبهم جميعا قد قتلوا، لكنهم كانوا أحياء لحسن الحظ، بالرغم من أن بعضهم قد أصيب بالفعل، أما من مات منهم فكان رجلا يدعى وايماوث، لم تكن قد تحدثت إليه من قبل، و...دكتور اركينجارز، الذي رقدت جثته بالقرب من الباب.

أخذ بيفيز يحدق في البندقية بين يديه المرتعشتان، وقد هوى على ركبتيه، في حين كان الدخان الأزرق لايزال ينبعث من فوهتها .

تحامل بوميروي على نفسه واقترب من كاثرين وبيفيز، وكان يمسك بذراعه الذي أصيب جراء انغراس إحدى العظام الحادة لمجسم الديناصور فيه، « لابد أنني أول شخص يصيبه ديناصور بجراح منذ ملايين السنين ».

لكن أحدا لم يقو على الضحك من مزحته، فقال : « حسنا ...لقد أريناهم كيف نتصرف نحن في وقت الشدائد. بمجرد أن أخبرت المؤرخين بما يحدث من محاولة اعتقالكما هب الجميع وقد اقسموا ألا يسمحوا لهم بأخذكما. بمعنى أدق، معظمنا فعل ذلك، أما الباقون فقد تم التحفظ عليهم في مخزن الطعام مع المتجربين الذين يمكن أن يدعموا رجال كروم .... كان يجب أن ترينا ونحن نقول في عزم: لن ندعهم يأخذون آنسة فالانتاين، وقد فعلنا. حسنا، لقد عرفوا الآن أنه ما من أحد من عصبة المهندسين مكافئ لأي من رجال عصبة المؤرخين. »

« أو لنسائها ..» قالتها مويرا بليم وهي تسارع نحوه : « لقد تلقوا درسا اليوم، حتى لايحاولوا الاقتراب من مقتنيات معرضي الخشبية مرة ثانية. سوف يعرفهم ذلك جزاء من ...» ثم انغلقت مقدمة الخوذة التي ترتديها فجأة حاجبة صوتها.

ثم لمحت كاثرين حقيبة القنبلة، ملقاة على سلالم المدخل بين الدماء، وقد بدا أنها لم تتلف، « عليَّ أن أذهب إلى القمة، كي أوقف الميدوسا. إنها الطريقة الوحيدة. سوف أذهب إلى محطة المصعد و..»

« لا « قالتها كليتي بوتس وهي تهرع عبر درج المدخل الأمامي» لقد فر اثنان من المهندسين الذين كانوا في الخارج، ولابد أنهم الآن قد أطلقوا الإنذار وأبلغوا عصبتهم، وسوف ينتشر الحرس الحرس عند المصاعد. وفي غضون دقائق سوف تأتي مزيد من التعزيزات من أمن الهندسة إلى هنا، ومعهم سيأتي المطاردون « .

ثم أنها نظرت إلى حيث وقف بوميروي والقلق قد بدا في عينيه .

« آسفة ياسيدي» .

« لاعليك ياآنسة بوتس « ثم ربت على كتفها .

« لاتقلقي ياكاثرين، سوف نشغل هؤلاء الشياطين هاهنا حتى تتمكني من التسلل إلى القمة عبر(مخرج القط)».

« وما هو هذا ؟»

« إنه أحد الأماكن التي يعرفها المؤرخون جيدا في حين نسيها الآخرون ...هو سلم قديم منذ الأيام الأولى للندن، حينما لم يكن

من الممكن الاعتماد الكامل على نظام المصاعد. إنه يبدأ من الطبقة الثالثة وصولا إلى القمة، مرورا بالمتحف .. هل أنت جاهزة لذلك ؟»

لم تكن مستعدة بعد، لكنها أومأت أن نعم .

« سوف أذهب معها « قالها بيفيز .

« لا» .

« لابأس ياكيت، أنا أريد ذلك « قالها وهو يقلب جثث رجال أمن الهندسة باحثا عن معطف لم تمزقه الطلقات، إلى أن وجد واحدا فشرع يخلعه عن صاحبه، « لو أن أي من المهندسين قد شاهدك وحدك هناك فسوف يفطن لما تريدين فعله، أما لو كنت برفقتك فسوف يظنون أنك سجينة وأنا حارسك « .

فأيده بوميروي « إنه محق ياكيت «، ثم نظر إلى ساعته وقال :» إنها الثامنة والنصف الآن، وسوف تنطلق الميدوسا في تمام التاسعة كما أعلنت شاشات المتابعة. مازال أمامكما بعض من الوقت لتنفيذ الخطة، ومن الأفضل أن تنطلقا الآن قبل أن يعود هؤلاء بمزيد من التعزيزات .

***

33 نبيذ وطعام وفجر حقبة جديدة

كان الجيني هانيفر يعج بالذكريات عن آنا فانج ... آثار شفتيها على كوب متسخ ... آثار رقدتها على فراش غير مرتب ...كتاب لم تكن قد استكملت قراءته وقد وضعت به شريطا أحمر عند الصفحة ٢٠٥ ...

وفي إحدى الخزائن وجدت هيستير درجا مليئا بالأموال، ليس فقط قطعا برونزية وإنما أيضا فضية وذهبية .. كميات من الأموال لم يرها أي من هيستير أو توم طوال حياتهما .

همست هيستير : « لقد كانت ثرية «.

فاستدار توم في مقعد القيادة ونظر إلى الأموال شاردا. فطوال رحلتهم منذ أن غادروا شان جوو لم يفكر توم مطلقا أنهما قد أخذا المنطاد لنفسيهما، وإنما كان يعتبر أنهما قد قاما باستعارته لإنهاء المهمة التي كانت فانج لترغب في إتمامها. أما الآن فقد بدأ يشعر وكأنه قد صار لصا وهو يشاهد هيستير تمسك بحفنة من الأموال بين يديها .

« حسنا. « قالتها هيستير وهي تغلق الدرج « لم يعد لتلك الأموال فائدة لفانج حيث هي الآن، كما أنها غير ذات نفع لنا نحن أيضا، فسوف نلحق بفانج قريبا « ثم إنها نظرت إليه : « إلا لو أنك قد غيرت رأيك « .

فهز رأسه أن لا؛ وان كان غضبه الشديد قد تراجع كثيرا مع الوقت، وبدأ الخوف يحل محله، كما أنه بدأ يتذكر كاثرين من

جديد ويفكر فيما سيحدث لها في حال مات والدها.

ومع ذلك فهو لايزال يرغب في أن يدفع فالانتاين ثمن كل ماقترفه من جرائم وماتسبب به مآسٍ .

شرع توم يستعرض ترددات المذياع بحثا عن تردد لندن، في حين أخذت هيستير تستأنف البحث بين الأدراج والخزائن، إلى أن وجدت ضالتها : مسدسا أسود ثقيلا وسكينا حادا .

***

تحول مجلس المدينة إلى قاعة احتفالات بهيجة، مزينة بالأضواء والرايات واللافتات، وقد حضر كافة رؤساء العصبات، وأخذوا يتسامرون في سعادة ويتجولون بين المقاعد الجلدية الخضراء، ويلقون ويلقون الكلمات الرسمية، ويتبادلون الأحاديث في حماسة شديدة حول ساحة الصيد الجديدة؛ وبين الفينة والأخرى كانوا ينظرون إلى ساعاتهم متلهفين للحظة انطلاق الميدوسا .

وبين الحضور أخذ متدربو الهندسة يطوفون في كل مكان، حاملين صحائف مليئة بمقرمشات جديدة من مبتكرات قسم المشرف نيمو، كانت تلك المقرمشات بنية اللون ذات مذاق غريب، لكنها اتخذت أشكالا هندسية شديدة الدقة .

تقدم فالانتاين يشق طريقه بين الحضور، حتى وجد كروم في معطفه الأبيض بين حرسه من المطاردين في معاطفهم السوداء. كان فالانتاين يبغي سؤال كروم عما توصل إليه عميله الذي أرسله خلف هيستير شاو، فأخذ يمر بين الحاضرين، وأذناه

تلتقطان من حين لآخر بعض من حواراتهم :

« هاهو فالانتاين ...لقد عاد من شان جوو.»

« لقد سمعت أنه قد قام بتفجير الأسطول الجوي للجماعة « .

« يالها من مقرمشات جميلة !»

وبمجـــرد أن وصـل إلـى حـيث العمـدة، صـاح كـروم مرحبـا « فالانتاين ... أخيرا أتى الرجل الذي كنا في انتظاره « وكان يبدو عليه الابتهاج والمرح، وبجانبه وقف العباقرة الذين استطاعوا إعـادة إحيـاء الميدوسـا من جديد : دكتـور شاندرا دكتـور شاب ودكتور سبلاي، بالإضافة إلى دكتور تويكس التي ابتسمت في تكلف لفالانتاين مهنئة إياه على رحلته في شان جوو. ومن خلفها كان يقف هؤلاء المطاردون جامدين كالتماثيل، فأومأ فالانتاين نحوهم قائلا : « أرى أنك قد استفدت كثيرا من بقايا المطاردين الذين أحضرتها لك ياكروم .. «

« بـالفعل «أجابـه العمـدة بابتسـامة مرحـة « سـلالة جـديدة مـن الرجـال العائـدين، سـوف يكـونون خـدمنا وجنودنـا فـي العـالم الجديد الذي على وشك أن نبنيه؛ حتى أن بعضهم قد توجه إلى المتحف بالفعل « .

« المتحف؟»

« نعم « قالها كروم وهو يرقب رد فعل فالانتاين إزاء مايقول : « لقد اكتشفت أن بعضا من مؤرخيك خائنون ...خائنون مسلحون « .

« هل تعني أن هناك معركة دائرة الآن هناك ؟ لكن كيت هناك أيضا، عليّ أن أذهب إليها «.

« مستحيل « صاح العمدة ممسكا بذراعه وقد هم بالرحيل.

« لايمكنك الوصول إلى الطبقة الثانية الآن. المتحف محاصر بالمطاردين وفريق الأمن. لكن لاتقلق، فلديهم تعليمات مشددة بعدم إيذاء ابنتك. سوف يتم إحضارها إلى هنا لتشاركنا الاحتفال في أقرب وقت ممكن، بل إنني أريدها بشكل خاص أن تشهد انطلاق الميدوسا، كما أنني أريدك هنا يافالنتاين. اجلس « .

فنظر إليه فالانتاين وقد صمت تماما .

« إنني أتساءل، لمن يكمن ولاؤك الحقيقي، للندن أم لابنتك ؟. اجلس « .

اجلس.... وكأنه يأمر كلبا. تقلصت يد فالانتاين للحظة على مقبض سيفه، لكنه كان يعلم جيدا أنه لن يسحبه من غمده، فالحقيقة هي أنه خائف، وماكانت كل أسفاره ومغامراته وبعثاته سوى محاولات لإخفاء الحقيقة عن نفسه : حقيقة إنه جبان .

مط فالانتاين شفتيه عن ابتسامة وانحنى قائلا : « خادمك المطيع ياسيدي العمدة « .

***

لم يكن المدخل إلى (مخرج القط) سوى باب بسيط في الجدار بالقرب من قسم التاريخ الطبيعي، باب لابد أن كاثرين قد مرت به مئات المرات دون حتى أن تلحظه.

أخرج بوميروي مفتاح الباب وفتحه، فجاء صوت الرياح من الأعلى وهدير المحركات من الأسفل تتردد صداهم عبر الدرج الممتد .

أخرج بوميروي مفتاحا وكشاف إضاءة ودسهما في يد بيفيز، «حظ موفق سيد بود، حظ موفق كاثرين « .

ومن مكان ما من المتحف سمعوا دويا عنيفا جعل نوافذ العرض ترتج في القاعات، فقال بوميروي : « لقد وصلوا .. عليَّ أن أعود إلى موقعي « .

« تعال معنا « رجته كاثرين « سوف تكون في أمان في القمة بين الزحام « .

« هذا متحفي ياآنستي، وسوف أظل هاهنا « .

فعانقته كاثرين وقد دفنت وجهها في ردائه:

« لا أظن أن المهندسين سوف يدعوننا أكثر من هذا، لكننا على الأقل سوف نقاتلهم « .

« وسوف تنتصر « .

« آه نعم ... لقد اعتدنا انهزامهم في كأس العصبات لمباريات الكرة، وإن كان فريقهم للكرة لايمتلك بنادق آلية ولا مطاردين « .

ثم أنه رفع رأسها ونظر في عينيها قائلا بجدية : « أوقفيهم ياكاثرين « .

« سوف أحاول « .

« سوف نتقابل قريبا « قالها بوميروي بحزم، ثم أمسك ببندقيته العتيقة وقال وهو يبتعد : « لقد ورثت موهبة والدك ياكيت، فلديك القدرة على جعل الناس يتبعونك. انظري كيف استطعت شحذ همتنا «.

وبمجرد أن انغلق الباب عليهما، سمعا صوت المدفع والطلقات من جديد، ثم صوت صرخات ضعيفة .

***

« هناك «صاح توم.

كانوا حينها يحلقون فوق طبقات من السحب الرقيقة، وقد رصد توم لندن في الأفق أمامهم .

« هناك !»

كانت أكبر منا يتذكره عنها وأكثر قبحا .

ياللعجب !، لقد ظل طوال حياته يؤمن بما تبثه لهم شاشات المتابعة عن أناقة المدينة وجمالها الأخاذ.

أما الآن فهاهو يطالعها بنفسه ويدرك أخيرا كم هي قبيحة، وأنها ليست أفضل من أي مدينة أخرى، فقط هي أكبر .

« هناك» .

« أنا أراها الآن « قالتها هيستير وهي تجلس بجواره، « هناك شئ

ما يجري في قمة الطبقة. إنها مضاءة بالكامل، وكأن حدث ما يجري بها .... توم لابد أن فالانتاين سوف يكون هناك، لابد أنه يستعد لإطلاق الميدوسا».

أومأ توم في أسى بمجرد أن سمع لفظ الميدوسا، فلو أن فانج بينهم الآن لوضعت خطة محكمة لإيقاف ذلك السلاح المرعب، أما هو فلا يجري كيف يتصرف ولا ماعليه ان يفعله. على أية حال كان عليه أن يركز فيما أتى من أجله هو وهيستير .

« إنه هناك في القمة ... إنني أشعر به هناك « .

لم يكن توم يريد الاقتراب أكثر من اللازم من المدينة حتى لايقعا في قبضة العمدة في حال كان هذا الأخير قد أمر رجاله بمراقبة الأجواء فوق المدينة، أو أرسل مركبات الاستطلاع حولها، فأخذ يضغط على بعض مفاتيح التحكم، وارتفع المنطاد إلى الأعلى، ومن أسفلهم تحولت لندن إلى بقعة من الضوء المتحرك بسرعة أسفل السحب .

***

في الأسفل، عبر مخرج القط، أخذ بيفيز وكاثرين ينتقلان من ظلام إلى ظلام، لايقطعه سوى ضوء الكشاف في يد بيفيز. وخلال صعودهما لم يتبادلا سوى بضعة كلمات، واكتفيا بسماع كل منهما لصوت تنفس الآخر .

« لقد صعدنا خمسمائة درجة حتى الآن « قالها بيفيز وهو يرفع كشافه نحو السلم الممتد فوقهما بلا نهاية» لابد أننا الآن في الطبقة الأولى... منتصف الطريق « فأومأت كاثرين وقد تقطعت

أنفاسها وتخشبت ركبتاها، حتى أن القنبلة الخفيفة التي تحملها صارت شديدة الثقل.

***

«كانت خطة توم ذكية حقا» ... هكذا قالت هيستير لنفسها وهو تنظر عبر نافذة الجيني هانيفر إلى العراء الممتد أسفلهما مباشرة وأثار المدينة فوقه، تماما كما شاهدتها وتوم يوم ألقت الأقدار بهما معا هناك، وكانت لندن تلمع أضواؤها في الظلام، حيث حلق توم بالمنطاد إلى حيث طبقة العادم الكثيف الملوث الذي تخرجه المدينة من مخارج العادم ...

فكرة ذكية هي، لكنها ستتحول إلى كارثة إن لم تفلح.

ومن المذياع تردد الصوت : ميناء لندن يطلب رقم هوية المركبة.

نظر توم إليها في رعب، لكنها كانت تعرف ماينبغي فعله هاهنا، فاتجهت نحو زر التحويل بالمذياع وأخذت تحركه للأعلى والأسفل سريعا وهي تردد رسالتها وكأن هناك عيب في الإرسال : « المركبة لندن ge47 « .

وكانت لاتزال تتذكر أرقام المنطاد الذي أعلن عن هبوطه في إيرهيفن عبر المذياع الداخلي للنزل هناك قبل أسابيع مضت، يوم مهاجمة جريك الأولى لهم،» نحن بصدد إعادة جريك إلى مقر الهندسة « .

فترددت بضع كلمات من من الميناء عبر المذياع، إلا أنها قامت بإغلاقه .

« سوف أدور بالمنطاد حول المدينة لمدة عشرين دقيقة ثم أعود لآخذك منها « قال توم « لابد أن هذا وقت كاف كي تعثري على فالانتاين و...»

« سـوف أكـون ميتـة فـي غضـون ٢٠ دقيقة ياتوم، فقط انزلني وابتعد في أمان وانسني تماما».

« سوف أدور ثم أعود «.

« سوف أكون ميتة «.

« سوف أعود على أية حال «.

« مامن جدوى ياتوم « .

« سوف أعود لآخذك « .

فنظرت إليه لتفاجأ بالدموع تملأ مقلتيه، لقد كان يبكي... لأجلها، لأنها ذاهبة إلى خطر محدق ولايدري إن كان سيراها ثانية أم لا .

وبدا لها اهتمامه بها غريبا وجميلا في آن. نظرت إليه ثم قالت : « توم .. إنني أتمنى .. لو أنني .... « لم تكن تدري ماتريد قوله حقا، الشئ الوحيد الذي أرادت أن يعرفه جيدا هو أنه كان أفضل ما وقع لها في حياتها .

أخذ تم يرتفع عبر طبقات المدينة، من الطبقة الثالثة إلى الثانية ثم إلى الأولى حيث ميدان سيركل، ثم تقدم إلى الأمام قليلا ثم أخذ يهبط بالقرب من سطح نايتس بريدج، ثم ارتفع قليلا وصولا إلى القمة، حيث صار لهيستير أن تهبط .

فنظر لها سريعا، أما هي فقد تمنت لو تسنى لها بعض من الوقت لتعانقه وتقبله قبل الرحيل، لكن لم يكن ثمة وقت، فضغطت زر باب المنطاد، وقبل أن تقفز همست : « رجاءً لاتعرض نفس للقتل « ثم قفزت لتسقط بقوة فوق حافة القمة لترتطم بألواح الأرضية وتتدحرج .

أما الجيني هانيفر فقد حلق سريعا عائدا إلى الأعلى وصواريخ الدفاع الجوي تنطلق صوبه من فوق مبنى عصبة الهندسة، إلا أنها أخطأته، وغاب المنطاد في الظلام .

والآن صارت هيستير وحدها ..

***

« منطاد واحد ياسيدي العمدة « قالها مهندس متوتر جاء مسرعا ليخبر كروم بما تلقاه من نبأ عبر جهاز الاتصال المثبت إلى أذنه، « لقد ارتفع ثانية إلى الأعلى، لكننا

لكننا نعتقد أن عملية إنزال أحد الأفراد قد وقعت « .

« آه. مناهضون للتحرك قد هبطوا إلى قمة المدية إذن « قالها كروم وكأنها أمر اعتيادي أو مشكلة بسيطة يواجهونها كل يوم، « حسنا. حسنا .. أظن أن ذلك الحادث هو فرصة مناسبة لاختبار نماذجك الجديدة من المطاردين ياتويكس» .

« آه نعم بالفعل « قالتها بحماسة ثم أشارت للحرس المطاردين: « هيا أيها الصغار إلى العمل « فتحرك المطاردون خلفها فورا إلى الخارج.

فناداها كروم : « أحضروا لي الدخلاء أحياء» .

***

34 عرض الألعاب النارية

أخذ توم يمسح عينيه بكفه وهو يحلق مبتعدا عن لندن إلى الأعلى. إنه لم يعد خائفا الآن، فمن الجيد أن يصبح المرء إيجابيا وأن يفعل في النهاية ما يتعين عليه فعله، كما أنه من الجيد أن يكون قائدا لمركبة رائعة كالجيني هانيفر.

كان عليه أن يدور لمدة عشرين دقيقة، وقد بدا له أن نصف تلك المدة قد مر بالفعل، إلا أنه حينما تفقد الوقت فوجئ بأنه لم يمر سوى دقيقتين لا أكثر منذ أن هبطت هيستير إلى لندن .

وفجأة اصطدم جسم لامع قوي بجسم الجيني هانيفر، فأطاحت قوة الاصطدام بتوم من على مقعد القيادة وتحطمت نوافذ المنطاد، وحين رفع توم رأسه من سقطته تلك فوجئ بكل ما كان موجودا فوق الحاجز الأمامي على لوحة القيادة من أوراق وصور خاصة بفانج وحتى كتابها الذي لم تكمل قراءته، وقد تطاير إلى الهواء عبر النوافذ المكسورة .في البداية لم يستوعب توم الأمر، لكنه ما إن رفع رأسه ليتأكد من أن غلاف المنطاد ل يخترق أو يصبه شئ، رأى ذلك الجسم الضخم الأسود اللامع بجانب الجيني هانيفر .... إنه منطاد فالانتاين، وهاهو يمر بجواره تجاه أسوار الحصن وقد بدا أنه يقوم بجولة تفقدية، قبل أن يعاود لمهاجمة منطاده من جديد .

***

في تلك الأثناء كان ماجنوس كروم يتابع ضيوفه الذين خرجوا إلى الميدان، حيث احتشدوا ليشاهدوا تلك المعركة الدائرة في

السماء فوق السحب. ثم أنه نظر لساعة يده وقال : « دكتور كاندرا ... دكتور شاب ... دكتور سبلاي، لقد حان الوقت لتشغيل الميدوسا. فالانتاين، تعال معنا أظن أنك متشوق لمشاهدة مافعلناه بآلتك « .

« كروم ...هناك شئ يتعين عليّ قوله « قالها فالانتاين مترددا وقد وقف معترضا طريق كروم، فتوقف هذا الأخير رافعا حاجبيه في اندهاش .

صمت فالانتاين هنيهة وهو يحاول استجماع شجاعته. لقد ظل طوال الساعات الماضية يخطط لما سوف يقوله للرجل، والآن، حينما وجد نفسه وجها لوجه أمام العمدة، تلاشت الكلمات وتلعثم وقد بدا أنه لايقوى على المواجهة، إلا أنه أخيرا استطاع استجماع شتات نفسه، ونطق بما ودت كاثرين أن يقوله : « هل الأمر يستحق ياكروم ؟ ... إن تدميرك للحصن لايعني أنك قد دمرت جماعة مقاومة التحرك، فهناك مئات الحصون التي سيكون عليك تدميرها أيضا، وآلاف من البشر سيتعين عليك قتلهم، وستدخل في معارك لاتنتهي، فهل ساحة الصيد الجديدة تلك تستحق كل هذا حقا؟»

سرت موجة من التعجب بين من كانوا لايزالون موجودين حولهما جراء ماقال فالانتاين، أما العمدة فقد وقف يستمع في هدوء، ثم : « إنك قلق أكثر من اللازم يافالانتاين. على العموم يمكن لدكتور تويكس أن تنشئ جيشا من المطاردين، أكبر بكثير مما نحتاجه لسحق أي مقاومة من تلك الجماعة وخوض أي حروب نريدها».

ثم شرع يمضي في طريقه من جديد، ومن جديد استوقفه فالانتاين: « فكر جيدا سيدي العمدة ..كم من الوقت ستمدنا ساحة الصيد الجديدة تلك بما نحتاجه ؟ ألف عام؟ ألفين؟ أيا كان، سيأتي يوم تفرغ فيه تلك الساحة الجديدة من فرائسها، وستجد لندن نفسها حينها مضطرة للتوقف عن الحركة. ربما علينا أن نتقبل ذلك .. لنتوقف الآن، قبل أن يهلك مزيد من الأبرياء، ولتحاول أن تستفيد من الميدوسا في أغراض سلمية « ابتسم كروم، وقال : « هل حقا تظنني قصير النظر ضيق الأفق إلى هذا الحد ؟ إن عصبة الهندسة تخطط لما هو أبعد بكثير جدا مما تتوقع. لندن لن تتوقف يوما عن الحركة. الحركة هي الحياة. وحينما نقوم بالتهام آخر المدن المتحركة ومحو آخر المستعمرات الثابتة، فسوف نبدأ الحفر في أعماق الأرض، وسوف نبني محركات ضخمة تتغذى على حرارة لب كوكب الأرض ذاته، ثم سنحلق بالكوكب بعيدا عن مداره، إلى الفضاء الرحب، حيث الكواكب الأخرى .. سوف نلتهم المريخ .. والزهرة .. سنلتهمهم جميعا، حتى الكويكبات سنلتهمها، وسوف يأتي يوم نلتهم فيه الشمس ذاتها ثم نتخذ طريقنا إلى أبعد من ذلك حيث الفضاء الخارجي البعيد. بعد مليوم عام من الآن سوف تظل مدينتنا تتحرك، ولكن ليس لاقتناص المدن والتهامها، وإنما ستتغذى على الكون ذاته، بكل مايحويه من عوالم « .

ثم مضى الرجل إلى الخارج، وتبعه فالانتاين عبر الباب إلى الميدان باتجاه كاتدرائية القديس بول، وقد وجم تماما وأخذ يفكر: كاثرين كانت على حق... الرجل مجنون تماما ! ...لماذا لم أضع حدا لمخططاته حينما كانت الفرصة سانحة ؟!

في الأعلى كانت الصواريخ لاتزال تنطلق في السماء وقد بدا وكأنها قد أصابت منطادا فانفجر في السماء مخلفا ضوءا هائلا انعكس على الوجوه الشاخصة للحشد المجتمع في الأسفل .

***

وفي تلك اللحظة كانت هيستير شاو تتخفى في الظلام عند أطراف القمة التي انتشرت بها فرق من الرجال العائدين، أخذت أعينهم الخضراء تمشط السطح وتمسح الجدران بحثا عن المتسلل، ومخالبهم تبرز من أياديهم .

***

أما في مخرج القط، فقد وصل كاثرين وبود أخيرا إلى نهاية الدرج، فوجدا غرفة صغيرة مستديرة ذات باب معدني واحد، أخرج بيفيز المفتاح الذي أعطاه إياه بوميروي وأداره في الرتاج فدار معه، و سمعته كاثرين ينفتح، ومن حواف الباب بدا بصيص من الضوء الخارجي، وقد تناهت إلى مسامعهما همهمات المحتشدين في الخارج .

« يبدو أننا في ممر متفرع من ميدان باترنوستر « قالها بيفيز هامسا» ترى، لماذا تبدو الأصوات حماسية هكذا الآن ؟ ماالذي يدور في الخارج بالضبط ؟!»

فنظرت كاثرين إلى ساعتها على الضوء القادم من حواف الباب « إنها التاسعة إلا عشرة دقائق، إنهم ينتظرون لحظة إطلاق الميدوسا».

حان الوقت، وقبل أن تهم كاثرين بالخروج، ضمها بيفيز إليه محتضنا إياها، هامسا « أحبك»، ثم فتح الباب، وبدءا يتخذان هيئة الحارس وسجينته كما اتفقا من قبل. وفي داخله كان بيفيز يتساءل عما إذا كان أي من أفراد عصبته قد وقع في الحب من قبل ومر بنفس الأحاسيس التي خبرها مع كاثرين !

***

نهض توم سريعا من بين الفوضى والحطام، وقد أخذت الدماء تسيل من جبهته من أثر السقطة على عينيه فتعوق الرؤية أمامه، أما آلام ضلوعه المكسورة فقد صارت مروعة وتحولت إلى موجات من الألم تسري عبر جسده بأكمله لتفتت قدرته على التحمل والصمود، حتى صار كل ما يتمناه حينها أن يرقد على الأرض ويغمض عينيه. لكنه كان يعلم جيدا أنه لايمكنه ذلك، فتحامل على نفسه ونهض حتى وصل إلى لوحة القيادة من جديد، وهو يتضرع لكافة الآلهة أن تكون لاتزال تعمل، وشرع يضغط على بضعة أزرار، فظهر مشهد منطاد فالانتاين أمامه على إحدى الشاشات، فمسح عينيه وبكل ما أوتي من قوة بدأ يحرك رافعة إطلاق الصواريخ، وبالفعل شعوره بالاهتزازات أسفل مقعده حيث انطلقت الصواريخ من قاعدة زورق المنطاد، وأمامه انفجرت حزمة من الضوء الهائل بمجرد أن أصابت الصواريخ هدفها، لكن بمجرد أن انقشعت الأضواء فرأى المنطاد أمامه من جديد سالما تماما، وأدرك أن صواريخه بالكاد قد خدشت سطح الغلاف المصفح، فعرف أنه هالك لامحالة.

لكنه قرر أن يمنح لنفسه بضع لحظات أخيرة، وبدأ يحاول

استرجاع هدوئه، وحاول استدعاء صورة كاثرين في مخيلته علها تكون آخر شئ يحمله معه إلى العالم الآخر حيث الأرض التي لاتشرق عليها الشمس. ولكن كان قد مر وقت طويل منذ أن زارته في أحلامه آخر مرة، ولم يعد قادرا على تذكر ملامحها؛ لكن الوجه الوحيد الذي استطاع تذكره جيدا كان وجه هيستير، وأخذ يفكر بها وفيما مرا به معا، والشعور الذي انتابه يوم احتضنها هناك فوق جدار الحصن، ورائحة شعرها ...

عند تلك اللحظة، ومن مكان ما في عقله، تذكر كيف أن صواريخ مدفعية الحصن قد تمكنت يومها من تحطيم زجاج نوافذ منطاد فالانتاين ....وبدأ يدرك أن المنطاد وأن كان غلافه مصفحا إلا أن زجاج نوافذه يمكن تحطيمها .

فاستعاد حماسته، وعاد إلى لوح التحكم في الصواريخ وشاشة الرصد، فأعاد توجيه صواريخه هذه المرة ليس إلى غلاف الغاز وإنما إلى النوافذ، وقد ظهر أمامه أنه لم يعد يملك سوى ثلاثة صواريخ فقط، فقام بإطلاقهم جميعا دفعة واحدة، وارتج الجيني هانيفر بعنف إثر انطلاق الصواريخ نحو هدفها .

وفي كسر من الثانية رأى أمامه وجه الرجلين في المنطاد يحدقان أمامهما في ذهول وقد انفتحت أفواههما عن صرخة رعب، وفي لمح البصر تبخر الرجلان إلى الأبد، حيث اخترقت الصواريخ النافذة الأمامية مباشرة إليهما، واشتعلت النيران في زورق المنطاد. وفي غضون دقائق معدودات أمسك اللهب في كل موضع من المنطاد، وشاهده توم وقد استحال إلى كتل متوهجة، أما غلافه فقد صار أشبه بالمصابيح الصينية الطائرة في الهواء .

***

وقفت كاثرين تراقب الحشود المتحمسة وقد شخصوا جميعا بأبصارهم نحو السماء. وكان لايزال بعضهم يحمل بين يديه كؤوس الشراب وأطباق المقبلات .

فالتفتت نحو قبة الكاتدرائية، لكنها كانت لاتزال بعد مغلقة، فبدأت تتساءل في تعجب عما يثير اهتمامهم إلى هذا الحد إذن ! وما سر تلك الأضواء اللامعة في الأعالي، وذلك الضوء البرتقالي الساطع الكبير الذي طغا بنوره على مصابيح الأرجون في الميدان .

وفي تلك اللحظة سقط حطام منطاد مشتعل تماما فوق واجهة مبنى عصبة الهندسة، مخلفا وراءه عاصفة من النيران والزجاج المتحطم والمعدن الأسود المحترق، وقد انفصل واحد من محركاته وأخذ يتدحرج نحوها سريعا مشتعلا والوقود يتناثر منه ساخنا، فلم تدر إلا وبيفيز يدفعها بقوة بعيدا عن مرمى النيران ....

كان واقفا أمامها ...فاتحا فاه يصيح بشئ ما، ومن خلفه اندفع نحوه المحرك المشتعل وقد رأت كاثرين على غطائه ذلك الرمز الذي تعرفه جيدا لكنها لاتتذكر أين رأته من قبل : عين زرقاء.

وفي لمح البصر، كان بيفيز يرقد على الأرض بين الحطام والنيران .

ببطء وذهول قامت كاثرين من سقطتها، ومن حولها تتناثر كرات اللهب في كل حدب وصوب، أما مقر الهندسة فقد استحال إلى

كتلة من النيران تنعكس أضواؤها على كافة الطبقة .

اقتربت كاثرين وهي تغطي وجهها من لفح النار، وأخذت تفتش عن بيفيز إلى أن وجدته على الأرض بلا حراك، وقد التوى جسده بشكل يستحيل على أي كائن حي، والنيران تمضغ معطفه المطاطي محولة إياه إلى عجين أشبه بالجبن، فأدركت كاثرين من أول نظرة أن الأمر قد انتهى .

كانت النيران آخذة في التصاعد، والحرارة تحيل دموعها إلى بخار على الفور، ومن حولها تناثرت الأجساد والأشلاء ...

«آنسة كاثرين» .

وكانت صورة غطاء محرك المنطاد الهالك وصورة العين الزرقاء لا تزال تلوح بين عينيها، حتى تذكرت أين رأتها من قبل ... على منطاد أبيها ... هذا المنطاد المشتعل هو منطاد والدها ...

« آنسة كاثرين».

التفتت لتجد أمامها أحد عمال محطة المصعد واقفا أمامها محاولا أن يبدو ودودا، فأخذها من ذراعها برفق ليبعدها عن مرمى النيران.

« لم يكن موجودا يا آنسة « قالها مبتسما ليطمئنها، لكنها لم تفهم مايقول، كيف لم يكن هناك ؟ ! لقد رأته بنفسها والنيران تشتعل من حوله ... بيفيز .. الذي قادته إلى حتفه ... الذي أحبها من كل قلبه ...هو ميت الآن، فكيف لم يكن موجودا ومالذي يستدعي تلك الابتسامة إذن ؟ !

لم يكن على متنها ياآنسة .. والدك، أقصد أنني رأيته منذ أقل من خمس دقائق متجها مع العمدة نحو الكاتدرائية « .

تذكرت حينها ماالذي جاء بها وببيفيز إلى هنا، وتذكرت أن لديها مهمة عليها أن تتمها .

« تعالي معي يا آنسة. أنت تعانين من صدمة. تعالي لتستريحي قليلا وتحتسي كوبا من الشاي « .

« لا ... عليّ أن أذهب إلى والدي « .

ثم تركته وأخذت تعدو نحو الميدان، عبر الفوضى والدخان والجثث والحشود المذعورة، وأجراس إنذار الكاتدرائية تدوي بعنف.

***

كانت هيستير تهرع نحو ردهة مقر العصبة، حينما وقع الانفجار، فأطاح بها بعيدا، وظلت تتدحرج على الأرض وقد سقط عنها مسدسها وتمزق وشاحها. مرت فترة صمت ثم بدأت الصرخات تعلو وأجراس الإنذار تدوي والصخب يضرب أطنابه في كل شئ حولها .

ظلت قليلا كما هي تحاول ترتيب أفكارها لتفهم ما قد حدث. .. لقد رأت شيئا ما يسقط من السماء مشتعلا، بقايا منطاد .... أتراه الجيني هانيفر ؟... « توم !» همست هيستير باسمه في هلع، وفي لحظة واحدة شعرت كم انها ضئيلة وحيدة في هذا العالم، ربما أكثر مما كانت من قبل.

ثـم بـدأت تتحـرك محاولـة رفـع جسـدها المـرتجف علـى يـديها وقدميها، وبجوارها كانت جثة احد المطاردين ترقد وقد انقسمت لقطعتين، والنيران تضطرم به. مدت يدها تلتقط الوشاح الذي أهداها إياه توم، وقامت بربطه حول عنقها، ثم أخذت تنظر حولها تفتـش عـن مسـدسها، فقـط لتجـد خلفـها مباشـرة مجموعـة مـن المطاردين الذين لم تمسهم النيران وقد أشهروا مخالبهم المعدنية المتوهجة على ضوء اللهب، فأدركت ان تلك هي لحظة النهاية .

وفـي الأعلـى، بعيـدا عـن النـار والـدخان، كـانت قبـة كاتـدرائية القديس بول على وشك أن تنفتح نحو السماء .

***

35 الكاتدرائية

كانت الرياح تعصف بالجيني هانيفر التي تحطمت نوافذه، حتى أنها قد ألقت به بعيدا عن لندن، إلا أن توم تشبث بلوحة التحكم، وشظايا الزجاج تمزق لحم وجهه ويداه. لقد تأذى المنطاد كثيرا، وبدأ الهيدروجين يتسرب من ثقب أصاب غلافه، إلا أن توم قد تجاهل كل ذلك وبدأ يحاول إعادة توجيه المنطاد من جديد نحو لندن. كما حاول أن يتناسى وجه الرجلين اللذين احترقا في منطادهما، لكنه كلما أغلق عينيه لثوان كانت صورتهما وصرخة الهلع على وجهيهما تهاجمه بضراوة.

أخيرا رفع رأسه فوجد لندن تلوح أمامه بعيدا جهة الشرق، لكنه لاحظ أن ثمة شيئا ما يحدث في الكاتدرائية، في حين كانت النيران في كل مكان، خاصة مقر الهندسة. ثم بدأ يدرك الأمر ... ذلك كله بسببه هو، لقد سقط منطاد فالانتاين الذي قام بتفجيره، مشتعلا فوق قمة المدينة، وأدرك في مرارة أن كثيرا من الناس لابد قد ماتوا، فبدأ الندم ينهشه على إطلاقه لتلك الصواريخ، فقد كان يفضل أن يموت على أن يظل حيا ويرى بعينيه كل ذلك الخراب الذي تسبب فيه .

ثم بدأ يفكر في هيستير .... لقد وعدها أن يعود إليها ليلتقطها من لندن، ولابد أنها تنتظر الآن في الأسفل، بين النيران.

لايمكن له أن يتخلى عنها، فأخذ نفسا عميقا، وعاد يصب تركيزه على لوحة القيادة يعيد توجيه المنطاد نحو المدينة .

***

مضت كاثرين تسير عبر ميدان باترنوستر كالمنومة، إلى حيث الكاتدرائية، ومن حولها كانت النيران تنتشر في كل مكان، لكنها بالكاد كانت تلاحظ الموجودات من حولها. كانت عيناها مثبتتين فقط نحو الكاتدرائية. ..إنها لم تعد خائفة، وكانت تعلم أن كليو تراقبها في تلك اللحظة وتحميها .

كان حراس الكاتدرائية منشغلين تماما بالحرائق المنتشرة حولهم، فلم يعيروا الكثير من الانتباه لتلك الفتاة الصغيرة ذات الحقيبة؛ لقد رفضوا دخولها إل الكاتدرائية في بداية الأمر، لكنها أصرت أن والدها بالداخل وقامت بإبراز جواز مرورها الذهبي لهما، فتركاها تمر .

لم تكن كاثرين قد دخلت من قبل إلى كاتدرائية القديس بول، لكنها طالعت العديد من الصور الفوتوغرافية لها، ولم تكن تشبه أيا من تلك الصور، فقد أحالها مهندسو العصبة إلى شئ آخر تماما، حيث الجدران مبطنة بالمعدن الأبيض اللامع، ومصابيح الأرجون في الأعلى، والأسلاك في كل مكان، ولم يتبق من ملامح الكاتدرائية سوى الارتفاع الشاهق والأعمدة الضخمة.

وإلى صحن الكنيسة، امتدت مجموعة كبيرة من الكابلات الكهربائية الغليظة لتمد الطاقة إلى شئ ما يقع في قلبها هناك عند المنصة.

مضت كاثرين إلى الداخل، وقد حرصت على أن تبقى متخفية في ظلال الأعمدة الضخمة للكاتدرائية، كي لا تلتقطها أعين المهندسين الذين انكبوا منهمكين على أعمالهم .

وأمامها على المنصة أسفل القبة، كانت آلة غريبة الشكل، ضخمة، تقع هناك، وحول قاعدتها انتشرت غابة من الأسلاك المعدنية تصدر ومضات وذبذبات خافتة، ومن حولها كان المهندسون يهرعون جيئة وذهابا، وصعودا وهبوطا عبر السلم المعدني اللولبي المؤدي إلى رأس الآلة عند القبة، في حين وقفت جماعة منهم يتحدثون بحماسة وجدية بالقرب منها، وكأنهم مجموعة من الرهبان وقفوا يتلون الصلوات لإله آلي. وفي وسطهم وقف العمدة وبجانبه أبوها وقد بدا متجهما .

جمدت كاثرين في مكانها، ومن مكمنها في الظل استطاعة أن تلحظ ملامح والدها وهو ينظر إلى كروم، كان وجهه عابسا تماما، وأدركت أنه لم يعد راضيا عما يحدث هاهنا، إلا أن أوامر العمد هي ما يبقيه في هذا المكان .

للحظة نسيت كاثرين أن أباها قاتل، وتمنت لو هرعت نحوه لتعانقه، لكنها الآن بين يدي كليو ولديها مهمة محددة عليها إنجازها.

وفي حذر بدأت تقترب رويدا من المنصة، إلى أن تمكنت من الاختباء خلف حوض قديم للتعميد أسفل درجات المنصة، وقد أتاح لها موقعها الجديد رؤية أفضل لما يفعله كروم وجماعته.

كان الجمع يتحلق حول كومة من الأسلاك والأنابيب المطاطية، وفي وسطها كان جسم كروي صغير لايعدو في حجمه حجم كرة قدم، واستطاعت كاثرين أن تخمن كنه ذلك الجسم .... لابد أنه العقل الاصطناعي للميدوسا، الآلة التي اكتشفتها باندورا شاو خلال رحلتها المنفردة فى أمريكا، لابد انها قد وجدته في معمل

ما مندثر هناك، فأخذته معها عائدة إلى جزيرة السنديان، إلى أن قتلها أبي وسرقه، ثم جاء إلى لندن حيث منحه لعصبة الهندسة، فأخذوه ونظفوه بعناية وقاموا باستبدال أجزائه التالفة بأخرى حصلوا عليها من بقايا العقول الاصطناعية المحركة للمطاردين، التي كان يتم العثور عليها بين الحين والآخر.

والآن يقف دكتور سبلاي أمام الجسم الكروي، وأنامله تتحرك بسرعة فوق لوحة مفاتيح عاجية اللون، حيث أخذ بطبع عليها سريعا سلسلة من الأرقام تظهر باللون الأخضر المتوهج على شاشة المتابعة أمامه، وعلى شاشة أخرى تتبدى المساحة الشاسعة المظلمة الممتدة أمام لندن، وقد تم تحديد نقطة بعينها على بعد عدة أميال عبر سهمين متقاطعين ... إنه جدار الحصن، الهدف.

ومن مخبئها أيضا سمعت أحد الواقفين يقول : « لقد تم شحن البطاريات» .

فتوجه كروم بالحديث إلى فالانتاين وهو يضع يده على كتفه : « هناك يافالانتاين .... نحن الآن مستعدون لأن نصنع التاريخ «.

« ولكن... الحرائق في الخارج «.

« يمكنك استدعاء المطافئ لاحقا. ..المهم الآن أن ندمر جدار الحصن ..الآن .. فأنا أخشى أن يلحق ضرر بالميدوسا جراء النيران».

ظلت أصابع سبلاي تدور سريعا فوق لوحة المفاتيح، وقد صمت الجميع في ترقب واتجهت أنظارهم نحو غابة الأسلاك حول

قاعدة الميدوسا، والتي بدأت تومض بأضواء غريبة متماوجة، في حين أخذت الآلة تصعد ببطء نحو القبة المفتوحة إلى السماء .

شعرت كاثرين أن هؤلاء الرجال المترقبين هم مثلها تماما لايفهمون جيدا طبيعة تلك الآلة التي أتى بها والدها إليهم .

أخذت تفكر، لو أنها أسرعت الآن وألقت بالقنبلة نحو الجسم الكروي فسوف يتغير كل شئ ...ولكن، كيف لها أن تفعل ذلك ووالدها يقف هناك بجانب الجسم الكروي بالضبط، وحتى وهي تقول لنفسها: إنها لم يعد والدها بعد اليوم، وأن حياته لايمكن أن تضاهى بحياة آلاف من البشر هناك في باتمونخ جومبا، إلا أنها لاتقوى - رغم كل شئ- على إلحاق الأذى به.

لقد فشلت في مهمتها، فرفعت رأسها إلى الأعلى مخاطبة كليو في يأس : ماذا تريديني أن أفعل؟ لماذا وضعتني في هذا الموقف؟ لماذا جئت بي إلى هنا؟

لكن كليو لم تجبها ..

في تلك اللحظة وقف كروم أمام لوحة المفاتيح قائلا لسبلاي : « الآن حدد للميدوسا هدف التصويب».

فتسارعت أنامل سبلاي على لوحة المفاتيح، وأخذ يدخل مجموعة من البيانات عن إحداثيات المكان وخطوط الطول والعرض لموقع باتمونخ جومبا.

فانبعث الصوت الآلي من مكبر الصوت بمركز التحكم : تم تحديد

الهدف .. المدى : ١٣٠ ميل. أدخل الشفرة.

وقبل أن يتمكن من طباعة شفرة الميدوسا على لوحة المفاتيح، تناهت إلى مسامع الجميع أصوات عند المدخل الرئيس للكاتدرائية .. إنها دكتور تويس قد حضرت ومن خلفها مجموعة من المطاردين، فقالت : « مرحبا بالجميع! « ثم أسرعت الخطى إلى الداخل وأشارت للمطاردين أن يتبعونها.

« انظر سيدي العمدة ماذا وجد أطفالي الماهرون ! ... لقد استطاعوا الإمساك بأحد مقاومي التحرك، وقد جئنا به حيا كما أمرتنا، لكني أخشى أنك ستجده شديد القبح».

[أدخل الشفرة]

أعاد الصوت الآلي ترديد الجملة .

« اصمتي ياتويكس « صاح بها كروم في حدة وقد اشتعل غضبا لمقاطعتها إياهم في تلك اللحظة المفصلية، ثم عاد ينظر إلى الآلات من حوله، أما الباقون فقد التفتوا نحو احد المطاردين الذي اقترب من المنصة وهو يحمل شيئا على كتفه ثم قام بإلقائه عند قدمي العمدة ... إنه المتسلل الذي استطاعوا الإمساك به .... هيستير شاو .

كانت هيستير ملقاة على الأرض وقد تم تقييد يديها أمامها، ومن موضعها أخذت تنظر إلى المطارد في حيرة وتتساءل في داخلها لماذا لم يقتلها فورا .وبمجرد أن نظر الرجال على المنصة إلى وجهها المشوه جمدوا في أماكنهم، وكأن نظراتها قد حولتهم إلى تماثيل حجرية .

أما كاثرين فقد شهقت بمجرد أن رأت هيستير أمامها « ياكليو العظيمة !»، وشعرت بارتياع شديد هي ترى بعينيها ما اقترفه أبوها بحق الفتاة من تشويه لوجهها، وحينما رفعت عينيها لتنظر لأبيها، ازدادت رعبا، فقد ارتسم على ملامحه تعبير غير إنساني يحمل قدرا مرعبا من القسوة لم تتخيلها كاثرين يوما، بمجرد أن فوجئ بالفتاة ملقاة أمامه ... لابد أن ذلك كان التعبير نفسه الذي ارتسم على وجهه يوم قتل باندورا والتفت ليجد هيستير تنظر إليه .

وقد خمنت كاثرين ماسيقدم عليه والدها في اللحظة التالية، ولهذا وبمجرد أن امتدت يده ليسحب سيفه من غمده، صرخت بأعلى صوتها ان : لااا، إلا أن صوتها لم يتعد حنجرتها، فلم تعدو الكلمة مجرد همسا لايسمعه غيرها، وقد جف حلقها تماما. وهنا بدأت كاثرين تفطن للحكمة من تواجدها هاهنا، ولماذا وضعتها كليو في كل هذا.. لقد كان عليها هي أن تسدد عن أبيها ديونه وتدفع ثمن جرائمه ...

وفي غضون ثوان كانت قد ألقت عنها القنبلة التي صارت عديمة الجدوى، واندفعت خارجة من مخبئها، وأخذت تعدو نحو هيستير، وفي اللحظة التي هم فيها فالانتاين بإخماد السيف في صدر هيستير، كانت كاثرين قد وصلت إليهما فألقت بنفسها بينه وبين الفتى في اللحظة التي كان السيف في طريقه إلى قلب هيستير، فانغرس في صدر كاثرين حتى المقبض .

شهق الجميع في رعب من هول ماحدث، حتى كروم نفسه بدا مصدوما .

[أدخل الشفرة] رددت الآلة للمرة الثالثة.

« لاااااا» صرخ فالانتاين في لوعة غير مصدق أن ابنته تقف أمامه وقد أخمد سيفه في صدرها « كيت، لاا» ظل يصرخ وقد أخرج السيف من بين ضلوعها، أما كاثرين نفسها فقد كانت تشعر وكأن الأمر مزحة ! فما من ألم تشعر به على الإطلاق، فقط دماء تتدفق من صدرها وتغرق الأرض من حولها .

بدأت تتهاوى على الأرض فحاولت هيستير إمساكها، إلا أنها هزت رأسها وقالت :» أبي .. لاتؤذها « ثم ترنحت عبر درجات المنصة إلى أن سقطت فوق لوحة المفاتيح وارتطم رأسها بها، فأخذت الحروف تتوالى على شاشة المتابعة أمامهم بلا معنى، وهرع فالانتاين نحوها فحملها إلى الأسفل، ومن مكبر الصوت دوى الصوت الآلي : [شفرة خاطئة] ثم أخذت مجموعة من الأرقام تتلاحق سريعا عبر الشاشة وبدأت الأسلاك تصدر أصواتا غريبة .

« ماالذي يجري؟!» تساءل الدكتور شاب .

فأجابه دكتور كاندرا : « لقد رفضت الآلة تنفيذ الأمر بسبب الشفرة الخاطئة .... المشكلة أن الطاقة لاتزال تتراكم بها « .

فعاد المهندسون إلى مواقعهم سريعا، يمرون فوق كاثرين وبجانبها، والتي كانت ممدة على الأرض ورأسها على صدر والدها، وقد أخذت تنظر إلى وجه هيستير الذي كان أشبه بانعكاس في مرآة مكسورة؛ كانت سعيدة لأنها أخيرا قابلت أختها غير الشقيقة، وتساءلت هل كان من الممكن أن تصبحا صديقتين .

كانت تحتضر، وقد سرت في جسدها قشعريرة باردة، ثم بدأت تشعر بأنها تتحرر تدريجيا وتصعد إلى الأعلى، وقد خفتت الأصوات من حولها ... [هل أنا على وشك الموت؟... لكنني غير مستعدة بعد].

« ساعدوني» كان فالانتاين ينتحب ويستصرخ المهندسين من حوله، لكن دون جدوى، فما من أحد كان يعبأ به في تلك اللحظة، بل انصب تركيزهم على الميدوسا وفقط.

لم يخف أحد لمساعدته. .. سوى فتاة اقتربت إلى جانبه وحملت رأس كاثرين عنه في حين قام هو بتمزيق قطعة من ردائه ليضغط بها على مكان الجرح ويحاول إيقاف النزيف المستمر .

« شكرا ... ياهيستير « قالها وهو ينظر إلى عينها الرمادية الوحيدة، فبادلته النظرات .... لقد جاءت كل تلك المسافة لتقتله، والآن هاهو تحت رحمتها تماما وسيفه ملقى على الأرض بالقرب منه، ولا أحد يلاحظها، وحتى وهي مكبلة اليدين يمكنها ان تلتقط السيف لتخمده في قلبه، لكنها لم تعد تشعر بشئ على الإطلاق، لم تعد تهتم بقتله. وكانت تنظر إلى بكائه المر وبحيرة الدماء من حول المتدفقة من جسد ابنته، وأفكارها مشوشة تماما : إنه يحب ابنته كثيرا ... لقد أنقذت حياتي.. لايمكن أن أدعها تموت ..

« إنها تحتاج إلى طبيب يافالانتاين « فرفع فالانتاين عينيه إليها ثم إلى المهندسين المنشغلين من حولهم، إنهم لن يقدموا له أي عون أو يحاولون استدعاء طبيب من أجل ابنته. ثم أنه نظر

ناحية بوابة الكاتدرائية وقد لمح ضوءا يحوم في الأعلى خارجها من خلف النيران والدخان .

« إنه الجيني هانيفر « صاحت كاثرين ووثبت على قدميها « إنه توم .... هناك غرفة إسعافات على متن الجيني هانيفر « .

لكنها كانت تعلم جيدا أن المنطاد لايمكنه أن يحط على متن المدينة بين اللهب.

« فالانتاين، هل يكننا أن نصعد إلى سطح الكاتدرائية بطريقة ما ؟»

نظر إليها، ثم التقط سيفه وبدون كلمة واحدة قطع قيودها محررا يديها، ثم حمل ابنته وتقدم بها إلى حيث السلم المعدني المؤدي إلى القبة، فهم أحد المطاردين الواقفين هناك على الإمساك بهيستير إلا أن فالانتاين أمره بالتراجع فورا، في حين أمر أحد رجال الحرس الوطني أن : « ذلك المنطاد في الأعلى، لاتطلقوا عليه الصواريخ «.

هرع كروم نكوه يمسك طرف كمه : « الآلة خرجت عن السيطرة تماما وتأبى أن تعمل ... كويرك وحده يعلم ماالذي حدث بها حينما وقعت ابنتك فوق لوحة المفاتيح ... لايمكننا إطلاقها، كما لايمكننا إيقاف تراكم الطاقة بها .. فالانتاين، افعل شيئا ..أنت من اكتشفت تلك الآلة اللعينة» .

إلا أن فالانتاين أزاحه دون أن ينطق بكلمة، واستأنف طريقه مسرعا نحو قبة الكاتدرائية .

فــي حــين وقــف كــروم فــي الأسـفل يـردد : « لقـد أردت لنـدن قوية ....كل ماأردته أن أجعل لندن قوية « .

***

36 رماد العظام

تقدمت هيستير عبر السلم إلى القبة، أسفل ظل الآلة العملاقة، وعلى يمينها كانت أطلال مقر الهندسة الذي احترق، ومن فوقه الهيكل المتفحم لمنطاد فالانتاين .

لقد التهمت النيران مقر العصبة ووزارة التخطيط ومبنى السجلات بكل ما فيه من وثائق رسمية، باختصار، كانت الكاتدرائية تسبح فوق بحر من النيران .

ومن الأعلى كان الجيني هانيفر يدور محاولا إيجاد طريقة للاقتراب قليلا وسط اللهب .

اعتلت هيستير رأس الآلة، ومن ورائها فالانتاين حاملا ابنته.

« إنه توم « صاحت هيستير من جديد وأخذت تناديه وتلوح بيديها « توم ..توم».

***

كان الوشاح الأحمر هو ما جعل توم يميز هيستير وسط الدخان الكثيف والانبعاثات اللهب، حيث رآها تلوح في الهواء والوشاح الاحمر يتطاير وقد ربطته إلى عنقها، ثم اتت سحابة كثيفة من الدخان لتغطي عليها من جديد حتى ظن أنه إنما كان يتخيل وجودها، فهبط قليلا بالمنطاد، إلى أن تبدت له من جديد بوشاحها الأحمر ومعطفها الأسود الطويل ووجهها القبيح الرائع !..

***

فتحت كاثرين عينيها، كانت القشعريرة الباردة تتزايد بداخلها، وتنتشر في أنحاء جسدها من مكان الجرح ..لكم تمنت لو ان (كلب) معها الآن .

«توم ..توم».

كان أحد يصيح بالاسم فأدارت رأسها لتجد منطادا يهبط حولهم قادما من بين الدخان، إلى ان اقترب جانبه من سطح الميدوسا. فهرع فالانتاين بها إلى حيث الباب، فرأت وجه توم يحدق بها عبر النافذة المكسورة ... لقد كان توم حاضرا حين بدأ كل شئ، ثم حسبته قد مات، والآن هاهو ذا حي .

كان زورق المنطاد أكثر اتساعا مما توقعت، ....والآن قد صارت تراه كمنزلها ..منزل كليو.. وها هو بيفيز ومعه (كلب) واقفان بانتظارها داخله، حتى جرحها كان مجرد خدش بسيط وليس كما كانت تظنه، وهاهي أشعة الشمس تشرق عليهم لتملأ الأجواء بهجة، وهاهو توم يحلق بهم جميعا إلى الأعالي حيث السموات الزرقاء البلّورية الخلابة. كانت سعيدة، فاسترخت بين ذراعي أبيها في سكينة وسلام .

بلغت هيستير المنطاد، ثم مدت ذراعها نحو فالانتاين لتساعده على اعتلائه، لكنها وجدته راكعا على ركبتيه حين أدرك أن ابنته قد فارقت الحياة .

ظلت هيستير تنظر إليه ويدها ممدودة نحوه، دون أن تدري لماذا، ثم بدأ تيار كهربائي يسري في الأجواء فجأة فوق رأس الميدوسا، والشرر يلمع في أكثر من موضع، فصرخت فيه : «

فالانتاين، أسرع « .

إلا أنه رفع عينيه نحوها ومن بين دموعه قال : « هيستير، توم، انجوا بنفسيكما» .

ومـــن خلفـــهما كـــان تـــوم يصـــيح : مـــاذا يقـــول ؟ هـــل هـــي كاثرين؟ ..ماالذي حدث؟»

«لنذهب» قالتها هيستير وهي تتخذ مكانها بجواره، وبدأت تشغل المحركات في وضع الإقلاع، ثم حانت منها التفاتة أخيرة نحو فـالانتاين والمنطـاد يصـعد، وشعرت بألم شديد بداخلها، وعلى وجنتيها تدفق سائل ساخن، فتحسست وجهها وقد حسبت أنها قـد أصـيبت دون أن تشـعر، لكنها قد وجـدت أناملها وقد تبللت بالدموع ....لقد كانت تبكي ...تبكي أبويها...تبكي جريك...تبكي كاثرين... بل وتبكي فالانتاين أيضا .

***

توقفت محركات لندن عن العمل دفعة واحدة، دون سابق إنذار، بسبب الإشعاعات الغريبة التي بدأت تسري في مفاصل المدينة ذاتها.

ولأول مرة منذ أن عبرت لندن إلى ساحة الصيد الشاسعة، تبدأ المدينة المتحركة العظيمة في التوقف .

وفي متحف لندن، حيث تمترس من تبقى من المؤرخين داخل إحدى قاعات العرض، وقف بوميروي يحدق في فرقة المطاردين التي اقتحمت المتحف وأخذت تتقدم به، وفي اللحظة الأخيرة

قبل اقتحام قاعة العرض، توقفوا جميعا، مرة واحدة، ومن جماجمهم المعدنية أخذ الشرر يتراقص ويتصاعد عبر الأسلاك مكللا رؤوسهم بسحابة باهتة من الضوء.

« ياكويرك العظيم! ... لقد انتصرنا !» قالا بوميروي لمن تبقوا أحياء من عصبته.

***

وقف فالانتاين يراقب المنطاد وهو يرحل مبتعدا، وقد انعكست عليه أضواء الحرائق المستعرة في قمة المدينة، وأيضا الشرارات الضوئية التي بدأت تنبعث من الكاتدرائية .

ومن موضعه في الأعلى كان يسمع أجراس إنذار الحرائق تدوي ولكن بلا جدوى، وصراخ المهندسين إذ يهرعون خارجين من الكاتدرائية.

وحين نظر إلى وجه ابنته، شاهد شرر الطاقة ينبعث من شعرها وحول وجهها، فاحتضنها برفق منتظرا لحظة النهاية، وبالفعل، اندلعت عاصفة من الطاقة تسري فيهما وتحيلهما إلى كتلة من اللهب المضطرم ...إلى أن احترقا تماما، وتناثر رماد عظامهما في السماء مع الريح.

***

37 مسارات الطيور

استحالت لندن إلى كتلة من الصواعق، حتى بدا وكأن شعاع الطاقة الذي كان من المفترض أن يمتد لحوالي مائة ميل نحو جدار الحصن، قد التف وعاد ليصيب قمة المدينة ويسري في أوصالها ويذيب معدنها .

اندلعت الانفجارات في كل مكان بالأحشاء، مخلفة حطاما وخرابا وصل لعنان السماء .

حاول بعض اللندنيون الفرار من الجحيم، فهرعوا إلى المناطيد، لكن الشرار والنيران كانا يمسكان بها بمجرد ان ترتفع إلى السماء، وسرعان ماتشتعل أغلفتها، فيسقط المنطاد الواحد تلو الآخر إلى المدينة المتهالكة من جديد، ليضيف إلى الجحيم في الأسفل نيران جديدة .

فقط نجا الجيني هانيفر من ذلك المصير، لكنه لم ينج من عاصفة موجات الطاقة المتفجرة، التي أخذت تعصف به وتطوحه، إلى أن تسببت موجات الطاقة المتدفقة في تعطيل محركاته جميعا.

ولم يدر توم كيف يمكن له أن يعيد تشغيلها من جديد، فانهار باكيا وهو يشعر بالرياح تحمل المنطاد المعطل معها، بعيدا عن مدينته المتهالكة .

«لقد كان الخطأ خطئي أنا « ظل يردد تلك الكلمات من بين دموعه وهو ينظر نحو لندن، وكانت هيستير هي الأخرى تنظر إلى حيث كانت الكاتدرائية، وكأنها لاتزال ترى كاثرين ووالدها

وهما يغرقان في موجات الضوء على سطحها .

«لاياتوم ...لقد كان حادثا « تكلمت هيستير أخيرا» شئ ما خطأ قد وقع في تلك الميدوسا ...لقد كان الخطأ خطأ فالانتاين وكروم...كان خطأ المهندسين الذين أعادوا إحياء هذا الشئ ...خطأ والدتي التي نقبت عن الميدوسا منذ البداية ... بل هو خطأ القدماء الذين اخترعوا ذلك السلاح الرهيب ....لقد كان خطأ رجال فالانتاين الذين حاولوا قتلك ....وخطأ كاثرين لأنها أنقذت حياتي « .

كانت تجلس بجواره وتتمنى لو استطاعت أن تخفف عنه قليلا، لكنها خشيت أن تلمسه، خاصة حينما طالعت انعكاسها المشوه فوق الزجاج المتكسر لنافذة المنطاد، وقد زاده تكسر الزجاج تشوها وقبحا .

لكنها عادت وتذكرت أنه إنما عاد بالمنطاد لأجلها، لأجلها هي فقط، لينقذها .... فقامت بوضع ذراعها المرتجفة حول كتفه وضمته إليها، وقد أراحت وجهها فوق رأسها، ثم أنها أخذت تقبل الجروح الدامية بين حاجبيه، ثم عانقته بقوة، وظلا هكذا حتى الخيوط الأولى من صباح اليوم التالي .

« كل شئ سيكون على مايرام ياتوم».

كانت لندن تقف بلاحراك بعيدا وسط الدخان، وقد وجد توم نظارة مكبرة بين أشياء فانج، فوجهها ناحية المدينة وأخذ يقول في أمل: «لابد أن أحدا ما قد نجا...».

لكن أحدا لم يظهر من المدينة أبدا، وبالرغم من أنه ظل يجول

بالنظارة حول المدينة، عله يرى أثرا لأحياء حولها، إلا أن اليأس كان يتعاظم بداخله وهو ينظر فلا يجد سوى الحطام والبقايا والعجلات المتكسرة، وبحيرات صغيرة من الوقود المشتعل .

في تلك الأثناء كانت هيستير تحاول إعادة محركات المنطاد إلى الحياة، وبالفعل استجاب المنطاد وأخذت المحركات تعمل من جديد.

« توم .. اظن ان بإمكاننا الآن أن نحلق بالجيني هايفر ونحاول العودة إلى باتمونخ جومبا ...سوف يرحبون بنا هناك .. ولسوف يعاملونك كبطل».

لكن توم هز رأسه رافضا فكرة أن يكون بطلا في نظر أي شخص، وقد انطبع في ذاكرته مافعله برجلي فالانتاين. لم يكن توم يدرك جوهر طبيعته الشخصية، لكن المؤكد بالنسبة له أنه ليس بطلا على الإطلاق .

أما هيستير فقد كانت تتفهم مشاعره تماما، وكانت تدرك أن هناك من الجراح مايحتاج إلى زمن طويل كي تشفى ..

« حسنا. سوف نتجه للجزيرة السوداء كي يتم إصلاح المنطاد هناك، ثم سنسلك مسالك الطيور ونرحل بعيدا، إلى حيث بلاد المائة جزيرة أو جبال تاناسور.... لايهم إلى أين سنرحل، طالما أن بإمكاني أن نرحل معا «.

ثم أنها أراحت ذراعيها على ركبتيه ووضعت رأسها فوق ذراعيها، فوجد توم نفسه يبتسم رغما عنه إزاء ابتسامتها الملتوية.

« إنـك لسـت بطـلا يـاتوم، وأنـا لسـت بجميلـة، وربمـا لـن نحيـا سعداء ... لكننا الآن على قيد الحياة، ومعًا، وسوف نكون بخير» .

***

شكر واجب

أدين بالشكر لكل من ليون روبينسون وبريان ميتشيل اللذين أمداني بالإلهام والتشجيع، والأفكار الجيدة. كما أدين بالشكر إلى مايك جرانت الذي قام بنشر أعمالي الأولى في مجلته «هيليوجراف».

وأيضا إلى ليز كروس وكريستين سكيدمور وهولي سكيبيت الذين بدون صبرهم وحماستهم ونصائحهم الغالية لما خرج هذا الكتاب إلى النور.

***

نبذة عن الكاتب

ولد فيليب رييف في بريغتون بإنجلترا عام ١٩٦٦. وفي سني المدرسة أبدى رييف اهتماما كبيرا بالفنون التعبيرية، ونجح في صناعة فيلم بميزانية متناهية الصغر، مقاس ٨ ميلليمتر .

ثم بدأ يسعى وراء إشباع شغفه بالكتابة والرسم والتاريخ في المرحلة الجامعية، وقد أكمل تعليمه الجامعي بحصوله على دبلومة من كلية مامبردج للفنون والتكنولوجيا .

ولمدة ثلاث سنوات ظل رييف بلا عمل تقريبا، فعاد إلى بريغتون ليعمل في مكتبة خاصة لبيع الكتب، وفي أوقات فراغه كان يعمل في الأفلام منخفضة التكلفة ككاتب / منتج/ مخرج.

كما أنه ساعد في كتابة العمل الموسيقى» وزارة البسكويت».

إلا أنه وبسبب نقص التمويل، اضطر للعمل في الأفلام الكرتونية، وفي التسعينيات أصبح يعمل بشكل حر في مجال الفنون التعبيرية، وخلال تلك الفترة شرعة في تأليف الروايات. وقد نشر عمله الذي بين أيدينا الآن «محركات قاتلة « في إنجلترا عام ٢٠٠١، وقد فاز هذا العمل بعدة جوائز منها Smarties Gold Award وBlue Oeter Book السنوية .

وقد اتبعها بثلاثة أجزاء كان آخرها «أرض الظلام» والتي فازت بجائزة Guardian Children›s Fiction وجائزة Los Angeles Imes Book، كما أن له عددا من الأعمال الأخرى التي تدور في العصور المظلمة لبريطانيا مثل «هنا يرقد أرثر» والتي فازت

بجائزة Carnegie Medal .

ويحيا فيليب وزوجته سارا في دارتمور بإنجلترا مع ابنهما سام.

***

